

العَوْنُ الْكَبِيرُ
شرح
العَوْنُ الْكَبِيرُ

سَعِيدُ أَحْمَدَ الْبَايَسَوْرِي
مُحَافِظُ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ بِدَارِ الْعُلُومِ وَبُيُوتِهِ

مَكْتَبَةُ حَبَازِ مَدِيُونَةِ

من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن

الْعَوْنُ الْكَبِيرُ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ فِي أَصُولِ التَّفْسِيرِ

للعبف الفقير إلى فضل ربه القدير

سعيد احمد البالن بوري

خادم الحديث الشريف بدر العلى وبوندر

الناشر

مكتبه حجاز مديونك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونُستَهْدِيه ونستغفره، ونؤمن به ونتوكل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، أما بعد: فقد صنّف الإمام الأكبر، مُسْنِد الديار الهندية، الشيخ أحمد ولي الله بن الشيخ عبد الرحيم الدّهلوي، من أعيان القرن الثاني عشر، كتاباً موجزاً مختصراً، لطلبة العلوم الإسلامية، بلغة محلّية فارسية، وسَمَّاه بالفوز الكبير في أصول التفسير. وكان رحمه الله يدرّس بدوره في حياته، ثم بعده يدرّس في المعاهد الدينية بالهند؛ لأن الكتاب وإن كان صغير الحجم، قليل الأوراق، ولكنه أجدى من تفاريق العصا، وأنفع من الغيث في أوانه.

ولندكرهنا قصة الشيخ العلامة عبيد الله بن الإسلام السندی رحمه الله (١٢٨٩ - ١٣٦٣ هـ) فإنه استثار شيخه المحدث الكبير: محمود حسن الديوبندی، شيخ الهند وزعيم الحرية (١٢٦٨ - ١٣٣٩ هـ) أن يرشده إلى كتاب في أصول التفسير، فأوماً الشيخ إلى "الإتقان في علوم القرآن" للإمام السيوطي، قال: فطالعتُه مراراً، فلم أجد فيه بُغيتي، وأيقنتُ أن ليس وراءه كتاب أفيدُ منه، وأيسرُ من فهم القرآن.

وبعد مدة ذكر الشيخ محمود حسن لتلميذه هذا الكتاب، فقال: إن لمولانا شاه ولي الله أيضاً رسالة في أصول التفسير، قال العلامة السندی: فطالعتها، فوجدت فيها ضالتي، وظفرتُ ببغيتي، وحصل لي القدرة على فهم القرآن الكريم (شاه ولي الله اوران كا فلسفہ ص ٣٨)

ترجمته العربية

ومضى على تصنيفه زمن طويل، والطلاب يقرؤنه برغبة تامة، واهتمام بالغ في أرجاء الهند، لأن اللغة الفارسية كانت رائجة في الهند، فلما انقضى عصرها بالهند، أحسَّ عالم هندي بحاجة البلاد، فترجمه إلى اللغة العربية، وأخفى اسمه، ونسب الترجمة إلى الشيخ محمد منير الدمشقي، صاحب المطبعة المنيرية الشهيرة بدمشق، كما حكاه الأستاذ الأديب الأريب، الشيخ سلمان الحسيني الندوي، عن سماحة الشيخ العلامة المؤرخ الشيخ أبي الحسن على الندوي — حفظه الله تعالى — في ترجمته للفوز الكبير، فقال:

كنا نقرأ على غلاف الكتاب اسم المترجم للكتاب: الشيخ محمد منير الدمشقي، ولم نكن نعرف عنه إلا هذا الاسم، من هو؟ متى ترجم الكتاب؟ هل كان يعرف الفارسية أو استعان بأحد في الترجمة؟ وهل له شيء آخر غير ذلك يتعلق بالإمام الدهلوي؟ أسئلة كانت ترد على ذهن، وتثور في النفس بدون جواب اهـ
وقال في هامشه:

سمعت من سماحة شيخنا، الشيخ أبي الحسن على الحسيني الندوي — حفظه الله تعالى — أن هذا الكتاب ترجمه أحد العلماء في الهند، ونُسب إلى الشيخ محمد منير الدمشقي، صاحب المطبعة المنيرية، واشتهر به. اهـ
وكذلك سمعته ممن أثق به من الأساتذة في دارالعلوم بديوبند، وزاد:

”إنه تعريب أحد العلماء الظاهريين في الهند، وكان قليل البضاعة في العربية“ فكان في الترجمة هُجْنَةٌ (: عيب وقبح) وسَقَطٌ وغموض وتسامح في مواضع عديدة، وكانت الحاجة ماسَّةً إلى الترجمة الصحيحة الدقيقة، ولكن المدرسين له كانوا عارفين باللغة الفارسية، فكانوا يرجعون إلى الأصل الفارسي حيثما يشعرون بصعوبة في حلَّ الكتاب.

وقبل ربع قرن خدمتُ الكتاب بشرحي: العون الكبير، فأحسستُ حينذاك بالخلل، وشعرتُ بحاجة إلى مقابلة الترجمة بالأصل الفارسي، فقمْتُ بهذا الواجب حيثما وجدت الغموض في التعبير، أو الخلل في العبارة، أو التسامح في

أداء الغرض، ونبهتُ عليه في الشرح، ووضعتُ الترجمة الصحيحة في الشرح، ولم أغير أصل الكتاب.

الحاجة إلى تهذيب التعريب، وتغيير الشرح طبقه:

ولا يزال العون الكبير يُطبع من سبائك حديدية، حتى ذهب روائها وبهائها، فأردت طبع الكتاب بالكمبيوتر، فنظرت في الأصل مرة أخرى، فلم يُعجبني الأسلوب، ووقفت في أثناء ذلك على أخطاء كثيرة جديدة، طفيفة وجليلة، فمست الحاجة إلى المراجعة مرة أخرى.

وكذلك القائمون بتدريس الكتاب في دارالعلوم بدوبند، وكذا في الدُّور الأخرى، أصرّوا علىّ مرات وكرات أن أقوم بترجمة الكتاب من جديد، فقامت بواجبي — بتوفيق المليك الوهاب — نحو الكتاب، وأفرغت الجهد في تحرير الترجمة، وجعلت الترجمة القديمة أصلاً، وغيّرت العبارة في مواضع الضرورة، وكانت قد ظهرت ترجمة جديدة قبل ذلك، للأستاذ الشيخ سلمان الندوي، فاستفدت منها في تهذيب التعريب. وعلقتُ في مواضع الحاجة بالاختصار، وقسمت أجزاء الكلام، ورقمت الكتاب، وعنوانته من جديد، فصار الكتاب غصّاً طريّاً. وطُبع في تصفيف جميل رحلة قشبية، وصادف خروجه رغبتهم، فتلقوه بالقبول، وقدمه الشيخ المفضل، الوقور الصبور، مولانا مرغوب الرحمن البجنوري — حفظه الله تعالى — المدير الحالي للجامعة الإسلامية: دارالعلوم ديوبند، إلى المجلس الاستشاري للدار، فقرره للتدريس في دارالعلوم بدوبند، وفي الدُّور الأخرى التابعة لها، فالحمد لله على ذلك.

ثم غيرت العون الكبير في شرح الفوز الكبير، طبق الترجمة المهدّبة المنقّحة المحرّرة وحذفت ما كان يتعلّق بالترجمة القديمة، ووقعت على بعض الأخطاء في الشرح فأصلحته؛ وهذا الشرح عون كبير — إن شاء الله تعالى — لمن رام حلّ الفوز الكبير، ودليل مرشد لمن طالع أصول التفسير، وحاولتُ في الشرح توضيح الكتاب وتبيينه، وإيضاح المرام وتسهيله، واجتهدت في كثير من

المواضع أن أشرح كلامَ الإمام المصنف بكلامه من مآخذه الأخرى، فقرَّبْتُ
البعيد، وجمعتُ الشتيت، وسهَّلتُ الطريق، فَلَلهُ الحمد على ذلك.
وأضفت إلى الشرح مباحثَ مهمَّة من الكتب العربية والأردية، لاسيما من
كتب الإمام الأكبر، حجة الإسلام، شمس العلماء، الشيخ محمد قاسم النانوتوى
— رحمه الله تعالى — مؤسس دارالعلوم بديوبند، فيزداد بذلك — إن شاء الله
تعالى — نفعُ الكتاب.

واستدركتُ على الإمام المصنف — رحمه الله تعالى — قوله في مواضع
عديدة، وأتبعته بالصواب، حيثما مسَّت الحاجة الشديدة إلى ذلك؛ فكل رجل، غير
المعصوم، يؤخذ من قوله ويترك، وقد قال العلامة المحدث الكبير، الشيخ محمد
يوسف البنورى، شارح سنن الإمام الترمذى فى معارف السنن (٤: ٣٦٧): للشيخ
ولى الله — رحمه الله — فى كتبه آراء، مع جلالة قدره، يُشكل أن يوافق عليها اه
رجائى:

هذه مُحاولاتى فى هذا الشرح، فإن كنتُ أصبتُ فيها، فذلك فضل من الله
تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (النحل ٥٣) وإن كانت الأخرى
فإنما هى من نفسى، وأستغفر الله العظيم.

ورجائى من كل قارئ يطلع على خطأ، أن يدلَّنى عليه، وَيُنَبِّهَنى إليه، فالدين
النصيحة، والمسلمون بخير ماتعاونوا؛ وعلى الأقل أرجوهم الغفران:

وإن تجذ عيباً فُسِدَ الخَلَلُ فَجَلَّ من لافيه عيبٌ، وعَلَا

وإنه لَيَحْلُو لى أن أقول هنا ما قاله سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

رَحِمَ الله رجلاً أهْدَى إلى عيوبِ نفسى!

وكتبه

سعيد أحمد عفا الله عنه البالن بورى

خادم الحديث الشريف

بالجامعة الإسلامية دارالعلوم ديوبند

غرة ربيع الأول سنة ١٤٢٠ هـ

علم التفسير

التفسير لغة: الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى في سورة الفرقان:

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾

وفى الاصطلاح: علم يُبحث فيه عن القرآن الكريم، من حيث دلالة على مراد الله تعالى، بقدر الطاقة البشرية؛ فخرج علم القراءات؛ فإنه يُبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم من حيث ضبط ألفاظه، وكيفية أدائها. وقلنا "بقدر الطاقة البشرية" لبيان أنه لا يقدح فى العلم بالتفسير عدم العلم بمعانى المتشابهات، ولا عدم العلم بمراد الله تعالى فى الواقع ونفس الأمر.

وموضوعه: كلام الله تعالى، الذى هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة، من حيث دلالة على مراد الله تعالى.

وغرضه: الاهتداء بهداية الله تعالى، والتمسك بالعروة الوثقى، التى لا انفصام لها، والوصول إلى السعادة الحقيقية الأبدية، التى لا فناء لها. وفضائله: كثيرة، منها:

(١) تكفل الله تعالى بنفسه ببيان كلامه الشريف، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (القيامة ١٩) فالله تعالى هو المفسر الأول لكلامه القديم، وكفى به فضيلة!

(٢) جعل تفسير القرآن الكريم وظيفة النبى صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل ٤٤) فبينه صلى الله عليه وسلم بقوله وفعله، فهو المفسر الثانى لكتاب الله المثنى؛ وكفى به قدوة!

(٣) دعا النبى صلى الله عليه وسلم لابن عمه عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، فقال: ﴿اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْكِتَابَ﴾ (رواه البخارى) وفى رواية: ﴿اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ﴾

(رواه الحاكم) وشهد بِلَبَاقَتِهِ وَعَبْقَرِيَّتِهِ عَبْدُ اللَّهِ بن مسعود رضى الله عنه حيث قال: ﴿نِعَمَ ترجمان القرآن ابنُ عباس!﴾ (رواه الحاكم) فهل فوق ذلك من فخرا (٤) وجعل خيرُ الناس من تعلّم القرآن وعلمه الناس، وهذا عام لتعليم ألفاظ القرآن ومعانيه، بل هو أولى، ونَاهِيكَ به من عُليَاء!

التفسير والتأويل: هما بمعنى واحد عند المتقدمين، وأما عند المتأخرين: فقال الراغب: التفسير أعم من التأويل، وأكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها؛ وأكثر استعمال التأويل في المعاني والجمل، وأكثر ما استعمل في الكتب الإلهية؛ والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها.

وقال آخر: التفسير بيان لفظ لا يحتمل إلا وجهها واحداً.

والتأويل: توجيه لفظ متوجه إلى معانٍ مختلفة إلى واحد منها، بما ظهر من الأدلة.

وقال الماتريدي: التفسير: القطع بأن المراد من اللفظ هذا، والشهادة على الله أنه عني باللفظ هذا؛ فإن قام دليل مقطوع به فصحيح، وإلا فتفسير بالرأى، وهو المنهى عنه؛ والتأويل: ترجيح أحد الاحتمالات بدون القطع والشهادة على الله (راجع الإتقان نوع ٧٧)

التفسير بالرأى:

ومن أهم ما نريد أن نلقى عليك معنى "التفسير بالرأى" فدونك نبذة منه: قال شيخ مشايخنا الإمام الكشميري رحمه الله: إن التفسير إذا لم يوجب تغييراً لمسألة، أو تبديلاً في عقيدة السلف، فليس تفسيراً بالرأى؛ فإذا أوجب تغييراً لمسألة متواترة، أو تبديلاً لعقيدة مَجْمَع عليها فذلك هو التفسير بالرأى، وهذا الذى يستوجب صاحبه النار.

وحينئذ لا قَلَقَ فيما فسرهُ المفسرون من أذهانهم الثاقبة، وأفكارهم الصحيحة؛ ومن يُطالع كتبَ التفسير يجدُها مَشْحُونَةً بالتفسير بالرأى، ومن حَجَرَ على العلماء

أن يُبرزوا معاني الكتاب بعد الإمعان في السياق والسباق، والنظر إلى حقائق الألفاظ ومراعاة عقائد السلف؟ بل ذلك حَظُّهم من الكتاب، فإنهم هم الذين ينظرون في عجائبه، ويكشفون الأستار عن وجوه دقائقه، ويرْفَعُونَ الحجب عن خبيئات حقائقه، فهذا النوع من التفسير بالرأى حظ أولى العلم، ونصيب العلماء المستبطين؛ أما من تكلم فيه بدون صحة الأدوات، لا عنده علم من كتاب السلف والخلف، ولاله ذوق بالعربية، وكان من أجلاف الناس، لم يَحْمِلْهُ على تفسير كتاب الله غير الوقاحة، وقلة العلم، فعليه الأسف كل الأسف، وذاك الذي يستحق الناراه (فيض الباري ٤: ١٥٠)

وقال الإمام الأكبر الشيخ العارف بالله مولانا وسيدنا محمد قاسم النانوتوى — نور الله ضريحه — في خاتمة "تحذير الناس من إنكار أثر ابن عباس" (ص ٣٦-٣٧):

معنى التفسير بالرأى: التفسير بالهوى، والتفسير من عند نفسه؛ وأما التفسير بالدليل والقرينة فهو تفسير صحيح معتبر عند العلماء.

وبيان ذلك: أن المفهوم الكلى^(١) ينطبق على آلاف من الأفراد، فكل منها مصداق واقعي لذلك المفهوم الكلى؛ فإن ذكر في الآية أمرٌ كلىّ فهي آية مجملة بالنسبة إلى الأفراد، سواء كانت فيما بين الأفراد نسبة التوارد على سبيل البدلية أم لا. فمن خَصَّ احتمالاً منها بغير قرينة ودليل فكأنما ادعى النبوة لنفسه، ويصير بذلك كافراً. وأما إذا كان هناك دليل عقلى أو نقلى أو قرينة عقلية أو نقلية فرَّجَ احتمالاً منها، حسب قوة الدليل والقرينة، فلا يكون كافراً، وإلا فكيف السبيل إلى ظهور الدقائق والنكات إلى الأبد، كما يشعر به بعض ألفاظ الأحاديث المرفوعة، نحو: لَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يُخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبَهُ!

وخذلك مثالا ليتضح به الأمر:

(١) المفهوم الكلى: ما لا يمتنع فرض صدقه على كثيرين كحيوان ناطق.

العقل كالْمِنْظَارِ والمُجْهَرِ للمعلومات الدقيقة الغامضة، والمضامين البعيدة من الفهم، فكما تُرى الأجسام الصغيرة والبعيدة بهما واضحا وقريبا، كذلك تتجلى المعلومات البعيدة والمضامين الغامضة بوسيلة العقول الصافية السليمة جلاء الشمس في رابعة النهار.

نعم كما أن مدركات الْمِنْظَارِ والمُجْهَرِ ليست في الحقيقة عين المعلوم، بل هي شَبَحٌ ومثال له، فكذلك ما يَرْتَسِمُ في الذهن من كُنْهِ المعلومات ووجهها، وقت إدراكها، مثال للمضامين المذكورة، وشبح لها.

وكما أن صورة المرأة تتصف دائما بلونها فكذلك تتصف المعلومات أيضاً بلون الذهن، ولا يسوغ لنا أن نُنسب هذا اللون إلى أصل المعلوم، بل يجب علينا أن ننسبه إلى ذهن العالم.

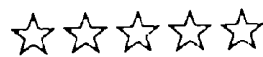
فإذا وعيتَ المثال، فاعلم أن في التفسير يُوضَّح الأمرُ المَجْمُلُ، لايزاد فيه ولا ينقص منه، كما إذا فسرنا الإنسان بالحيوان الناطق فلم نرد فيه على الأصل شيئا، كما كان الشأن في الإدراك بالمُجْهَرِ، فيسوغ لنا القول بأن الصور المرآتية تفسير لذواتها، وأما الألوان العارضة للصور من زجاج المجهر، فهي تفسير بالمرآة.

فالحاصل: أن التفسير بالرأى: هو مالا يكون به تَعَرُّضٌ في مرتبة الإجمال، وأدخله المفسر في الآية في مرتبة التفصيل، فإدخال مثل هذه الأمور في تفسير الآية يكون من قِبَلِ التصرفات الخيالية الباطلة (معربا وملخصا)

وأما أصول التفسير: فهي علم بالقواعد التي تُعين المفسر والقارئ في فهم كتاب الله العزيز.

وموضوعه: هو الكتاب العزيز.

وغايته: التيسير في فهم مراد الله تعالى، الموجب للسعادة الأبدية.



ترجمة الإمام المصنف^(١)

اسمه ونسبه:

هو: أبو عبد العزيز، ولي الله قطب الدين أحمد بن الشيخ أبي الفيض عبد الرحيم بن وجيه الدين، الفاروقى، الدّهلوى، الهندى، ينتهى نسبه من الأب إلى الفاروق الأعظم عمر بن الخطاب رضى الله عنه؛ ومن الأم إلى الإمام الهمام موسى كاظم رضا رحمة الله عليه.

وكان والده — رحمه الله — قد بُشّر بصاحبنا الإمام المصنف فى رؤيا صالحة، بشره به الشيخ قطب الدين أحمد بختيار كاكى الأوشى — رحمه الله — وأوصاه أن يسميه باسمه إذا وُلد، فنسى والده تلك الوصاية وسماه بـ "ولى الله" ثم بعد مدة تذكر الوصية فسماه ثانياً بـ "قطب الدين أحمد"

ولادته:

وُلد — رحمه الله — فى عهد عالمگیر لأربع مضت من شهر شوال

(١) مصادر الترجمة: نزهة الخواطر للمؤرخ الشهير عبد الحى بن فخر الدين الحسنى ٦: ٣٩٨ - ٤١٥ والأعلام للزركلى ١: ١٤٤. وأبجد العلوم للنواب صديق بن حسن البوفالى ٣: ٩١٢. وفهرس الفهارس ١: ١٢٨، وإيضاح المكنون ١: ٦٥ و ١٦١. واكتفاء القنوع ص ٩٧ و ١٣٤ و ١٨٥، واليانع الجنى لمحسن بن يحيى الترهتى. وحدائق الحنفية ص ٤٤٧ ومعجم المؤلفين ١٣: ١٦٩ وتراجم علماء حديث هند ص ٦ و حياة ولى الله وشاه ولى الله نمبر لمجلة الفرقان الشهيرة الشهرية الصادرة من لكهنؤ، ومقدمة الخير الكثير للسيد أحمد رضا البجنورى صاحب أنوار البارى فى شرح البخارى.

المكرم^(١) سنة ١١١٤ هـ (٢) يوم الأربعاء في قرية "بُهَلْت" (فُلْت) بمديرية مظفر نگر من أعمال الولاية الشمالية (U.P.) في الهند، واسمه التاريخي "عظيم الدين" نشأته:

بدأ التعليم في السنة الخامسة من عمره، وأتم القرآن الكريم في السنة السابعة، ثم بدأ في الفارسية والعربية، فختم الفوائد الضيائية للعارف الجامي في السنة العاشرة.

وكان — رحمه الله — قد تعلم من والده^(٣) وفرغ من الكتب الدراسية في الخامس عشرة من عمره، وحصلت له من والده إجازة التدريس والتعليم. وكان يختلف في أثناء تعليمه إلى إمام الحديث في زمانه الشيخ محمد أفضل السيالكوثي فانتفع به في الحديث، وقرأ عليه صحيح الإمام البخاري والشمائل النبوية للإمام الترمذي وجزءاً من مشكوة المصابيح.

ثم تآقت نفسه إلى زيارة الحرمين الشريفين، فرحل إليها سنة ١١٤٣ هـ وكان هو إذ ذاك ابن ثلاثين سنة، فحج في تلك السنة، وأقام هناك عامين، وتلمذ على الشيخ أبي طاهر محمد بن إبراهيم الكردى المدنى، فسمع منه صحيح البخاري وقرأ عليه أطراف الكتب الستة، والموطأ، والمسند، للإمام الدارمي، وكتاب الآثار للإمام محمد، وتناول منه إجازة بقية الكتب.

ثم ورد بمكة المباركة، وأخذ موطأ مالك عن الشيخ وفد الله المالكي المكي وحضر دروس الشيخ تاج الدين الحنفى القلعى المكي أياماً، حين كان يدرس صحيح البخاري، وسمع منه أطراف الكتب الستة وغيرهما، وحلَّ مشكلات الكتب المذكورة ومعضلاتها عنده، وأخذ الإجازة منه لجميع الكتب.

(١) وفي النزهة: ولد لأربع عشرة خلون من شوال (٢) في الأعلام: ولادته سنة ١١١٠ هـ = ١٦٩٩ م (٣) وكان والده من وجوه مشايخ دهلي ومن أعيانهم، له حظ وافر من العلوم الظاهرة والباطنة، مع علو كعبه في طريقة الصوفية، وكان قد تلمذ في المعقولات على العلامة الشهير ميرزاهد الهروي رحمه الله.

وعاد إلى الهند سنة ١١٤٥هـ فمكث يدرس ويصنف ثلاثين عاما، وانتفع به خلق كثير لايحصى عددهم، وقرأ عليه جماعة وتخرجوا عليه فصاروا من أعيان الهند.

وفاته:

وتوفى إلى رحمة الله سبحانه ظهيرة يوم السبت سَلَخَ (١) شهر الله المحرم سنة ١١٧٦هـ = ١٧٦٢م بمدينة دهلي (٢) فدفن عند والده خارج المدينة بموضع يُعرف الآن بـ "مهديان" وقبره معروف.

عصره:

ولد رحمه الله حينما كان المسلمون في حاجة شديدة إلى مثله من رجال الدين، فإن الدولة المغولية في الهند كانت إذ ذاك على وشك الزوال، وكان قد تقلص ظلها، واضمحل أمرها، وراجت البدعات والمراسيم السيئة في الهند؛ وقرش الفقراء الكذبة والمتشيخون بسطهم في الزوايا، فجلسوا عليها يكيدون الإسلام والمسلمين، ويفسدون أحوالهم، وكان علماء عصره لا يعرفون من معاني القرآن ومطالبه وأحكام الحديث وأسرار الفقه شيئا فَمَا ظَنكَ بالعوام!

فكان طلوع هذا النير الساطع، في تلك الساعة، أكبر فضل من الله تعالى على أهل الهند، وأعظم هبة وهبها أيّاهم.

أعماله الخالدة:

له أعمال خالدة لايحصى عددها، فلنذكر بعضها:

(١) كان على الدولة المغولية في الهند طابع التشيع غالبا منذ عهد "هُمايُون" ولم يزل طائفة من أمراء البلاد يتمسكون به، فكان لذلك أثر عظيم في انعطاف الناس إلى التشيع، وأخذ يتسرب إلى أذهانهم مذهب الشيعة.

وكان الأمراء (النواب) في لكهنؤ، أيضا يتمذهبون بمذهب الشيعة، وكانوا

(١) سَلَخَ الشهر: آخره (٢) وقيل في وفاته: سنة ١١٧٩هـ

غالين فيها جدا، فكان كل ذلك يؤثر في عقائد أهل السنة تأثيرا شديداً، ويميل بهم عن المحجة الحنيفية السمحة البيضاء.

ومما زاد شناعة الأمر: أنه ما كان من علمائهم من يدفع عنهم أثر التشيع، ويجرأ على الذود عن حيازتهم^(١).

فقام الإمام المصنف بواجباته، وعزم على الذود عن عقائد أهل السنة والجماعة، فطرد الشبهات، وأزال الظلمات، وصنف كتابه الشهير: إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء (بالفارسية) وأثبت فيه بمات من الأحاديث مناقب الخلفاء الراشدين المهديين وفضائلهم^(٢).

(٢) كان المسلمون في عصر الإمام المصنف يزعمون أن القرآن العظيم لمحض التلاوة والقراءة، فدعاهم إلى فهم معانيه، ونشر تعاليمه، وصنف رسالة جامعة في أصول التفسير، وأسماها بالفوز الكبير (الذي نحن بصدد شرحه) وصنف رسالة أخرى، حل فيها معضلات القرآن ومشكلاته، وبين أسباب النزول وتوجيه المشكل، وأسماها بـ "فتح الخبير بما لا بد من حفظه في علم التفسير" واشتغل

(١) ومن طالع مكاتيب الشيخ العارف أحمد السرهندي، مجدد الألف الثاني، الذي كان في عهد السلطان أكبر وجهانگیر، يتضح له ما قلنا اتضاح الشمس، فإنه رحمه الله كان يتأسف كثيراً، ويحزن حزناً شديداً على هذه الحالة الفظيعة.

(٢) ثم صنف نجله الأكبر الشيخ الإمام المحدث الكبير الشاه عبد العزيز الدهلوي كتابه: تحفة إثنا عشرية (بالفارسية) فحصل ما في صدور الشيعة، وعربه الشيخ غلام محمد بن محيي الدين الأسلمي واختصره وهذبه علامة العراق السيد محمود شكري الألوسي فسماه، مختصر التحفة الاثنى عشرية، وهو مطبوع؛ ثم بعد مدة طويلة هذا حذوهما الإمام الأكبر، نابغة الهند، الشيخ محمد قاسم النانوتوي (مؤسس دارالعلوم بديوبند) في كتابه هدية الشيعة يعنى الهدية إلى الشيعة (بالأردية) فأبدع فيه وأتى فيه بعجب عجاب، وماترك من التحفة شيئاً. فكما عرب الثاني يحتاج الأول والثالث أيضاً إلى الترجمة العربية، لينتفع بهما أخوانا العرب أيضاً.

بتدريس القرآن العظيم، فجعله كتاباً أساسياً في قائمة الكتب التي تُقرأ عليه.

(٣) وكان الناس في عصره يجهلون اللغة العربية الفصحى، فما كانوا يستطيعون فهم كتاب الله رب العالمين، فترجم الإمام المصنف القرآن العظيم بالفارسية (لغة علمية في عهده) وسنَّ بصنيعه هذا سنةً حسنةً متبوعة (١) وأسماءها بـ "فتح الرحمن في ترجمة القرآن"

(٤) وقد أفرغ الإمام المصنف مجهودَه في سبيل نشر الحديث في الهند، ولم يأل فيه جهداً، وأتم البناء الذي أقامه الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي رحمة الله عليه (المتوفى سنة ١٠٥٢ هـ) وسدَّ الفراغ الذي بقي في نشر الحديث من زمانه، فشرح الموطأ للإمام مالك بن أنس الأصبحي (أول كتاب في علم الحديث) بلغة محلية فارسية، وسماه "المُصَفَّى"، ثم شرح بلغة عربية، وأسماه بـ "المُسَوَّى"، فوقَّ فيهما؛ وشرح تراجمَ الجامع الصحيح للإمام البخاري، وصنف: الفضل المبين في المسلسل من حديث النبي الأمين، وما إلى ذلك من الكتب الحديثية.

(٥) كان الناس غافلين في عصر الإمام المصنف عن العلوم الشرعية النقلية، وكان حديث ليلهم ونهارهم العلوم العقلية، والفلسة اليونانية، وقد دبَّت في عقولهم سموم هذه الفنون، ففقدوا الفطرة الساذجة لفهم الدين الحنيف، فأحسَّ الإمام المصنف بهذا الخطر الشديد العظيم فبيَّن لهم أسرار الشريعة ليستعدوا لقبولها برغبة تامة، فصنف كتابه الشهير العظيم: حجة الله البالغة، قال نجله المحدث عبد العزيز في وصفه:

كتاب حجة الله البالغة الذي هو عمدة تصانيفه في علم أسرار الحديث لم يتكلم في هذا العلم أحد قبله على هذا الوجه، من تأصيل الأصول، وتفريع الفروع، وتمهيد المقدمات والمبادئ، واستنتاج المقاصد منها إلى المجلس

(١) وراجع الفصل الرابع من الباب الرابع من نفس الكتاب.

ثناء الناس عليه:

افتتح المؤرخ الكبير عبد الحى الحسنى اللكهنوى ترجمته بالكلمات الآتية:
 الشيخ الإمام الهمام، حجة الله بين الأنام، إمام الهدى، قدوة الأمة، علامة
 العلماء، وراث الأنبياء، آخر المتجهدين، أوحد علماء الدين، زعيم المتضلّعين
 بحمل أعباء الشرع المتين، محيى السنة، ومن عظمت به لله علينا المنّة، شيخ
 الإسلام، قطب الدين، ولى الله بن عبد الرحيم بن وجيه الدين العمرى الدهلوى:
 العالم الفاضل النحرير أفضل من بئ العلوم فاروى كل ظمآن
 وقال صاحب فهرس الفهارس وغيره: أحى الله به، وبأولاده، وأولاد بنته،
 وتلاميذهم الحديث والسنة بالهند، بعد مواتهم، وعلى كتبه وأسانيده المدار فى
 تلك الديار.

وكان المفتى عنايت أحمد الكاكوروى يقول:

إن الشيخ ولى الله مثله كمثلى شجرة طوبى، أصلها فى بيته، وفرعها فى كل
 بيت من بيوت المسلمين، فما من بيت ولا مكان من بيوت المسلمين وأمكنهم،
 إلا وفه فرع من تلك الشجرة، لا يعرف غالب الناس أين أصلها؟

وقال شيخه أبو طاهر محمد بن إبراهيم الكردي المدني:

إنه لیسند عنى اللفظ و كنت أصح منه المعنى

وليس وراءه مفخر يرام، ولا فوقه منقّة ترجى.

شرف ينطح النجوم بروقيه^(١) وعزّ يقلّل الأجبالا

تصانيفه القيمة:

قد صنف فى العلوم كلها، لاسيما فى الحديث والتفسير، وأصولهما، وعلم
 الحقائق والتصوف، كتباً عديدة معتبرة. وتصانيفه حُججٌ قواطع على تبحره،

(١) الرّوق: القرن والجمع أرواق.

وبراهين، سواطع على تبصره، وسعة نظره، وغزارة علمه، بلغت عددها إلى خمسين كتبا، ولندكر بعضها:

(الف) مايتعلق بعلوم القرآن:

صنف فيما يتعلق بعلوم القرآن ترجمة الفرقان على شاكلة النظم العربى فى قدر الكلام وخصوص اللفظ وعمومه، وسماها بـ "فتح الرحمن فى ترجمة القرآن" (بالفارسية) وفى أصول التفسير كتابه الشهير الفوز الكبير (بالفارسية)؛ وفتح الخير بما لا بد من حفظه فى علم التفسير (بالعربية) وهو الباب الخامس من الفوز الكبير، وتأويل الأحاديث رسالة نفيسة له بالعربية فى توجيه قصص الأنبياء عليهم السلام، وبيان مبادئها التى نشأت من استعداد النبى، وقابلية قومه، ومن التدبير الذى دبرته الحكمة الإلهية فى زمانه. و"الزهرابين" فى تفسير سورة البقرة وآل عمران.

(ب) ما يتعلق بالحديث وعلومه:

صنف المصطفى شرح الموطا (بالفارسية) تكلم فيه ككلام المجتهدين و"المسوى شرح الموطا" (بالعربية)، اكتفى فيه على ذكر اختلاف المذاهب وعلى قدر من شرح الغريب. وشرح تراجم الأبواب للبخارى، أتى فيه بتحقيقات عجيبة، وتدقيقات غريبة. وكذا صنف "الإرشاد إلى مهمات الإسناد" و"الفضل المبين فى المسلسل من حديث النبى الأمين"، و"النوادر من أحاديث سيد الأوائل والأواخر"، و"المسلسل بالأسودين"، و"الأربعين" جمع فيه أربعين حديثا، قليلة المباني، كثيرة المعاني، و"الدر الثمين فى مبشرات النبى الأمين".

(ج) مايتعلق بفقه الحديث، وأسرار الشريعة، وأصول الدين.

صنف "حجة الله البالغة" فى علم أسرار الشريعة، و"حسن العقيدة" رسالة مختصرة فى العقائد بالعربية. والإنصاف فى أسباب الاختلاف بين الفقهاء والمحدثين، وعقد الجيد فى أحكام الاجتهاد والتقليد، والبدور البازغة والمقدمة

السنية في انتصار الفرقة السنية.

(د) ما يتعلق بالسير والتاريخ.

صنف "إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء" كتاب عديم النظير في بابيه، لم يؤلف مثله قبله ولا بعده يدل على أن صاحبه لبحر ذخار، لا يرى له ساحل؛ و"قرة العينين في تفضيل الشيخين" (بالفارسي). و"سرور المحزون" مختصر بالفارسي ملخص من نور العيون في تلخيص سير الأمين والمأمون صلى الله عليه وسلم لابن سيد الناس، صنفه بأمر صاحبه الشيخ الكبير، العارف الطائر الصيت، مرزا مظهر جان جاناں الدهلوی رحمهما الله تعالى، و"أنفاس العارفين" تشتمل على تراجم آبائه، والكبار من أسرته، وعلى سيرهم وبعض وقائعهم، وأذواقهم ومعارفهم، و"إنسان العين في مشايخ الحرمین" و"أطيب النغم في مدح سيد العرب والعجم".

(هـ) ما يتعلق بالحقائق والمعارف والسلوك والتصوف.

صنف "الخير الكثير" و"التفهيمات الإلهية" و"فيوض الحرمین" و"المكتوب المدني" في حقائق التوحيد، و"ألطاف القدس في لطائف النفس" و"القول الجميل في بيان سواء السبيل" في سلوك الطرق الثلاثة المشهورة: القادرية والجهتية والنقشبندية، و"الانتباه في سلاسل أولياء الله" كتاب مبسوط في بيان السلاسل المشهورة وغير المشهورة، و"الهمعات" في بيان النسبة إلى الله (بالفارسية) و"اللمحات" و"السطعات" في بعض ما أفاض الله على قلبه، و"الهوامع في شرح حزب البحر" على لسان الحقائق والمعارف، و"شفاء القلوب" في الحقائق والمعارف. وغير ذلك من الكتب المفيدة. وله ديوان الشعر العربي، جمعه ولده الشيخ عبد العزيز، ورتبه الشيخ رفيع الدين، وله رسالة نفيسة في قواعد ترجمة القرآن وحل مشكلاتها. وله "منهيات" على فتح الرحمن. ورسالة بسيطة في الأسانيد بالفارسية، مشتملة على تحقيقات غريبة وتدقيقات عجيبة.

كان الإمام المصنف — نور الله ضريحه — من مقلدى الإمام الأعظم
أبى حنيفة نعمان بن ثابت الكوفى — رحمة الله عليه — وكان درسه منبعاً
للعلوم الإسلامية بأسرها، لاسيما علم التفسير والحديث والفقه الحنفى. ومن
أصرح ما يستدل به على كونه "حنفياً" أنه بنفسه قد ادّعاه، وأقرّبه فى تحرير له
بقلمه؛ فإنه قد توجد فى المكتبة لخدأ بنخش بعظيم آباد (پٹنه) نسخة لصحيح
البخارى التى لها أهمية كبرى، فإنها قد استعملت فى درس الإمام المصنف،
وقراها عليه تلميذه: محمد بن پير محمد بن أبى الفتح العمرى البلگرامى، وقد
كتب عليها هذا التلميذ:

وقد تمّ درس صحيح البخارى فى يوم الأربعاء، لستة مضين من شوال سنة
١١٥٩هـ فى دهلى، بالقرب من جمنا (اسم نهر فياض بدھلى) فى الجامع
الفيروزى الخ

ثم كتب عليها الإمام المصنف بيده سلسلة إسناده إلى الإمام البخارى،
بالعربية، وهاكم نصه:

..... أما بعد، فإن أخانا فى الله — عز وجل — الفاضل الصالح الشيخ
محمد بن الشيخ پير محمد بن الشيخ أبى الفتح، العمرى نسباً، والبلگرامى
أصلاً، والإله آبادى مولداً ومنشأً، قرأ على الجامع الصحيح المسند، تصنيف
الإمام الحجة أمير المؤمنين فى الحديث، أبى عبد الله محمد بن إسماعيل
البخارى — رحمه الله — جميعه، فإنه سمعه على بقراءة خواجه محمد
أمين، وقرأ على أيضاً أطرافاً من سائر الكتب الستة، ومن موطا الإمام مالك بن
أنس، ومن مسند الحافظ أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى،
ومشكوة المصابيح.

فأجزت له أن يروى عنى بهذه الكتب كلها، وكذلك أجزت له أن يروى

عنى كل ماصح عنده أنه من مرويا تى بشروط الرواية المعتبرة عند أهل هذا الشأن. وقد أخبرنا لصحيح البخارى — جميعه — شيخنا أبو طاهر محمد بن أبراهيم الكردي المدني.

وأخيراً قال:

وكتبه بيده: الفقير إلى رحمة الله الكريم الودود، ولي الله أحمد بن عبد الرحيم بن وجيه الدين بن معظم بن منصور بن أحمد بن محمود، عفا الله عنه وعنهم، وألحقه وإياهم بأسلافهم الصالحين، العمرى نسباً، الدهلوى وطناً، الأشعرى عقيدة، الصوفى طريقة، الحنفى عملاً، والشافعى تدريساً، خادماً التفسير والحديث والفقه والعربية والكلام وله فى كل ذلك تصانيف، والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، ذى الجلال والإكرام.

وكان ذلك يوم الثلاثاء لثالث وعشرين من شوال سنة ١١٥٩ هـ.

وقد كتب الشيخ رفيع الدين الدهلوى ابن الإمام المصنف تحت العبارة المذكورة، ما معناه:

لاشك أن هذا التحرير بيد والدى المحترم، كتبه الفقير محمد رفيع الدين .

إزاحة شبهة: فما يفهم من بعض عبارات الإمام المصنف أنه كان يرجح مذهب الإمام الشافعى — رحمه الله — أو كان يجمع بين المذاهب، فمعناه كما قال السيد أحمد رضا البجنورى شارح الصحيح للإمام البخارى:

أنه كان يرجح تدريساً وبحثاً، لأنه صرح فى بعض تأليفاته أن لِحَقِّيَّة

المذهب عنده معينين:

الأول: كونه مطابقاً لظواهر النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية.

والآخر: كونه موافقاً لمعانيها ومطابقاً المقصودة.

فقال بحقية مذهب الإمام الشافعى بالمعنى الأول، وبحقية مذهب الإمام

أبى حنيفة بالمعنى الثانى، والله أعلم بمراد عباده اه (١)

(١) وراجع للتفصيل إلهام الرحمن فى تفسير القرآن ١: ٢٣١-٢٣٣

من نِعَمِ الله تعالى عليه:

خصَّه الله تعالى بعلوم لم يَشْرِكْ معه فيها غيره، وأما التي اشترك معه فيها غيره فكثيرة لا يحصيها عدد، ونحن نذكر قليلا من ذلك الكثير:

(الف) أكرمه الله تعالى بالفصاحة في اللغة العربية والفارسية والعلاقة الخاصة بالفنون الأدبية في النظم والنثر، وأكبر شاهد على ذلك تصانيفه العربية والفارسية.

(ب) خَاضَ في بحار المذاهب الأربعة وأصول فقهم خوضاً بليغاً، ونظر في الأحاديث التي هي متمسكاتهم في الأحكام، فاطَّلَعَ على مآخذ المسائل، ومنازع الحجج والدلائل، فأكرمه الله تعالى بمرتبة الاجتهاد القصوى.

(ج) تَضَلَّعَ من علم الحديث والأثر، فَحَفِظَ المتون وَضَبَطَ الأسانيد ونظر في دواوين المجاميع والمسانيد، واعتنى بهذا العلم الشريف اعتناءً شديداً، ونشر هذا العلم المنيف في الأكفاف البعيدة، فأحياى الله تعالى به الحديث والسنة بعد مواتهما.

(د) تَرَوَّى من الفرقان الحميد وعلومه، وتأويل كتاب الله العزيز وتفسيره، وكان بعيد الشأو في تحصيله، وغطس في بحر القرآن العميق الزاخر، فكان تلميذاً للقرآن العظيم بلا واسطة، ومن نظر في كتبه، لاسيما فتح الرحمن، شهد بتوفر حظه منه.

(هـ) هذب أصول هذه العلوم ومبادئها تهذيباً بليغاً، فأكثر من التصرف فيها، حتى يكاد يصح أن يقال: إنه باني أسسها، وبارئ قوسها.

فأما أصول التفسير: فكتابه الفوز الكبير فيه شاهد صدق على براعته على كثير من أهلها، والحق أنه متفرد بتحقيق هذا الفن وتدقيقه.

وأما أصول الحديث: فله فيها باع رحيب وقد أشار ابنه عبد العزيز إلى أن له فيها تحقيقات مستظرفة لم يسبق إليها.

وأما أصول الفقه: فإنه شرح أصول المذاهب المختلفة، وجمّعها، وبين الفرق بين الأمور الجدلية، والأصول الفقهية، وردّ وجوه الاستنباط — على كثرتها — إلى عشرة، وأسّس قواعد الجمع، بين مختلف الأدلة، وبين قوانين الترجيح.

(و) وكان المتكلم في علم العقائد وأصول الدين في عهده: إما صاحب حديث، يتهافت على ظواهره، أو: صاحب كلام يتعمق في الرأي، أو: صاحب فقه يتوسط الفريقين، أو: صاحب ذوق يطمئن إلى ما يتجلى له. وقد جمع الله تعالى في صدر الإمام المصنف ما شتته بين هؤلاء، فأتى بأسرار غامضة في تطبيق مسأله بالمأثور، وجرد أصول المسائل عن الدلائل المنطقية والفلسفية.

(ز) قد جمع الله له بين الطرق الثلاثة: من السمع والفكر والذوق؛ فلا يتجلى له شيء من السر الغامض في آداب السلوك وعلم الحقائق فيقبله، إلا بعد ما شهد بصحته شاهدا صدق من المعقول والمنقول، وأفاض من ذوارف المعارف على أهلها سجالا.

(ح) ومن نعم الله تعالى عليه: أن أولاه خلعة الفاتحية، وألهمه الجمع بين الفقه والحديث، وأسرار السنن، ومصالح الأحكام، وسائر ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من ربه عز وجل، حتى أثبت عقائد أهل السنة بالأدلة والحجج، وطهرها من قذى أهل المعقول، وأعطى علم الإبداع والخلق والتدبير والتدلي مع طول وعرض، وعلم استعداد النفوس الإنسانية بجمعها، وأفاض عليه الحكمة العملية، ووفقه لتشيدها بالكتاب والسنة وتمييز العلم المنقول من المحرف المدخول، وفرق السنة السنية من البدعة الغير المرضية.

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد



مقدمة الكتاب

آلاءُ^(١) الله تعالى على هذا العبد الضعيف لا تُعدُّ ولا تُحصى؛ وأجلُّها: التوفيق لفهم القرآن العظيم. وَمِنْ^(٢) صاحب النبوة والرسالة — عليه الصلاة والسلام — على أحقر الأمة كثرة؛ وأعظمُها: تبليغُه صلى الله عليه وسلم الفرقانَ الكريم؛ لَقَّنَ^(٣) النبي صلى الله عليه وسلم القرآنَ الجيلَ الأولَ^(٤) وهم أبلغوه للجيل الثاني^(٥) وهَلَمَّ جَرًّا^(٦)، حتى بلغ هذا الضعيف أيضًا حظًّا من روايته ودرايته.

اللهم صلِّ على هذا النبي الكريم: سيِّدنا ومولانا وشفيعنا، أفضلَ صلواتك، وأيمنَ بركاتك وعلى آله وأصحابه، وعلماء أمته أجمعين، برحمتك يا أرحم الراحمين.

أما بعد: فيقول الفقير ولي الله بن عبد الرحيم — عاملهما الله تعالى بلطفه

(١) جمع الإلَى، والإلَى، والألَى : النعمة.

(٢) جمع المِنة : الإحسان.

(٣) لَقَّنَه الكلامَ : فَهَّمَهُ إِيَّاهُ مشافهةً.

(٤) الجيل الأول : هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

(٥) الجيل الثاني : هم جماعة التابعين.

(٦) هَلَمَّ جَرًّا : تعبير يقال لاستدامة الأمر واتصاله.

العظيم —: لما فتح الله تعالى على بابا من فهم كتابه المجيد، خطر ببالي أن أجمع وأقيّد بعض النكات^(١) النافعة التي تنفع الأصحاب في رسالة مختصرة؛ والمرجو من لطف الله — الذي لا انتهاء له — أن يفتح لطلبة العلم — بمجرد فهم هذه القواعد — شارحاً واسعاً في فهم معاني كتاب الله، بحيث لو صرفوا عُمرهم في مطالعة التفاسير، والقراءة على المفسرين — على أنهم أقلّ قليل في هذا الزمان — لم تتحصّل لهم هذه الفوائد بهذا الضبط والربط. وسَمَّيْتُهَا بـ ﴿الفوز الكبير في أصول التفسير﴾ وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت، وهو حسبي، ونعم الوكيل.

ومقاصد هذه الرسالة منحصرة في خمسة أبواب:

الباب الأول: في بيان العلوم الخمسة، التي يدلُّ عليها القرآن العظيم نصّاً وكأَنَّ نزول القرآن بالإصالة كان لهذا الغرض.

الباب الثاني: في بيان وجوه الخفاء في معاني نظم القرآن، بالنسبة إلى أهل هذا العصر، وإزالة ذلك الخفاء بأوضح بيان.

الباب الثالث: في بيان لطائف نظم القرآن، وشرح أسلوبه البديع، بقدر الطاقة والإمكان.

الباب الرابع: في بيان مناهج التفسير، وتوضيح الاختلاف الواقع في تفاسير الصحابة والتابعين.

الباب الخامس: في ذكر جُمْلَةٍ صالحة^(٢) من شرح غريب القرآن، وأسباب النزول التي يجب حفظها على المفسر، ويمتنع ويَحْرُمُ الخوض في كتاب الله بدونها^(٣)

(١) جمع النكته، وهي المسألة العلمية اللطيفة، التي أخرجت بدقة نظر، وإمعان فكر؛ والمراد بها هنا: الفوائد النافعة.

(٢) أى مقداراً كافياً

(٣) أسقط الناشرون للفوز الكبير الباب الخامس منه لعدم شموله في الدرس.

الباب الأول

فى

بيان العلوم الخمسة التى يدل عليها القرآن العظيم نصاً

ليُعلم أن معانى القرآن المنصوصة لا تخرج عن خمسة علوم^(١):

- ١- علم الأحكام: وهى الواجب والمندوب والمباح والمكروه والحرام؛ سواء كانت من قسم العبادات، أو من قسم المعاملات،^(٢) أو من تدبير المنزل^(٣) أو من السياسة المدنية؛^(٤) وتفصيل هذا العلم منوط^(٥) بذمة الفقيه^(٦).

(١) علوم القرآن لا تنحصر، ومعانيه لا تستقصى. قال ابن مسعود رضى الله عنه: من أراد العلم فليثور القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين (رواه البيهقى فى المدخل) وإنما يفهم بعض معانيه ويطلع على أسرارِهِ ومبانيهِ من قوى نظره، واتسع مجاله فى الفكر ورقت طباغِهِ، وتضلع فى فنون الأدب، وأحاط بِلغة العرب، ولقد أبدع من قال:

جميع العلوم فى القرآن لكن تقاصرت عنه أفهام الرجال

ولكن أم علوم القرآن، قيل: ثلاثة أقسام: توحيد وتذكير وأحكام (قاله القاضى أبو بكر بن العربى فى كتابه: قانون التأويل) وقال آخر: يشتمل على أربعة أنواع من العلوم: أمر ونهى وخبر واستخبار؛ وقيل: ستة، وزاد الوعد والوعيد؛ قال الطبرى: يشتمل على ثلاثة أشياء: التوحيد والإخبار والديانات، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ تَعَدِلْ ثُلُثُ الْقُرْآنِ" لأنها تشتمل على التوحيد كله؛ وقسمه الرُّمَّانِي إلى ثلاثين قِسْماً، بيَّنه الزُّرْكَشِي فى البرهان (١٨: ١)

ولكن الإمام ولى الله لخص علوم القرآن على هذا الوجه، أعجب وأفيد من ذلك كله. فذق كلامه، ومن لم يذق لم يذر.

(٢) المعاملات: مسائل باحثة عن كيفية إقامة المعادلات، والمعاونات، والاكتسابات فيما بين الناس.

(٣) علم تدبير المنزل: حكمة باحثة عن كيفية حفظ الربط الواقع بين أهل المنزل.

(٤) علم سياسة المدينة: حكمة باحثة عن كيفية حفظ الربط الواقع بين أهل المدينة؛

والمراد من المدينة: جماعة متقاربة تجرى بينهم المعاملات ويكونون أهل (==)

٢- علم الجدل: وهو المحاجة مع الفرق الأربع الضالّة: من اليهود والنصارى والمشرّكين والمنافقين؛ وتبيان^(١) هذا العلم منوط بذمة المتكلم^(٢).

٣- علم التذكير^(٣) بآلاء الله: وهو بيان خلق السماوات والأرض، وإلهام العباد ما يحتاجون إليه، وبيان صفات الله الكاملة.

٤- علم التذكير بأيام الله^(٤): وهو بيان الوقائع التي أحدثها الله سبحانه وتعالى من قبيل تنعيم المطيعين، وتعذيب المجرمين.

٥- علم التذكير بالموت وما بعده: من الحشر والنشر والحساب والميزان والجنة والنار.

وتفصيل هذه العلوم الثلاثة، وذكر الأحاديث والآثار المتعلقة بها يرجع إلى الواعظ والمذكّر.

أسلوب القرآن الكريم في عرض العلوم الخمسة

وإنما وقع بيان هذه العلوم على أسلوب العرب الأولين، لأعلى منهاج العلماء المتأخرين، فلم يلتزم سبحانه وتعالى في آيات الأحكام اختصاراً

(=) منازل شتى راجع حجة الله البالغة (١: ٩٠)

(٥) المنوط: المعلق؛ يقال: هذا منوط به أى معلق به.

(٦) الفقيه: عالم بالفقه؛ والفقه: معرفة النفس مالها وما عليها، وقد اعتنى الأئمة بعلم الأحكام، وأفردوه بالتصنيف، كابن العربي الأندلسي، وكتابه "أحكام القرآن" مطبوع، وكذا طبع: "أحكام القرآن" لأبي بكر الرازي الحنفي المعروف بالجصاص، وكتابه أجود ما في الباب وراجع لمزيد البيان البرهان (١: ٢) والإتقان (٩: ١)

(١) التبيان: البيان والإظهار.

(٢) المتكلم: عالم بعلم الكلام؛ والكلام: هو علم التوحيد والصفات؛ سُمّي به لأنه يُورث قدرة على الكلام في تحقيق الشرعيات وإلزام الخصوم.

(٣) ذكّره الشيء وبالشيء: جعله يذكّره، وذكّر القوم: وعظهم

(٤) أيام الله: نعمته ونعمته كقصص الأنبياء وأقوامهم، وأيام العرب: حروبهم وملاحمهم كيوم ذي قار، ويوم الفجار

يختاره أهل المتون، ولا تنقيح القواعد من قيود غير ضرورية، كما هو صناعة^(١) الأصوليين؛ واختار سبحانه وتعالى في آيات المخاصمة إلزام الخصم بالمشهورات المسلمة^(٢) والخطابيات النافعة^(٣) لا تنقيح البراهين^(٤) على طريقة المنطقيين^(٥)؛ ولم يُراعِ سبحانه وتعالى المناسبة في الانتقال من (١) الصناعة: الطريقة.

(٢) أى المسلمة عند عوامهم وخواصهم، وذلك كقوله تعالى ردًا على أهل الكتابين: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ! قُلْ: فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ!﴾ (المائدة ١٨) وكحضر وجوب الوجود فيه تعالى، وحضر خلق السموات والأرض، فلم يُخالف فيه مشركو العرب، ولا النصارى ولا اليهود؛ بل القرآن الكريم ناصٌّ على أنه من المقدمات المسلمة عندهم (الحجة ١: ١١٩)

(٣) الخطابة: (بفتح الخاء مصدر) قياس مركب من مقدمات مقبولة أو مظنونة من شخص معتقد فيه؛ والغرض منها: ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم كما يفعله الخطباء والوعاظ، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ الْآيَةِ﴾ (البقرة ٢٣)

(٤) البرهان: هو القياس المؤلف من اليقينيات، سواء كانت بديهيات أو نظريات منتهية إلى البديهيات، فإن كان في القياس استدلال بالعلة على المعلول كالنار يُستدل بها على الدخان، فهو "برهان لمي" وإن كان فيه استدلال بالمعلول على العلة كالدخان يُستدل به على النار فهو "برهان إنفي".

(٥) الناس يُنقسمون إلى طبقتين: عالية وسافلة، فتعليم العالية يكون بالبراهين، وتعليم السافلة بالمشهورات المسلمة السهلة فحسب فإن شأنهم الإخبار الصرف، والتأكيد في مقام التردد والإنكار؛ والبراهين لا تذكر في القرآن بالصراحة على منهج المنطقيين، بل في ضمن المشهورات، بأسلوب ساذج، لأن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام؛ فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح — الذى يفهمه الأكثرون — لم يَنحطْ إلى الأغمض الذى لا يعرفه إلا الأقلون؛ فأخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجل صورة، تشتمل على أدق دقيق، لتفهم العامة من جليلها ما يُقنعهم ويلزمهم الحجة، وتفهم الخواص من (==)

موضوع الى موضوع، كما يراعيها الأدباء المتأخرون، بل نشر كل ما أهم،
القائه على العباد، سواء كان مقدما أو مؤخرا^(١)

(—) أثنائها ما يفوق على ما أدركه فهم الخطباء، فمن كان حفظه في العلوم أو لم
كان نصيبه من علوم القرآن أكثر.

وقال العلامة المحدث الكبير الشيخ أنور شاه الكشميري: اعلم أنه لا يليق
بالقرآن صورة البرهان، فإنه جرى على طريق التخاطب، بخلاف طريق المخلوق
فليس فيه إلا الخطابة، وأما البرهان فطريق مستحدث، وخارج عن طور كلام
البلغاء، ومخاطباتهم، نعم يكون سطحه خطابا، وباطنه برهانا، فإذا قرّر عاد إلى
البرهان يسطع ﴿يكاد سنا برق﴾ يذهب بالأنصار، وراجع " الشفا " فإنه قال: إن
البرهان إنما يتأتى في الاستحالة والوجوب، وأما في الحسن والقبح والنفع والضرر
فلاتتأى فيه إلا الخطابة اهـ (فيض الباري ٣ : ٤٥٨)

(١) أهم الأمر فلانا: أثار اهتمامه.

(٢) هنا مسئلتان يجب الفصل بينهما:

الأولى: عدم المناسبة والربط فيما بين العلوم الخمسة بأن يذكر علم
فعلم، وكذا عدم المناسبة فيما بين تفاصيل كل علم، بأن يذكر مسائل الطهارة أولاً
فمسائل الصلوة، وهذه هي المسئلة المبحوثة فيها هنا، فالله تعالى لم يراع المناسبة،
بل أوضح كل ما كان مهما للعباد توضيحه تقدم أو تأخر، ولم يلاحظ في الانتقال من
مطلب إلى مطلب مناسبة ما، ويأتى الحكمة لذلك مفصلاً في الباب الثالث.

والثانية: كون الارتباط والمناسبة بين آيات القرآن المدوّن في المصحف
فلا ينكره المصنف العلام، وكيف فإنه إنكار أجلى البديهيّات، بل يقرر هو بنفسه
في ترجمته للقرآن المسماة بفتح الرحمن بمناسبات بين الآيات في غير موضع:
قال في فاتحة قوله تعالى: ﴿يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكَرُوا﴾ (الآية ٤٠ من سورة
البقرة) أمّن الله تعالى على بنى اسرائيل بآلاءه، وذكر المعجزات التي قد ظهرت
فيهم فردّ شبهاتهم وهفواتهم بالأدلة؛ وهذا البيان يمتد إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى
إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ (الآية ١٢٤) اهـ.

ثم قال في فاتحة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى﴾: أثبت الله تعالى من هنا إلى
قوله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم بذكر دعاء إبراهيم، (==)

لا يحتاج كل آية إلى سبب النزول

وقد ربط عامة المفسرين كل آية من آيات الجدل والأحكام بقصة،

(—) الذى هو مذكور فى التوراة ورجح الملة الحنيفية التى بعث بها نبينا صلى الله عليه وسلم، ورد قول اليهود: أن يعقوب — عليه السلام — أوصاهم باليهودية؛ ونهى عن التفريق بين الأنبياء، بأن يؤمن ببعض ويكفر ببعض اهـ

ثم قال فى فاتحة قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾: لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا، وتمنى أن يجعل الله تعالى الكعبة قبلته، فانزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ ثم أنزل قوله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ ردًا لشبهات السفهاء فى هذه المسئلة.

ثم أمر بالصبر على مشاق الجهاد، وعلى كثير من الأحكام من التوحيد والنقصان، والحج، والصوم، والصدقة، والنكاح، والطلاق، التى حرّفها أهل الجاهلية، أولم يراعوا فيها الإنصاف؛ فبين حقيقة تلك الأحكام، وأبطل شبهات المخالفين، وأجاب عن مسئلتهم؛ وهذا البيان يمتد إلى آخر قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا﴾ والله أعلم (معربا)

فيكذا يبين الإمام المصنف مناسبات فى القرآن جميعا، فمن فهم من كلامه ههنا أنه ينكر الارتباط فى القرآن فقد وهم، وذهب إلى غير مذهب.

واعلم أن الارتباط فى القرآن على ثلاثة أنحاء:

الأول: بين المباحث العامة كما ترى الإمام المصنف يقرر فى النص

المتقدم ذكره)

والثانى: بين الآيات، فكل آية مرتبط بما قبلها.

والثالث: بين أجزاء الآية — وتفصيل الكلام طويل.

وقال الرازى فى تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط

اهـ. وقال بعض المحققين: قد وهم من قال: لا يطلب للآى الكريمة مناسبة، لأنها على حسب الوقائع المتفرقة.

وفصل الخطاب: أنها على حسب الوقائع تنزيلا، وعلى حسب الحكمة

ترتيا. وراجع النوع الثانى من البرهان (١: ٣٧)

ويظنون أن تلك القصة هي سبب نزولها.

والحق: أن القصد الأصلي من نزول القرآن هو تهذيب النفوس البشرية ودمغ العقائد الباطلة، ونفى الأعمال الفاسدة؛ فوجود العقائد الباطلة في خواطر المكلفين سبب لنزول آيات الجدل؛ ووجود الأعمال الفاسدة وشيوع المظالم فيما بينهم سبب لنزول آيات الأحكام؛ وعدم تيقظهم وتنبههم بغير ذكر آلاء الله، وأيام الله، ووقائع الموت وما بعده سبب لنزول آيات التذكير^(١).

وأما الأسباب الخاصة والقصص الجزئية التي تجسّم المفسرون بيانها فليس لها مدخل في ذلك، يُعْتَدُّ به، إلا في بعض الآيات الكريمة، حيث وقعت الإشارة فيها إلى حادثة من الحوادث التي وقعت في عهد النبي صلى الله عليه وآله

(١) قال الإمام المصنف في حجة الله البالغة (١: ٦٧) في باب الإيمان بأن العباد حق الله تعالى على عباده لأنه مُنْعَمٌ، عليم مجاز لهم بالإرادة: اعلم أن من أعظم أنواع البِر: أن يَعْتَقِدَ الإنسان بمجامع قلبه — بحيث لا يحتمل نقيض هذا الاعتقاد عنده — أن العبادة حق الله تعالى على عباده، وأنهم مُطَالَبُونَ بالعبادة من الله تعالى، بمنزلة سائر ما يُطَالَب به ذوو الحقوق من حقوقهم، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ: "يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده، وما حق العباد على الله؟" قال معاذ: الله ورسوله أعلم؛ قال: "فإن حق الله على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً؛ وحق العباد على الله تعالى أن لا يعذّب من لا يشرك به شيئاً"

ثم مكنت الشرائع الإلهية هذه المعرفة الغامضة من نفوسهم بثلاث مقامات مسلمة عندهم، جارية مجرى المشهورات البديهية بينهم.

أحدها: أنه تعالى مُنْعَمٌ، وشكر المنعم واجب، والعبادة شكر له على نعمه.

والثاني: أنه يجازى المعرضين عنه، التاركين لعبادته، في الدنيا أشد الجزاء.

والثالث: أنه يُجَازَى في الآخرة المطيعين والعاصين،

فانبسطت من هنالك ثلاثة علوم: علم التذكير بالآلاء الله، وعلم التذكير بأيام

الله، وعلم التذكير بالمعاد، فنزل القرآن العظيم شرحاً لهذه العلوم.

وسلم ، أو قبله ؛ ولا يزول ما يفرض للسامع من الترقب والانتظار ، عند سماع ذلك التعريض إلا ببسط القصة ؛^(١) فلزم أن نشرح هذه العلوم^(٢) بوجه لا نحتاج إلى إيراد القصص الجزئية

الفصل الأول^(٣)

فى علم الجدَل^(٤)

قد وقعت المخاصمة فى القرآن العظيم مع الفرق الأربعة الضالّة: المشركين واليهود والنصارى والمنافقين ؛ وهذه المخاصمة على طريقين: الأول: أن يذكر سبحانه وتعالى العقيدة الباطلة، مع التنصيص على شناعتهما، ويذكر استنكارها فحسب^(٥).

(١) سيأتى البحث مفصلاً حول أسباب النزول فى الباب الثانى فى الفصل الثالث، وفى الباب الرابع فى الفصل الأول.

(٢) يعنى العلوم الخمسة التى هو بصدد ذكرها.

(٣) ذكر الإمام المصنف فى الفصل الأول علم الجدَل مع الفرق الأربعة الضالّة وفى الفصل الثانى بقية العلوم الخمسة ، فبدأ بعلوم التذكير الثلاثة، ثم تثنى بمباحث الأحكام: ففى الكلام لف ونشر مشوش ، فتنبه له.

(٤) يقال لعلم الجدَل: علم المناظرة والمخاصمة أيضاً ؛ والمراد به هنا: أن النفوس السفلية إذا تولدت بينها شبهات تدافع بها الحق ، فكيف تحل تلك العقد؟ قاله المصنف فى الحجة (٤٨٠:١)

(٥) وذلك كقوله تعالى: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ، كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ . إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ (الكهف ٤-٥) وراجع الآيات ٨٨-٩٣ من سورة مريم وكقوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ — سُبْحَنَهُ — وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ (النحل ٥٧) قال الزركشى: فاعتراض (سبحانه) لغرض التنزيه والتعظيم، وفيه الشناعة على من جعل البنات لله.

والثانى: أن يُبين شُبُهَاتِهِم الواهية ويذكر حُلَّهَا بالأدلة البرهانية أو الخطابية^(١)

ذكر المشركين

وقد كان المشركون يُسمُّون أنفسهم حُنَفَاءَ^(٢) ويدَّعون التدنُّن بملة سيدنا إبراهيم عليه السلام^(٣)؛ وإنما يقال "الحنيف" لمن تدنَّن بالملة الإبراهيمية، والتزم شعارها.

شعائر الملة الإبراهيمية:

وشعائرها: حَجُّ البيت الحرام، واستقباله في الصلوات، والغسل من الجنابة،
(١) إن البراهين لا تُذكر في القرآن بالصراحة، بل في ضمن المشهورات المسلمة بأسلوب ساذج كما تقدم ذكره في ص ٢٧

(٢) الحنفاء جمع حنيف على زينة فعل: المائل عن الأديان كلها إلى الدين القويم؛ من الحنف وهو الميل؛ وفي الاصطلاح: كل من كان على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام فهو حنيف.

قال الإمام في فتح الرحمن: المهتدين بشريعة إبراهيم، من المناسك والختان وغسل الجنابة واستقبال الكعبة اه وقال الراغب في مفرداته: سَمَّتِ العربُ كُلَّ من حَجَّ أو اختتن حنيفاً، تنبيهاً على أنه على دين إبراهيم صلى الله عليه وسلم.

(٣) ذكر ابن هشام في السيرة (٢٤٢: ١) عن ابن إسحاق أنه قال: اجتمعت قريش يوماً في عيد لهم، عند صنم من أصنامهم، كانوا يُعَظِّمونَه وينحرون له ويعكفون عنده، فخلص منهم أربعة نفر نجياً، وهم: وَرَقَةُ بن نُوفَل، وعبيد الله بن جَحْش، وعثمان بن الحُوَيْرِث، وزيد بن عمرو بن نُفَيْل؛ ثم قال بعضهم لبعض: تَصَادِقُوا، وَلِيَكُتُمُ بعضكم على بعض، قالوا: أَجَل! فقال بعضهم لبعض: تَعَلَّمُوا، وَاللَّهِ! مَا قَوْمُكُمْ عَلَى شَيْءٍ! لَقَدْ أَخْطَأُوا دِينَ آبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ! مَا حَجَرٌ يُطِيفُ بِهِ؟ لَا يَسْمَعُ وَلَا يَبْصُرُ، وَلَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ! يَا قَوْمُ! التَّمَسُّوا لأنفسكم فإنكم واللَّهِ! مَا أَنْتُمْ عَلَى شَيْءٍ، فَتَفَرَّقُوا فِي الْبُلْدَانِ، يَلْتَمِسُونَ الْحَنِيفِيَّةَ: دِينَ إِبْرَاهِيمَ اه وقال أبو الصلت بن ربيعة الثقفي، ويذكر الحنيفية: دين إبراهيم:

كُلُّ دِينٍ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ اللَّهِ — إِلَّا دِينَ إِبْرَاهِيمَ بُورُ:

قوله: بور أى هالك من البوار وهو الهلاك، ويروى: "زور"

والاختتان، وسائر خصال الفطرة^(١) وتحريم الأشهر الحرم، وتعظيم المسجد الحرام، وتحريم المحرمات النسبية والرّضاعية، والذبح في الحلق، والنحر في اللّبة^(٢)، والتقرب بالذبح والنحر إلى الله تعالى، لاسيما في أيام الحج.

شرائعها

وقد كان الوضوء والصلاة، والصوم من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، والصدقة على اليتامى والمساكين، والإعانة على نواب الحق، وصلة الأرحام مشروعة^(٣) في أصل الملة. وكان التمدّح بهذه الأعمال شائعا فيما بينهم^(٤)، إلا أن جمهور المشركين قد تركوها، حتى صارت هذه الأعمال في

(١) خصال الفطرة: هي قصّ الشارب، وإعفاء اللّحية، والسّواك، واستنشاق الماء، وقصّ الأظفار، وغسل البراجم، ونفّ الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء يعنى الاستنجاء قال الراوى: ونسيّت العاشرة إلا أن تكون المضمضة (رواه مسلم وأبو داود، والترمذى، والنسائى، والبيهقى، وأحمد، عن عائشة رضى الله عنها، مشكوة رقم الحديث ٣٧٩) وفي رواية: الختان بدل إعفاء اللّحية (رواه أبو داود عن عمار بن ياسر رضى الله عنه)

(٢) اللّبة: موضع القلادة من الصدر، وذلك مأخوذ من لبّ الشئ أى: خالصة وخياره.

(٣) قوله: (مشروعة) خبر لكان الناقصة.

قال الإمام فى حجة الله البالغة (١: ٢٧٨): وهذا الوضوء يفعله المجوس واليهود وغيرهم وكانت تفعله حكماء العرب وكانت فيهم الصلاة، وكان أبو ذر رضى الله عنه يصلى قبل أن يقدّم على النّبي صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين، وكان قسّ بن سائدة الأيادى يصلى، والمحفوظ من الصلوة فى أمم اليهود والمجوس، وبقية العرب: أفعال تعظيمية، لاسيما السجود، وأقوال من الذكر والدعاء اهـ.

(٤) قال الإمام فى حجة الله (١: ٢٧٨) وكانت فيهم الزكوة، وكان المعمول عندهم منها: قري الضيف وابن السبيل وحمل الكّل والصدقة على المساكين وصلة الأرحام، والإعانة فى نواب الحق؛ وكانوا يمدحون بها، ويعرفون أنها كمال (=)

حياتهم العملية كأن لم تكن شيئاً.

وقد كان تحريم القتل والسرقة والزنا والربا والغصب أيضاً ثابتاً في أصل الملة؛ وكان استنكار هذه الأفعال باقياً عندهم في الجملة^(١)؛ ولكنَّ جمهورَ المشركين كانوا يرتكبونها، ويتَّبعون النفس الأمَّارة فيها^(٢).

(=) الإنسان وسعادته، قالت خديجة رضى الله عنها: فوالله! لا يُخزِيكَ اللهُ أبداً، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَقْرَى الضَّيْفَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، وقال ابن الدَّغِنَةَ لأبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِثْلَ ذَلِكَ، وَكَانَ فِيهِمُ الصُّومُ مِنَ الْفَجْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ وَكَانَتْ قَرِيشٌ تَصُومُ عَاشُورَاءَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ اهـ.

(١) قال زيد بن عمرو بن نُفَيْل:

عَجِبْتُ فِي اللَّيَالِي مُعْجَبَاتٍ وَفِي الْأَيَّامِ ، يَعْرِفُهَا الْبَصِيرُ
بَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَفْنَى رَجَالًا كَثِيرًا، كَانَ شَأْنُهُمُ الْفَجُورُ

(٢) قال الإمام في حجة الله البالغة: ولا ينافي ما قلناه وجود فرقتين فيهم، وظهورهما وشيوعهما:

أحدهما: الفساق والزنادقة:

فالفساق يعملون الأعمال البهيمية أو السَّبعِيَّة بخلاف الملة، لَغَلَبَةِ نفوسهم وقلة تَدِينُهُمْ، فأولئك إنما يخرجون عن حكم الملة شاهدين على أنفسهم بالفسق. والزنادقة يُجَبِّلُونَ على الفهم الأَبْتَر، لا يستطيعون التحقيق التام الذي قصده صاحب الملة، ولا يقدِّدونه، ولا يُسَلِّمونه فيما أُخْبِر، فهم في ريبهم يترددون، على خوف من ملائمتهم، والناس ينكرون عليهم، ويرونهم خارجين من الدين، خَالِعِينَ رِبْقَةَ الملة عن أعناقهم؛ وإذا كان الأمر على ما ذكرنا من الإنكار وقُبْح الحال فخروجهم لا يضرُّ؛

والثانية: الجاهلون الغافلون الذين لم يرفعوا رؤوسهم إلى الدين رأساً، ولم يلتفتوا لِفَتَّةِ أصلا، وكان هؤلاء أكثرَ شيءٍ في قريش، وما والاها لُبْعِدِ عهدهم من الأنبياء، وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَهُمْ مِنْ نَذِيرٍ﴾ (٢٧٣: ١) في باب بيان ما كان عليه حال أهل الجاهلية فأصلحه النبي صلى الله عليه وسلم

وقد كانت عقيدة إثبات الصانع سبحانه وتعالى ، وأنه هو خالق الأرض والسموات العلوى ، وأنه مدبر الحوادث العظام ، وأنه قادر على إرسال الرسل وجزاء العباد بما يعملون ، وأنه مقدّر للحوادث العظيمة قبل وقوعها ، وأن الملائكة عباده المقرّبون ، وأنهم يستحقون التعظيم ، كل ذلك كان ثابتاً عندهم ، ويدل على ذلك أشعارهم^(١) ؛ ولكن جمهور المشركين قد وقعوا فى شبهات كثيرة تُجَاه^(٢) هذه المعتقدات لاستبعادها ، وعدم ألفتهم بإدراكها .

ضلال المشركين

وكان من ضلالهم : الشرك ، والتشبيه ، والتحريف ، وجحود الآخرة ، واستبعاد رسالة النبی صلى الله عليه وسلم ، وشيوع الأعمال القبيحة والمظالم فيما بينهم ، وابتداع التقاليد^(٣) الباطلة ، واندراس العبادات .

بيان الشرك

والشرك : أن يُثبت لغير الله تعالى شيئاً من الصفات المختصة به تعالى كالتصرف فى العالم بالإرادة — الذى يعبر عنه بـ ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ — أو العلم الذاتى — غير المكتسب بالحواس ودليل العقل والمنام والإلهام ونحو ذلك — أو الإيجاد لشفاء المريض ، أو اللّعن على شخص والسّخط عليه حتى يُقدّر عليه (١) قال أبو الصلت بن أبى ربيعة الثقفى فى شأن ” الفيل “ :

إن	آياتِ ربنا	ثاقبات	لايمارى	فيهن	الا الكفور
خلق	الليل والنهار	فكل	مستبين	حسابه	مقدور
ثم	يجلو النهار	رب رحيم	بمهاة	شعاعها	منشور

المهاة : الشمس

حبس الفيل بالمغمس حتى ظلّ يحبؤ كانه معقور
المغمس : اسم موضع بطريق الطائف على ثلثى فرسخ من مكة .

(٢) التّجَاه (مثلثة التاء) : الوجه الذى تقصّده ، ويقال : قعدتُ تُجَاهَكَ أى تِلْقَاءَ وجهك (وأصله : وجّاه)

(٣) التّقاليد : العادات والرسوم المتوارثة التى يقلّد فيها الخلف السلف ، مفردها : تقليد .

الزرق ، أو يمرض ، أو يشقى بسبب ذلك السخط ، أو الرحمة لشخص حتى
يُنْسَط له الزرق ، ويصحّ بدنه ، ويسعد بسبب هذه الرحمة ^(١)

ولم يكن هؤلاء المشركون يشركون أحداً في خلق الجواهر ^(٢) ، وتدابير
الأمور العظام ، ولا يشتون لأحد قدرة الممانعة ^(٣) إذا أبرم ^(٤) الله تعالى أمراً ،
وإنما كان إشراكهم في أمور خاصة ببعض العباد ، ويظنون أن سلطانا عظيما
من السلاطين كما يرسل عبيده المخصوصين إلى نواحي مملكته ، ويجعلهم
مختارين متصرفين في أمور جزئية ، إلى أن يصدر عنه حكم صريح في أمر
خاص ، ولا يقوم بشئون الرعية وأمورهم الجزئية بنفسه ، بل يكُل الرعية إلى
الولاية والحكام ، ويقبل شفاعتهم في حق الذين يخدمونهم ، ويتوسلون بهم ؛
كذلك قد خلع الملك على الإطلاق ^(٥) على بعض عباده خلعة الألوهية ، وجعل
سخطهم ورضاهم مؤثراً في عباده الآخرين . فيرون التزلف ^(٦) إلى أولئك العباد
المقربين واجبا ليتيسر لهم حسن القبول في حضرة الملك المطلق ، وتقبل
شفاعتهم للمتقربين بهم في مجارى الأمور ^(٧)

وكانوا يجوزون نظراً إلى هذه الأمور : أن يسجدلهم ، ويذبح لهم ،
ويُخلف بهم ، ويستعان بقدرتهم المطلقة في الأمور المهمة . ونحتوا صوراً

(١) والحاصل : أن الصفات المذكورة من التصرف في الكون ، والعلم الذاتى ،
وإيجاد الشفاء ، واللعن والسخط والرحمة كُلها مختصة بالله تعالى ، فمن أثبت
شيئاً منها لغيره تعالى فقد أشرك .

(٢) جمع الجوهر ، وهو مقام بنفسه ، ويقابله العرض ، والمراد : المكوّنات المادية .

(٣) الممانعة : المنازعة .

(٤) أبرم الأمر : أحكمه يقال : قضاء مبرم أى : قاطع لا مناص منه .

(٥) قوله : على الإطلاق أى الكامل فى التصرف ، يفعل ما يشاء ؛ من أطلق له
التصرف : أباحه .

(٦) التزلف : التقرب وزلف (ن) إليه زلفاً : دنا منه ، وزلف الشيء : قرّبه .

(٧) مجارى الأمور : هى الأمور العامة ، ومادون الأمور العظام ؛ والمجارى جمع
المجرى أى الممرّ عموماً ، مثلاً : مجرى الشمس .

كصورهم من الحجر والصُّفْر وجعلوها قبلة للتوجه إلى تلك الأرواح؛ حتى اعتقد الجهال شيئاً فشيئاً تلك الصُّور معبودة بذواتها؛ فتطَرَّق^(١) الفساد العظيم إلى المعتقدات.

بيان التشبيه:

والتشبيه: عبارة عن إثبات الصفات البشرية لله تبارك وتعالى، فكانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله^(٢)، وإنه تعالى يقبل شفاعته عباده، وإن لم يرضَ بها،^(٣) كما يفعل الملوك أحياناً مثل ذلك مع الأمراء الكبار؛ ولما لم يستطيعوا إدراكَ علمه تعالى وسمعه وبصره، كما يليق بشأن الألوهية، قاسوها على علمهم وسمعهم وبصرهم، فوقعوا في عقيدة التجسيم، ونسبوا التحيز إلى الله تعالى شأنه^(٤).

(١) تطرق إليه: ابتغى إليه طريقاً.

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ (سورة الزخرف ١٩) وقال تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ؟﴾ (الصُّفَّت ١٥٠)

(٣) قال الله تعالى ردّاً على عقيدتهم: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (الأنبياء ٢٨)

(٤) أى: لما لم يهتدوا إلى فهم حقيقة علمه تعالى وسمعه وبصره — الذى يليق بجناب الألوهية — قاسوها على علمهم وسمعهم وأبصارهم فوقعوا فى القول بالتجسيم والتحيز.

ثم اعلم أن التجسيم عقيدة أن الله تعالى له جسم كأجسامنا، أى هو وجود ذو أبعاد ثلاثة من الطول والعرض والعمق، ومنه ”المَجَسَّم“: كل ماله طول وعرض وعمق.

والتحيز: عقيدة أن الله تعالى متمكن فى مكان بحيث يَنْقُذُ بَعْدُ جسم فى بعد جسم آخر؛ والحيز والحيز: المكان.

ثم إن شئت أن تستجلى حقيقة الحال فعليك أن تقرأ النصوص الآتية:

”مُعْظَمُ الْخَطَا شَيْئَانِ: أَنْ يُعْتَقَدَ فِي الْوَاجِبِ صِفَاتُ الْمَخْلُوقِ، أَوْ يُعْتَقَدَ فِي الْمَخْلُوقِ صِفَاتُ الْوَاجِبِ، فَالْأَوَّلُ هُوَ التَّشْبِيهِ، وَمِنْشَأُهُ: قِيَاسُ الْغَائِبِ عَلَى الشَّاهِدِ، (==)

(=) والثانى هو الإشراك، ومنشأه: رؤية الآثار الخارقة من المخلوقين، فيُظن أنها مضافة إليهم بمعنى الخلق وأنها ذاتية لهم (حجة الله البالغة ١: ٥٧ فى باب الحُجب المانعة عن ظهور الفطرة)

واعلم أن للتوحيد أربع مراتب:

أحد لها: حصر وجوب الوجود فيه تعالى، فلا يكون غيره واجبا.

والثانية: حصرُ خلق العرش والسموات والأرض وسائر الجواهر فيه تعالى— وهاتان المرتبتان لم تَبْحَثِ الكتب الإلهية عنهما، ولم يخالف فيهما مشركو العرب، ولا اليهود ولا النصارى، بل القرآن العظيم ناصٌّ على أنهما من المقدمات المسلمة عندهم.

والثالثة: حَصْرُ تدبير السموات والأرض وما بينهما فيه تعالى.

والرابعة: أنه لا يستحق غيره العبادة وهما مُتَشَابِهَتَانِ، مُتَلَازِمَتَانِ لربط طبيعى بينهما — وقد اختلف فيهما طوائف من الناس مُعْظَمُهُم ثلاث فرق:

النجّامون: ذهبوا إلى أن النجوم تستحق العبادة، وأن عبادتها تنفع فى الدنيا ورفع الحاجات إليها حق، قالوا: قد تَحَقَّقْنَا أن لها أثراً عظيماً فى الحوادث اليومية، وسعادة المرء وشقاوته، وصحته وسقمه، وأن لها نفوساً مجردة عاقلة، تبعثها على الحركة، ولا تغفل عن عبادها؛ فَبَنَوْا هياكل على أسمائها وعبَدُوها.

والمشركون: وافقوا المسلمين فى تدبير الأمور العظام، وفيما أبرم وجزم، ولم يترك لغيره خيرة ولم يوافقوهم فى سائر الأمور؛ وذهبوا إلى أن الصالحين من قبلهم عبدوا الله وتقربوا إليه، فأعطاهم الله الألوهية، فاستحقوا العبادة من سائر خلق الله، كما أن ملك الملوك يخدمه عبده، فيحسن خدمته، فيعطيه خِلة الملك، أو يَفُوضَ إليه تدبير بلدٍ من بلاده فَيَسْتَحِقَّ السمع والطاعة من أهل ذلك البلد؛ وقالوا: لا تقبل عبادة الله إلا مضمومةً بعبادتهم، بل الحق فى غاية التعالى فلا تفيد عبادته تَقَرُّباً منه، بل لابد من عبادة هؤلاء ليقربوا إلى الله زلفى، وقالوا: هؤلاء يَسْمَعُونَ وَيُبْصِرُونَ، ويشفعون لعبادهم، وَيُدَبِّرُونَ أمورهم، وينصرونهم، فَنَحْنُ أَعْلَى أسماءهم أحجاراً وجعلوها قِبْلَةً عند توجههم إلى هؤلاء، فخلف من بعدهم خلفٌ، فلم يَفْطِنُوا للفرق بين الأصنام، وبين من هى على صورته، فظنُّوها معبودات بأعيانها (=)

بيان التحريف

وأما التحريف فإن قصته: أن أولاد سيدنا إسماعيل عليه السلام كانوا على شريعة جدّهم الكريم: سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، حتى جاء عصر عمرو بن لُحَيٍّ^(١) — لعنه الله — فوضع لهم الأصنام، وشرع لهم عبادتها (=) ولذلك رد الله تعالى عليهم، تارة: بالتنبيه على أن الحكم والملك له خاصة، وتارة: ببيان أنها جمادات ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا؟﴾ (الأعراف ١٩٥)

والنصارى: ذهبوا إلى أن للمسيح — عليه السلام — قُرباً من الله، وعُلُوّاً على الخلق، فلا ينبغي أن يُسمّى عبداً، فُيسَوَّى بغيره، لأن هذا سوء أدب معه، وإهمال لقربه من الله؛ ثم مآل بعضهم عند التعبير عن تلك الخصوصية إلى تسميته ”ابن الله“ نظراً إلى أن الأب يرحم الابن، ويربّيه على عَيْنِيهِ، وهو فوق العبيد، فهذا الاسم أولى به، وبعضهم إلى تسميته بالله، نظراً إلى أن الواجب حلّ فيه، وصار دَاخِلَهُ، ولهذا يَصْدُرُ منه آثارٌ لم تُعْهَدُ من البَشَرِ، مثل إحياء الأموات وخلق الطير، فَكَلَامُهُ كلام الله، وعبادته هي عبادة الله، فخلف من بعدهم خلفٌ لم يَقْطِنُوا لوجه التسمية، وكادوا يجعلون النبوة حقيقة ويزعمون أنه الواجب من جميع الوجوه، ولذلك ردّ الله تعالى عليهم تارة بأنه لا صاحبة له، وتارة: بأنه بديع السموات والأرض، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

وهذه الفرق الثلاث لهم دعاوى غريضة، وخرافات كثيرة، لاتخفى على المُتَتَبِّعِ، وعن هاتين المرتبتين بحث القرآن العظيم، وردّ على الكافرين شبهتهم رداً مُشْبِعاً. (حجة الله البالغة ١: ٥٩ - ٦٠ في باب التوحيد من المبحث الخامس من القسم الأول)

(١) عمرو بن لُحَيٍّ بن حارثة بن عمرو بن عامر مُزَيْقِيَا الأزدى، من قحطان: أول من غيّر دينَ إسماعيل، ودعا العرب إلى عبادة الأوثان، كنيته أبو ثمامة، وفي نسبه خلاف شديد، وفي العلماء من يجزم بأنه مُضَرِّي من عدنان، لحديث انفرد به أبو هريرة، وهو جد ”خزاعة“ عند كثير من النسابين، ورئيسها عند بعضهم؛ ومعظمهم يسميه عمرو بن عامر بن لُحَيٍّ ويقولون إنه نسب إلى جده، وفيهم من يُسمّيه (=)

واخترع لهم تحرير البحائر والسوائب والحامى، والاستقسام بالأزلام (١)
(=) "عمرو بن ربيعة" ويجعل لحياً لقباً لربيعة.

وخلاصة ما قيل فى خبره: أنه كان قد تولى حِجَابَةَ البيت الحرام بمكة، وزار بلاد الشام، ودخل أرض "مآب" فى وادى الأردن، بالبلقاء وبها يومئذ "العمالق" فوجد أهلها يعبدون الأصنام، وكانت قد انتشرت فى مكة عادة أو عقيدة بأن أحدهم إذا أراد السفر منها حمل معه حجراً من حجارة الحرم يتيمن به، وانتقل بعضهم من ذلك إلى تقديس ذلك الحجر، والطواف له، ثم كانوا يختارون أى حجر يُعجبهم من أى مكان، فيطوفون حوله كما يطوفون حول الكعبة، وأعجب عمرو بأصنام "مآب" فقال لهم: ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدونها؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تعطوننى منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه؟ فأعطوه صنماً يقال له "هبل" فنصبه بمكة، ودعا الناس إلى تعظيمه، وعبادته، والاستشفاء به، ويظن أنه كان فى أوائل القرن الثالث من الميلاد.

(من الأعلام للزركلى ٢٥٧: ٥ والسيرة لابن هشام ١: ٨٢، والبداية والنهاية لأبى الفداء ابن كثير ٢: ١٨٧-١٨٩ وفيه: " أن عمرو بن لحي أول من لى بلبيك اللهم ليك، ليك لاشريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، ومعجم قبائل العرب القديمة والحديثة لعمر رضا كحالة ص ٢٣٨، وفتح البارى للحافظ العسقلانى ٦: ٣٩٨ وفيه حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " عمرو بن لحي بن قَمْعَةَ بن خِنْدَف أبو خزاعة" (وهذا يدل على أن خزاعة من مضر، وذلك لأن خندفاً اسم امرأة إياس بن مضر)

(١) أى: سنّ لهم تسييب البحائر، والسوائب، والحامى والاستقسام بالأزلام:

فالبحائر جمع بَحِيرَةٍ، وهى الناقة تشق أذننها، فلا يركب ظهرها، ولا يقطع وبرها، ولا يشرب لبنها إلا ضيف، أو يتصدق به، وتهمل وتترك لآلهتهم؛ وهى بنت السائبة.

والسوائب جمع السائبة، وهى: الناقة إذا تابعت بين عشر إناث، ليس بينهن ذكر، سَيِّت، فلم يُركب ظهرها، ولم يقطع وبرها، ولم يشرب لبنها، إلا (=)

وأمثال هذه الطُقوس^(١). وقد كان هذا الحادث^(٢) قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم بقراءة ثلاث مائة سنة، وكانوا يتمسكون في هذا الباب^(٣) بآثار آبائهم، ويرونها من الحجج القاطعة.

جحود الآخرة

وقد بين الأنبياء السالفون الحشر والنشر؛ ولكن لم يكن ذلك البيان (=) ضيف كذا قاله ابن إسحاق، وقال تلميذه ابن هشام: هي التي ينذر الرجل أن يُسبَّها إن برئ من مرضه أو إن أصاب أمرًا يطلبه.

والحامى: الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات، ليس بينهما ذكر، حمى ظهره، فلم يركب ظهره، ولم يُجَزَّ وبره، وخلى فى إبله يضرب فيها، لا ينتفع منه بغير ذلك.

والاستقسام: طلب الشخص معرفة ما قسم له مما لم يقسم، والأزلام جمع زَلَم وهو القدح.

وخلاصة الأمر: أن الاستقسام قسمان: عام وخاص، فالعام: مايزاوله كل واحد، بأن يعمد إلى ثلاثة قداح مكتوب على أحدها (أمرنى ربى) وعلى الآخر (نهانى ربى) والثالث غُفْل، ليس عليه شئ، فيضعها فى خريطة، ويجيل المستقسم يده فيها، ثم يخرج منها واحدا، فإن خرج القدح الأمر مضى المستقسم فى حاجته وإن خرج الناهى عدل عن المضى فى حاجته، وإن خرج الغفل أعاد إجمالة القداح.

والخاص: وهو مايراد منه الحكم، لامحض الاستشارة، ويكون لدى سادن الصنم، كما إذا أرادوا معرفة من عليه عَقْل الدية أو غير ذلك، قال ابن إسحاق: كان عند هُبْل سبعة أزلام مكتوب فيها ما يتحاكمون فيه مما أشكل عليهم، فما خرج لهم منها رجعوا إليه، ولم يعدلوا عنه. ومن يريد الزيادة فعليه بكتاب أديان العرب للجارم، والميسر والقداح لابن قتيبة، والأصنام للكلبي، ومعجم القرآن لعبد الرؤف المصرى.

(١) الطُقوس جمع الطُقُس: وهى المراسيم الدينية.

(٢) يعنى وقعة عمرو بن لحي.

(٣) يعنى فى جواز عبادة الأصنام.

يشرح وبسط مثل ما تضمنه القرآن العظيم، ولذلك كان جمهور المشركين قليلي الاطلاع عليه، وكانوا يستبعدون وقوعه^(١).

استبعاد رسالة النبي صلى الله عليه وسلم

وهؤلاء الجماعة^(٢) وإن كانوا معترفين بنبو سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما السلام بل بنبو سيدنا موسى عليه السلام أيضاً^(٣) ولكن كانت الصفات البشرية — التي هي حجاب لجمال الأنبياء الكامل^(٤) — تشوشهم تشويشاً^(٥)؛ وكذلك لما لم يعرفوا حقيقة تدبير الله الذي هو مقتضى بعثة الأنبياء، استبعدوا الرسالة، لاعتقادهم أن الرسول ينبغي أن يكون مثل المرسل^(٦)، فكانوا يوردون لأجل ذلك شبهات واهية، غير مسموعة، فيقولون

(١) فتارة يقولون: ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (سورة يس ٧٨) وأحيانا يسئلون: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (سورة الصفت ١٦) وأونة يدعون: ﴿إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (سورة الأنعام ١٩) وقالوا ما هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا، وَمَا يُبْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ (سورة الجاثية ٢٤).

(٢) يعنى المشركين. (٣) مع كونه عليه السلام من غير آبائهم.

(٤) أى تحول تلك الصفات بين الأنبياء وبين جمالهم الحقيقي، وتَحْجِبُهُمْ، فلا يُدركون ذلك الجمال الكامل لجهلهم.

(٥) شَوَّسَ الأمر: صَيَّرَهُ مضطرباً.

(٦) أى كانوا يستبعدون ذلك لما أنهم ألفوا المماثلة بين الرسول والمرسل، ولم يعرفوا حقيقة تدبير الله عز وجل الذي هو مقتضى بعثة الأنبياء.

واعلم أن الحكمة الإلهية اقتضت أن تكون الرُّسل من جنس المرسل إليهم، فإن الشخص أعرف بأحوال أبناء جنسه، وأبصر بمواقع الفساد والخلل من عقائدهم وأعمالهم، فيكون هو أقدر على إصلاحهم، قال ابن كثير فى تفسيره (٣): (٦٤) قال تعالى مُنْبِّهًا عَلَى لُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ: أَنَّهُ يَبْعَثُ إِلَيْهِمُ الرُّسُولَ مِنْ جَنْسِهِمْ لِيَفْقَهُوا عَنْهُ، وَيَفْهَمُوا مِنْهُ، لَتَمَكِّنَهُمْ مِنْ مَخَاطَبَتِهِ وَمِكَالَمَتِهِ، وَلَوْ بَعَثَ إِلَى (==)

مثلاً: كيف يكون النبي محتاجاً إلى الطعام والشراب؟^(١) ولما ذا لم يرسل الله مَلَكًا رسولاً؟^(٢) ولماذا لا يُوحى إلى كل أحد على حدة؟^(٣) وعلى هذا الأسلوب^(٤)

نموذج المشركين

وإن كنت غير مُهتدٍ في تصوير^(٥) حال المشركين وعقائدهم وأعمالهم، فانظر إلى حال المحترفين^(٦) من أهل عصرنا، لاسيما الذين يقطنون منهم بأطراف دار الإسلام^(٧) ماهي تصوراتهم عن "الولاية"؟ فمع أنهم يعترفون بولاية الأولياء

(=) البشر رسولا من الملائكة لما استطاعوا مواجهته، ولا الأخذ عنه — ولهذا قال ههنا: ﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أى كما أنتم فيها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ أى من جنسهم، ولما كنتم أنتم بشراً بعثنا فيكم رسلاً منكم لطفاً ورحمةً انتهى.

(١) قال تعالى حاكياً قولهم: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ (سورة الفرقان ٧)

(٢) أى: لو أراد الله أن يبعث نبياً لبعث ملكاً من عنده، قال الله تعالى حاكياً قول قوم نوح: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً، مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أى ببعثة البشر ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (سورة المؤمنون ٢٤)

(٣) يقول الله تعالى مخبراً عن تعنتهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ نَا: لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ (سورة الفرقان ٢١) أى بالرسالة كما تنزل على الأنبياء كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى: ﴿قَالُوا: لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ (سورة الأنعام ١٢٤)

(٤) اقرأ الآيات ٩٠-٩٣ من سورة بنى إسرائيل.

(٥) صور الأمر: وصفه وصفاً يكشف حاله كشفاً بيناً.

(٦) احترف: اتخذ حرفة فهو مُحترف.

(٧) أى لِمَا أنهم يسكنون بنواحي دار الإسلام وأرجائها يكونون جاهلين من الدين.

ودار الإسلام: حيث ظهرت شعائر الإسلام وشاعت، قال الإمام: وفضائل الأذان

ترجع إلى أنه من شعائر الإسلام، وبه تصير الدار دار الإسلام. (حجة الله ١: ٧٥٠)

المتقدمين، يرون وجود الأولياء في هذا العصر من قبيل المستحيلات، ويذهبون إلى القبور والعتبات، ويرتكبون أنواعاً من الشرك^(١)؛ وكيف تطرَّق^(٢) إليهم التشبيه والتحريف؟ ونرى طبق الحديث الصحيح: "لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ":^(٣) أنه مامن بلية من البليات إلا وطائفة من أهل عصرنا يرتكبونها،

(١) أى هم لا يستفيدون من الأولياء الأحياء، بل يذهبون إلى الأموات، ويرتكبون هناك البدع والخرافات.

قال الإمام المصنف في التفهيمات الإلهية (٢: ٥٣) ومن أعظم الأمراض في زماننا هذا: عبادتهم شيوخهم أحياء، أو لقبورهم أمواتاً؛ والجهلة يقتدون بكفرة الهند في عبادة أصنامهم في فعالهم.

وأما الإشراك بالله استعانةً: فحده: أن يطلب من أحد حاجته عالماً بأن فيه قدرة انجاحها، من صرف الإرادة النافذة، كالشفاء في المرض، والإحياء والإماتة، والرزق، وخلق الولد، وغيرها، مما يتضمنه أسماء الله تعالى.

والإشراك بالله دعاءً: فحده: أن يذكر غير الله سبحانه، عالماً بأن فعله ذلك نافع له في معاده، أو قرَّبه إلى الله، كما يذكرون شيوخهم إذا أصبحوا.

والإشراك بالله ذبْحاً، فحده: أن يذبح أو يُسَيَّب حيواناً لأحد، بحيث إن لم يذبح هذا الحيوان لم تُكشف الحاجة التي في صدره.

والإشراك بالله في النذور والأيمان، فحده أن يجد وجوباً بشرف اسمه، وتأله ذاته انتهى. (ولعل الصحيح: أن ينذر وجوباً ألخ)

وقد تكلم الإمام المصنف على أقسام الشرك مبسوطاً في حجة الله البالغة (١: ١٢٥-١٢٨) في باب أقسام الشرك فراجع من المبحث الخامس من القسم الأول. واعلم أن أنواع الشرك التي دَبَّت في المسلمين أغلظ وأدهى من إشراك المشركين، لأن هؤلاء يخلصون لله تعالى في الشدائد، وأولئك يدعون مشايخهم في الشدة والرخاء. والله المستعان.

(٢) تطرَّق إليه: سارَ حتى أتاه.

(٣) قوله: لتتبعن أى: لتسلكن ولتركن من باب سمع: تبعه ومشى خلفه ومضى معه وانقاد إليه وقوله: سَنَن بفتح السين: طريق، والحديث كناية عن شدة (==)

ويعتقدون مثلها، عافانا الله سبحانه وتعالى من ذلك.

وبالجملة: ^(١) فإن الله تعالى بعث سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم — بفضله ورحمته — فى العرب، وأمره بإقامة الملة الحنيفية، وخاصمهم ^(٢) فى القرآن العظيم، واستدل فى المخاصمة بمسلماتهم التى هى من بقايا الملة الحنيفية، ليتحقق الإلزام.

فردُّ الإشراك:

أولاً: بمطالبتهم بالدليل على ما يزعمون، ونقض تمسكهم بتقليد آبائهم ^(٣) وثانياً: بإثبات عدم التساوى بين هؤلاء العباد وبين الرب تبارك وتعالى؛ وبيان اختصاصه تعالى باستحقاق أقصى غاية التعظيم، بخلاف هؤلاء العباد ^(٤).

(=) الموافقة لهم فى المخالفات والمعاصى، لا الكفر، والحديث رواه الشيخان وأحمد والبيهقى عن ابن عباس رضى الله عنه والحاكم بزيادة، وتمام الحديث: "شَبْرًا بِشَبْرٍ، وذراعًا بذراعٍ، حتى لو أن أحدهم دخل جُحْرَضْبٍ لدخلتم، وزاد الحاكم: "وحتى لو أن أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه" والحديث خبر بمعنى النهى. وروى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لتبعن سنن من قبلكم، شَبْرًا بِشَبْرٍ، وذراعًا بذراعٍ، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم، قيل: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: "فمن؟" وحديث حذوا النعل بالنعل رواه الطبرانى وفيه كثير بن عبد الله وهو ضعيف، قاله الهيثمى فى مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٢٦: ٧)

(١) أى فذلِكَ القول؛ من جَمَل الشَّيْءِ: جمعه.

(٢) أى جادلهم ونازعهم.

(٣) قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا: لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُ نَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ؛ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَاسَنَا؛ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا؛ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (سورة الأنعام ١٤٨) وراجع الآيات ١٩ - ٢٥ من سورة الزخرف.

(٤) وذلك كقوله تعالى: ﴿قُلْ: أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا﴾ (=)

وثالثاً: بيان إجماع الأنبياء على هذه المسئلة^(١) كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ: أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، فَاعْبُدُونِ﴾^(٢)
ورابعاً: بيان شناعة عبادة الأصنام، وأن الأحجار ساقطة عن مرتبة الكمال الإنساني، فكيف ينالون مرتبة الألوهية؟^(٣) — وهذا الرد مسوق لقوم يعتقدون الأصنام معبودة لذواتها^(٤)
ورّد التشبيه:

أولاً: بمطالبتهم بالدليل على دعواهم، ونقض تمسكهم بتقليد آبائهم^(٥).
وثانياً: بيان ضرورة التجانس بين الوالد والولد؛ وهو مفقود بالبداهة^(٦).
﴿==﴾ خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ؟ إِيْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿﴾ (سورة الأحقاف ٤) وراجع الآيات ٥٩-٦٤ من سورة النمل والآية ١٦٠ من الرعد.

(١) أى: على التوحيد فإنه نطقت به الكتب الإلهية، وأجمعت عليه الرسل عليهم السلام (= أبو السعود ٣: ٣٣٨) وراجع الآية ٤٥ من سورة الزخرف، والآية ٣٦ من سورة النحل.

(٢) سورة الأنبياء ٢٥.

(٣) قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ؛ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا، وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ؛ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ؛ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (سورة الحج ٧٣)

(٤) وأما الذين يظنون الأصنام وسيلة التقرب، وقبله التوجه فلا يَكْبِتُهُمْ هذا الجواب.
(٥) راجع الآيات ١٤٩-١٥٩ من سورة الصّفت.

(٦) قال الله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ أى لم يصدر عنه ولد، لأنه لايجانسه شيء ليتمكن أن يكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا، كما نطق به قوله تعالى ﴿أَنْتَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ ﴿وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (سورة الإخلاص ٣-٤) أى لم يكافئه أحد، ولم يُماثله ولم يشاكله من صاحبة وغيرها (أبو السعود ٥: ٢٩٢) وراجع الآية ١٠١ من سورة الأنعام والآيات ٨٨-٩٣ من سورة مريم والآيتين ٢٦-٢٧ من سورة الأنبياء.

وثالثاً: بيان شناعة نسبة ما هو مكروه ومذموم لديهم إلى الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿الرَّبُّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾^(١) — وهذا الرَّد مسوق لقوم اعتادوا المقدمات المشهورة ، والمتوهمات الشَّغْرِية^(٢) ، وكان أكثرهم من هذا القبيل .

ورْدُ التحريف :

أولاً : بيان أنه لم يؤثر عن أئمة الملة الحنيفة^(٣) .

وثانياً : بيان أن ذلك كله اختراعات وابتداعات ممن ليسوا بمعصومين^(٤) .

ورْدُ استبعاد الحشر والنشر :

أولاً : بالقياس على إحياء الأرض بعد موتها^(٥) ، وما أشبه ذلك^(٦) وتنقيح

(١) سورة الصَّفَّت ١٤٩ ، وراجع الآيات ٥٧-٦٠ من سورة النحل ، والآيات ١٥-١٩ من سورة الزحرف .

(٢) المتوهمات : قصايا كاذبة يحكم بها الوهم في أمور غير محسوسة — والشعر : قول مؤلف من المخيلات — والمخيلات : قصايا يخيّل بها ، لتأثر النفس بها قبضاً وبسطاً ، فترغب فيها ، سواء كانت صادقة أو كاذبة ، كقول القائل : الخمر ياقوتة سيّالة ، فحينئذ تنبسط النفس وترغب فيها ؛ والعسل مُرّة مهُوَّعة ، فالنفس تنقبض وتنفر عنه (مرآة الشروح للملأمين رحمه الله ص ٢٣٠) .

(٣) وهم سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما السلام ؛ وذلك كقوله تعالى : ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِيْكَ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سورة الأحقاف ٤) .
(٤) أى : أن أسلافهم الذين حرّفوا الدين ، وغيّروا الشرع ، ليسوا بمعصومين عن الخطأ والزلل ، فكيف تُقبل اختراعاتهم ؟ وراجع الآيات ١٦٨-١٧٠ من سورة البقرة .
(٥) وذلك كقوله تعالى : ﴿وَنَزَّلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا - إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى - وَأَخْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مِيتًا ؛ كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (سورة ق ٩-١١) وراجع الآية ٥٧ من سورة الأعراف .
(٦) كقياس الإعادة على الابتداء ، قال تعالى : ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (سورة الأعراف ٢٩) وقال أيضاً : ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ (سورة الأنبياء ١٠٤) وقال تعالى : ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ (سورة ق ١٥) وقال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ﴾ (==)

المناطق الذى هو شمول القدرة، وإمكان الإعادة^(١).

وثانياً: بيان موافقة أهل الكتب السماوية كلهم فى الإخبار به^(٢)

والرد على منكرى الرسالة:

أولاً: بيان وجودها فى الأنبياء السابقين، كما قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَلاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا: لَسْتَ مُرْسَلاً، قُلْ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾^(٤)

وثانياً: بدفع الاستبعاد ببيان أن الرسالة هنا عبارة عن الوحي، قال تعالى: ﴿قُلْ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾^(٥) ثم يفسر الوحي بما لا يكون من المستحيلات، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا، أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ، إِنَّهُ عَلَى حَكِيمٍ﴾^(٦)

(=) يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ (سورة العنكبوت ١٩)

قال القاضى أبو السعود فى تفسيره (٤: ١٦٧): هو إخبار بأنه تعالى يعيد الخلق قياساً على الابتداء اهـ.

وكقياس الإعادة على خلق السموات والأرض بطريق الأولى (سورة يس ٨١ وسورة المؤمنون ٥٧) وكقياس الإعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر (سورة يس ٨٠) وراجع البرهان (٢: ٢٦).

(١) أى نقول: إن الإعادة موقوف على أمرين: الأول: كون الإعادة ممكناً، والثانى كون قدرة الله تعالى شاملاً عليه، وثبت كلا الأمرين، فأى استحالة فيه؟
(٢) أى نقول: إن الكتب السماوية كلها متفقة فى الإخبار بوقوع الحشر والنشر، فكان ذلك إجماعاً قاطعاً عليه.

(٤) سورة الرعد ٤٣

(٣) سورة يوسف ١٠٩

(٥) سورة حم السجدة ٦

(٦) سورة الشورى ٥١ وذكر اللغويون لكلمة (الوحي) معانى كثيرة، منها: (=)

وثالثاً: بيان أن عدم ظهور المعجزات التي يقترحونها^(١) وعدم موافقة

(==) الإشارة والرسالة والإلهام وكل ما ألقته إلى غيرك؛ ثم غلب استعماله في لسان الدين الإسلامي: فيما يُلقى من الله تعالى إلى الأنبياء.

وأما طرق الوحي فهي كما يلي:

١- يأتيه بحيث يسمع دَوياً، كأنه رمز من الكلام يأخذ منه المعنى الذي ألقى إليه، فلا ينقضى الدوى إلا وقد وعاه وفهمه؛ وهذه أشد حالات الوحي، فقد ورد في الحديث أن الحارث بن هشام سأل النبي صلى الله عليه وسلم: كيف يأتيك الوحي؟ فأجاب صلى الله عليه وسلم: "أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال.

٢- يأتيه الملك في صورة رجل فيكلمه، وهو أهون الحالات عليه، وتفسيره: إما أن ينخلع الملك من صورته إلى الصورة البشرية، حتى يأخذ عنه كما انخلع في صورة دحية الكلبي، وإما أن ينخلع النبي من صورته البشرية إلى الصورة الملكية، حتى يأخذ الوحي من الملك، ويعي ما يقوله كما ورد في الحديث المتقدم ذكره: "وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول".

٣- يكلم الله تعالى مع عبده من وراء حجاب كما ثبت للنبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء وكما وقع لموسى عليه السلام. وهذه الأقسام الثلاثة يعد من كلام الله تعالى التشريعي، وبينها الآية الكريمة المزبورة.

٤- أن يُنفث في رُوعه الكلام نفثاً، ويعبر بالإلهام أيضاً.

٥- أن يأتيه الملك في النوم، وهي الرؤيا الصادقة عند بعض العلماء.

وهذان القسمان مما وقع ويقع لغير الأنبياء أيضاً، وليس شئ من هذه

الأقسام محالاً، فكيف تكون الرسالة مستبعدة؟

واعلم أن الإمام المصنف رحمه الله قد عدَّ اجتهاد النبي أيضاً من الوحي المعنوي نظراً إلى الغاية واعتباراً للنتيجة، لأنه لا يُقر على اجتهاده إذا كان خطأ (راجع حجة الله

٢٨٢: ١) وذكر السُّهيلي صور الوحي سبعة، فراجع من عمدة القارى (٤٧: ١)

(١) اقترح عليه كذا وبكذا: تحكّم وسأله إياه بالعنف، ومن غير روية وراجع

الآيات ٩٠-٩٣ من سورة بنى إسرائيل.

اللّٰه تعالى إياهم فى تعيين شخص يتوخون رسالته ^(١) وعدم إرساله تعالى الملائكة رسلاً ^(٢)، وعدم إيحائه تعالى إلى كل شخص ^(٣)، كل ذلك لمصلحة كلية، يقصر علمهم عن إدراكها ^(٤).

(١) وذلك كما حكى الله تعالى قولهم: ﴿وَقَالُوا: لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (سورة الزخرف ٣١)

وتوخى الأمر: قصد إليه، وتعمد فعله، وتحراه، يقال: توخى رضاه وتوخى محبته،

(٢) كما قالوا: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَكًا﴾ (سورة المؤمنون ٢٤)

(٣) كما قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ (سورة الأنعام ١٢٤) وراجع الآية ٢١ من سورة الفرقان.

(٤) أى: يجب ثالثاً ببيان أن عدم ظهور المعجزات التى يقترحونها، وعدم موافقة الحق — سبحانه وتعالى — لهم فى تعيين شخص يقترحون نبوته، وعدم إرسال الملك رسولاً، وعدم الإيحاء إلى كل واحد منهم كل ذلك لمصلحة كلية، يقصر علمهم عن إدراكها.

أما وجه عدم ظهور المعجزات المقترحة: فإن سنة الله جارية بإرسال العذاب إن لم يؤمن الأمة بعد رؤية المعجزات المقترحة، وقد قدر الله لهذه الأمة البقاء والإيمان.

قال الباقر (عليه السلام): الآيات على ضربين: أحدهما كالمعجزات، التى هى أدلة فى دار التكليف، والثانى: الآيات التى ينقطع عندها العذر، ويقع عندها العلم الضرورى، وأنها إذا جاءت ارتفعت التكليف، ووجب الإهلاك؛ فالله قادر على هذه الآيات، ولكنه إذا أقامها زال التكليف وحقت العقوبة على الجاحدين اهـ. وقال الشيخ حسين محمد مخلوف فى تفسيره: صفوة البيان لمعانى القرآن (١: ٥٩) فى قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ (الإسراء ٥٩): وما كان سبب تركنا إرسال الآيات التى اقترحها المشركون إلا علمنا بأنهم سيكذبون بها كما كذب بأمثالها الأولون، فيستوجبون مثلهم عذاب الاستئصال على ما جرت به السنة الإلهية، وقد قضينا بامهال المكذبين من هذه الأمة لحكم نعلمها اهـ.

وأما وجه عدم موافقة الله تعالى لهم فى تعيين شخص: أن (==)

ولما كان أكثر الناس الذين بعث الله إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم مشركين، ذكر هذه المعاني في القرآن الكريم في سور كثيرة بأساليب متعددة وتأكيدات بليغة؛ ولم يتحاش عن تكرارها وتردادها^(١)؛ نعم هكذا ينبغي أن تكون مخاطبة الحكيم المطلق مع هؤلاء الجهلة؛ والكلام في مقابلة هؤلاء السفهاء جدير بهذا التأكيد البليغ، ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

ذكر اليهود

وقد كان اليهود، آمنوا بالتوراة^(٢)، وكان من ضلالهم:

(=) النبوة تقتضى ملكاتٍ وصلاحيّةً، فما كل رجل يصلح لهذا المنصب الشريف قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (سورة الأنعام ١٢٤) وأما وجه عدم إرسال الملك: لأنه لو بعث في صورته لا يقدرّون على كسب الفيض منه، ولن يُبعث في صورة البشر للبس عليهم ما يلبسون، ولما أن قدمنا أن الشخص أعرف بأحوال أبناء جنسه فيكون أقدر على إصلاحهم. وأما وجه عدم الإيحاء إلى كل واحد: فإن تلقى الوحي أيضا تقتضى ملكة وصلاحيّة.

(١) تَحَاشَى عَنْ كَذَا: تَنَزَّرَ؛ وَرَدَّه (ن) رَدًّا وَتَرَدَّدَا: أَرْجَعَهُ، فَهِيَ لِمَعْنَى التَّكَرُّارِ.
(٢) يُطْلَقُ لَفْظُ (تُورَاة) عِنْدَ النَّصَارَى، وَيُرَادُ بِهَا مَجْمُوعَةُ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ، ثُمَّ تَرَخَّصُوا وَأَرَادُوا بِهَا الْعَهْدَيْنِ مَعًا، قَالَ مُحَقِّقُ الدِّيَانَةِ الْمَسِيحِيَّةِ الْعَلَامَةُ رَحْمَةُ اللَّهِ الْهِنْدِيُّ فِي كِتَابِهِ الْجَلِيلِ: "أَظْهَارُ الْحَقِّ" (١: ٣٨): أَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقْسِمُونَ هَذِهِ الْكُتُبَ إِلَى قَسْمَيْنِ: قَسَمَ مِنْهَا يَدْعُونَ أَنَّهُ وَصَلَ إِلَيْهِمْ بِوَسْطَةِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَقَسَمَ مِنْهَا يَدْعُونَ أَنَّهُ كُتِبَ بِالْإِلَهَامِ بَعْدَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَمَجْمُوعُ الْكُتُبِ مِنَ الْقَسَمِ الْأَوَّلِ يُسَمَّى بِالْعَهْدِ الْعَتِيقِ وَمِنَ الْقَسَمِ الثَّانِي بِالْعَهْدِ الْجَدِيدِ، وَمَجْمُوعُ الْعَهْدَيْنِ يُسَمَّى بِبَيْبِل، وَهَذَا لَفْظُ يُونَانِي بِمَعْنَى "الْكِتَابِ" ثُمَّ يَنْقَسِمُ كُلُّ مِنَ الْعَهْدَيْنِ إِلَى قَسْمَيْنِ: قَسَمَ اتَّفَقَ عَلَى صَحْتِهِ جَمْهُورُ الْقَدَمَاءِ مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ، وَقَسَمَ اخْتَلَفَ فِيهِ.

وأما القسم الأول من العهد العتيق: فثمانية وثلاثون كتابا: (=)

(=) (١) سفر التكوين، ويسمى سفر الخليفة أيضا. (٢) سفر الخروج. (٣) سفر الأحبار. (٤) سفر العدد. (٥) سفر الاستثناء (ومجموع هذه الكتب الخمسة يسمى بالتوراة، وهو لفظ عبراني بمعنى التعليم والشريعة، وقد يطلق ذلك اللفظ على مجموع كتب العهد العتيق مجازاً) (٦) كتاب يوشع بن نون. (٧) كتاب القضاة الخ وهذه الكتب الثمانية والثلاثون كانت مسلمة عند جمهور القدماء من المسيحيين؛ والسامريون لا يسلمون منها إلا سبعة كتب: الكتب الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام وكتاب يوشع بن نون وكتاب القضاة؛ وتخالف نسخة توراتهم لنسخة توراة اليهود.

وأما القسم الثاني من العهد العتيق: فتسعة كتب.

وأما القسم الأول من العهد الجديد: فعشرون كتاباً: (١) إنجيل متى (٢) إنجيل مرقس (٣) إنجيل لوقا (٤) إنجيل يوحنا) ويقال لهذه الأربعة "الإنجيل الأربعة" ولفظ الإنجيل مختص بكتب هؤلاء الأربعة، وقد يطلق مجازاً على مجموع العهد الجديد، وهذا اللفظ معرب، كان في الأصل اليوناني "انجيليون" بمعنى البشارة، والتعليم) (٥) كتاب أعمال الحواريين الخ.

وأما القسم الثاني من العهد الجديد: فسبعة كتب الخ انتهى (وقد تركنا ذكر الكتب)

ثم اعلم أن سفر التكوين يتضمن خبر خلق العالم وذكر أصول الإنسان وأوائل تاريخ بني إسرائيل مع تاريخ الآباء: إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب، وفي سفر الخروج أخبار دعوة موسى وخروج العبرانيين من أرض مصر، وإنزال الوصايا العشر على موسى في جبل سيناء، وسفر الأحبار (اللاويين) يبحث عن تنظيم الحكم في شرائع وشعائر تحت إدارة سبط اللاويين، وسفر العدد يبحث عن رحلاتهم في البرية، وافتتاح أرض كنعان. وتشية الاشتراع: سفر أخير من أسفار موسى، يتضمن فصولاً تشريعية، وفصولاً تاريخية عن أيام موسى الأخيرة، وموته تجاه أرض الموعد.

وقال صاحب "المنجد في الأدب والعلوم" (ص ١١٥): التوراة في (=)

١ - تحريفُ أحكام التوراة، سواء كان تحريفًا لفظيًا أو تحريفًا معنويًا.

٢ - وكتمائُ آيات التوراة.

٣ - وإلحاقُ مالمِيس منها بها، افتراءٌ منهم.

٤ - والتقصيرُ في تنفيذ أحكامها.

٥ - والعصبيةُ الشديدةُ لديانتهم.

٦ - واستنكارُ رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم، وسوءُ الأدب والطعنُ عليه

صلى الله عليه وسلم،^(١) بل بالنسبة إلى الربِّ تبارك وتعالى أيضًا^(٢).

٧ - وابتلاؤهم بالبخل والحرص ونحو ذلك من الرذائل.

بيان التحريف

وقد تحقق لدى الفقير أن تحريفهم اللفظيَّ قد كان في ترجمة التوراة

وأمثالها، لا في أصل التوراة؛ وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما^(٣).

(=) المعنى العصرى: هى أسفار العهد العتيق الخمسة — وقد يطلق خطأ اسم التوراة على الكتب المقدسة بكماله اهـ.

وهذا بحث يجب أن يتمم القول فيه بعد، فليس هذا بموضع له، فراجع بحث

التحريف من ذكر اليهود، والكلام حول الإنجيل يأتى فى ذكر النصارى.

(١) ورد فى الحديث: أن اليهود كانوا إذا دخلوا عليه صلى الله عليه وسلم

يقولون: " السَّامُ عليك" والسام هو الموت؛ وكانوا يقولون مكان: اسمع لنا:

"راعنا" وكانوا يورؤون بالرعونة. ولما نزل ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ الآية قال

النبي صلى الله عليه وسلم: "جامعوهم فى البيوت واصنعوا كل شئ غير النكاح"

فقلت اليهود: ما يريد هذا الرجل (يعنون النبي صلى الله عليه وسلم) أن يدع شيئاً

إلا خالفنا فيه — رواه الإمام أبوداود.

(٢) كما قالوا — لعنهم الله! —: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ (سورة آل عمران

١٨١) وقالوا — خذلهم الله! —: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ (سورة المائدة ٦٤)

(٣) اعلم أن فى التحريف ثلاثة مذاهب:

١ - ذهب جماعة إلى أن التحريف فى الكتب السماوية قد وقع بكل نحو، (=)

(—) فى اللفظ والمعنى جميعا؛ وهو الذى مال إليه ابن حزم وجماهير العلماء.

٢- وذهب جماعة إلى أن التحريف قليل؛ ولعل الحافظ ابن تيمية جنح إليه.

٣- وذهب جماعة إلى إنكار التحريف اللفظى رأسا، فالتحريف عندهم كله

معنوى؛ وإليه جنح الإمام المصنف رحمه الله تعالى.

قال شيخ مشايخنا العلامة الكشميرى: يلزم على هذا المذهب أن يكون

القرآن أيضا محرّفا؛ فإن التحريف المعنوى غير قليل فيه أيضا، والذى تحقق

عندى: أن التحريف فيه لفظى أيضا. أما أنه من عمد منهم أو لمغلطة، فالله تعالى

أعلم به اهـ (فيض البارى ٣: ٣٩٥)

وقال أيضا: كيف ساغ لابن عباس إنكار التحريف اللفظى، مع أن شاهد

الوجود يخالفه؟ كيف! وقد نعى عليهم القرآن أنهم كانوا يكتبون بأيديهم ثم

يقولون: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وهل هذا إلا تحريف لفظى؟ ولعل

مراده: أنهم ما كانوا يحرفونه قصداً، ولكن سلفهم كانوا يكتبون مرادها كما

فهموه، ثم كان خلفهم يدخلونه فى نفس التوراة، فكان التفسير يختلط بالتوراة من

هذا الطريق. اهـ (فيض البارى ٤: ٥٣٧)

أقول: قد ذكر المفسرون قول ابن عباس فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ

فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة

البقرة ٧٥) قال الألوسى: يسمعون التوراة ويؤلونها تأويلا فاسدا حسب أغراضهم،

وإلى ذلك ذهب ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، والجمهور على أن تحريفها

بتبديل كلام من تلقائهم اهـ (روح المعانى ١: ٢٩٨)

وليس فى هذه الآية ذكر تحريفهم التوراة، بل الآية مخصوصة بواقعة سماع

كلام الله تعالى على الطور، لما اختار موسى قومه سبعين رجلا لميقات ربه

فاسمعهم الله تعالى كلامه، فلما رجعوا إلى قومهم أخبروهم بما سمعوا إلا أنهم

زادوا فى آخره: "إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا وإن شئتم فلا تفعلوا"

— فالتحريف هنا بالتأويل الفاسد.

وأما مسألة التحريف فى التوراة فتبحث عنها الآيتان فى سورة المائدة: (==)

(=) الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا، سَمْعُونَ الْكَذِبَ، سَمْعُونَ خُورَ، آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ، يَحْرَفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ: إِنَّ آيَاتِنَا هُنَا فَحَمُوهُ، وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَأَحْذَرُوا﴾ (الآية ٤١)

والثانية: قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقُضُهُمْ مِنَّا قَلْبَهُمُ لَعْنُهُمْ وَجَعْنَا قُلُوبَهُمْ قَسِيَةً، يَحْرَفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَرَأَى نَظْعًا عَلَى خِمَابٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ (الآية ١٣)

ولم يذكر المفسرون هنا قول ابن عباس رضي الله عنهما، بل روى لإمام البخاري في صحيحه (ص ٣٦٩ في كتاب الشهادة في باب: لا يثبت من يشرك عن الشهادة وغيرها) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه حذر الذين يزعمون عن أهل الكتاب فقال: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب وكتبكم لئلا تقول على نبيه أحدث الأخبار بالله تقرأونه، لم يشب (لم يخط من شوب بمعنى الخط) وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدّلوا ما كتب الله، وغيروا بأبيهم كتاب، فقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا؟ أفلا ينهاكم ما جاءكم من نعم الله عن مسألتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذي نزل عنكم؟

وأما ما ذكره البخاري — رحمه الله تعالى — في آخر كتبه في كتاب الرد على الجهمية: (كتاب التوحيد) في باب قول الله تعالى: ﴿يَلْهَى الْيَهُودَ مَا يَشْرُونَ مِنَ الْآيَاتِ كَذِبًا﴾ (سورة القصص ٢٥) قالوا: يحرّفون يزيّفون وليس أحد يزيّف لفظ كتاب من كتب الله؛ ولكنهم يحرفونه، يتأولونه على غير تأويله. (ص ١١٦٦) فقال المحض: قوله: وليس أحد الخ من كلام البخاري، ذيل به تفسير ابن عباس، ويحتمل أن يكون بقية كلام ابن عباس في تفسير الآية.

فلعل الإمام المصنف وغيره فهم من هذا مذهب ابن عباس ولكن لا يصح الاستدلال بهذا على مذهبه، لأن العبارة ليست بنص في ذلك كما قل محضني. عني أن هذا يعارض قوله المتقدم: "وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدّلوا ما كتب الله" وبعد: فإن التوراة كانت في الأصل توراة واحدة، وقد سمعت لسحبد من صندوق الشهادة، فعمل عزرا النبي توراة جديدة بعد تعدد الأصل، =

(=) حجّى وزكريا الرسولين، كما قال كليمنس؛ وقد ضاعت هذه النقول أيضا في واقعة (أَيْتُو كَسْ) كما يقول: جَا تَزْ كَانْلِك. والآن توجد ثلاثة نسخ من التوراة (عبرانية، ويونانية. وسامرية) وكل منها تخالف الأخرى في كثير من النصوص، وكانت النسخة اليونانية معتبرة عند سائر المسيحيين واليهود حتى القرن الخامس عشر من القرون المسيحية؛ وكانوا في هذه المدة يعتقدون بتحريف النسخة العبرانية، ثم حصل تحريف ثانٍ في التوراة العبرانية من اليهود عمداً ليخالفوا به المسيحيين بتوراتهم اليونانية.

وقد جنح البروتستانت إلى الاتفاق مع اليهود؛ باعتمادهم التوراة العبرانية، مخالفين بذلك بقية المسيحيين، فلا تزال "اليونانية" معتبرة عند الكنيسة اليونانية وكنائس الشرق، و"العبرانية" عند اليهود والبروتستانت.

ثم هاتان تخالفان التوراة السامرية المعتبرة عند السامريين؛ وكلُّ أهل توراة من هذه الثلاثة يدّعى صحة توراته، ويعتقد بتحريف غيرها.

وقد عقد العلامة رحمة الله الكيرانوى ثم المكى باباً مستقلاً حول بحث التحريف في كتابه العظيم: إظهار الحق (١: ١٥٨) فقال: الباب الثانى فى إثبات التحريف وهو قسمان: لفظى ومعنوى؛ ولانزاع بيننا وبين المسيحيين فى القسم الثانى، لأنهم يسلمون كلهم صدوره عن اليهود فى العهد العتيق، فلا احتياج إلى إثباته؛ بقى القسم الأول؛ وقد أنكره علماء بروتستانت فى الظاهر إنكاراً بليغاً، لتغليط جهال المسلمين، وأوردوا أدلة مُمَوَّهة مزوّرة فى رسائلهم ليوقعوا الناظرين فى الشك، فهو محتاج إلى الإثبات، فأريد إثباته فى كتابى هذا بعون خالق الأرض والسموات.

وأقول: إن التحريف اللفظى بجميع أقسامه؛ أعنى بتبديل الألفاظ، وزيادتها ونقصانها، ثابت فى الكتب المذكورة اهـ.

فأثبت فى المقصد الأول التحريف اللفظى بالتبديل بخمس وثلاثين أمثلة، فقال: أكتفى من شواهد المقصد الأول على هذا القدر، خوفاً من الإطالة اهـ. وأثبت فى المقصد الثانى التحريف اللفظى بالزيادة بخمس وأربعين أمثلة؛ (=)

والتحريف المعنوى: هو تأويل فاسد بحمل الآية على غير معناها، بتعسف وانحراف عن سواء السبيل.

أمثلة التحريف المعنوى:

١- فمن جملة ذلك: أن الله تعالى قد بيّنَ الفرقَ بين المتدينِ الفاسق والكافر الجاحد في كل ملة، وتوعد الكافر بالخلود في النار والعذاب الأليم، وجوز خروجَ الفاسق من النار بشفاعَةِ الأنبياء، وصرّح بذلك في كل ديانة باسم المتدين بتلك الديانة، فأثبت ذلك في التوراة لليهود والعبريين^(١) وفي الإنجيل للنصرانيين، وفي القرآن العظيم للمسلمين؛ ومناطُ الحكم: هو الإيمان بالله واليوم الآخر، والإيمانُ بالنبي الذي بُعث إليهم، والانقيادُ له^(٢)، والعمل بشرائع ملته^(٣)، والاجتناب عن نواهيها؛ لا تخصيص الحكم بفرقة من الفرق لذاتها

(=) وأثبت في المقصد الثالث التحريف بالنقصان بعشرين أمثلة.

وفذلكة القول: أن التوراة الأصلية قد فُقدت، وكذا نقلُ عزرا النبي أيضًا ضاعت، والنسخ الثلاثة الموجودة كُتبت في أوقات متفرقة بغير إلهام (إظهار الحق ١: ١٢٦) وصاحبُ كل نسخة يدّعي صحة نسخته، ويعتقد بتحريف غيرها، فهذه شهادة أهل البيت، وهم أدري بما فيه، وما راءِ كمن سمع!

(١) العبرى والعبرانى هو اليهود. والشعب اليهودى يُسمّى نفسه بالإسرائيلى، نسبةً إلى إسرائيل أى يعقوب عليه السلام، الذى كان قد نال من الرب بركة خاصة — كما زعموا — وكان جيرانهم يُطلقون عليهم اسم ”العبرانيين“ نسبة إلى عابر، أحد جدود إسرائيل، أو دلالة على أنه كان قد عبّر نهرًا، والآن بقيت الكلمة فى استعمالنا دلالة على لغتهم العبرية أو العبرانية (من المنجد ملخصا)

(٢) مثلاً: الانقياد لسيدنا عيسى عليه السلام حينما بعث إليهم، والانقياد لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعث إليهم.

(٣) الدين والملة مترادفان عند الشرع، وأصل الدين واحد، اتفق عليه الأنبياء عليهم السلام. والشرائع: المناهج، وهى مختلفة قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾.

ولكن اليهود زعموا أن كل من كان يهوديا أو عبريا فهو من أهل الجنة، وتخلّصه شفاعة الأنبياء من العذاب، ولا يمكث في النار إلا إياماً معدودات، وإن لم يتحقق ذلك المناط، ولم يكن إيمانه بالله تعالى على الوجه الصحيح، ولم يدرك حظاً من الإيمان بالآخرة، ورسالة النبي المبعوث إليهم.

وهذا خطأ صرف وجهل محض، وقد كشف القرآن العظيم هذه الشبهة على أتم وجه، لما أنه كان مُهَيِّمًا^(١) على الكتب السابقة، مُبَيِّنًا لمواضع الإشكال فيها، فقال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ، فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٢)

(١) هَيِّمَ عَلَى كَذَا: سَيَّطَرَ عَلَيْهِ، وَرَاقَبَهُ وَحَفَظَهُ.

(٢) سورة البقرة ٨١ أى: بَيَّنَّ القرآن بوضوح أن الفوز في الآخرة بالعمل لا بالأمانى. قال الشيخ يوسف القرضاوى: قد هدمت عقيدة الإسلام ذلك الطمع الأشعبي، والأمانى الفارغة، التي جعلت صنفا من الناس يحسبون الجنة حكرًا لهم، أو عقارًا سيتوارثونه عن الآباء والأجداد، يستحقونها بمجرد الانتساب إلى دين معين أو الدخول تحت عنوان خاص.

أبطل الإسلام هذه الدعاوى العريضة، وردَّ الأمر كله إلى صدق الإيمان وحسن العمل: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ: قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة ١١١-١١٢) وبهذا رسم الطريق إلى الجنة: إسلام الوجه إلى الله وإحسان العمل.

ولم يكن هذا موقفه من اليهود والنصارى فحسب، فلقد وقف نفس الموقف من الأشعبيين من المسلمين أنفسهم، أولئك الحمقى الذين يتبعون أنفسهم هواها، ويتمنون على الله الأمانى، ويظنون أن النطق بكلمة الإسلام: أو التسمي بأسماء المسلمين يكفي، لتفتح لهم أبواب الجنة، فيدخلوها بسلام آمنين، ولكن القرآن بيّن لهم بوضوح أن قانون الله في الجزاء عام لعباده قاطبة لا محاباة عنده ولا فرق بين طائفة وطائفة.

(=)

٢ - ومن جملة ذلك: أنه تعالى قد بيّن في كل ملة أحكاماً تناسب مصالح ذلك العصر، وروعت في التشريع^(١) عادات القوم الصالحة، وأكّد الأمر بالأخذبها، وإدامة العمل عليها، والاعتقاد بها، وحصر الحقيقة فيها؛ والمراد أن الحق منحصر فيها في ذلك العصر، وأن الإدامة عليها^(٢) إضافية، لاحقيقية أى مالم يأت نبي آخر، ومالم يكشف الستار عن وجه رسالته.

ولكن اليهود حملوا ذلك على استحالة نسخ اليهودية؛ وكان معنى^(٣)

(=) روى المفسرون أن مجلساً ضم جماعة من اليهود والنصارى والمسلمين، فرعمت كل طائفة منهم أنهم أولى الناس بدخول الجنة؛ اليهود قالوا: نحن أتباع موسى الذى اصطفاه الله برسالاته وبكلامه، والنصارى قالوا: نحن أتباع عيسى روح الله وكلمته، والمسلمون قالوا: نحن أتباع محمد خاتم النبيين، وخير أمة أخرجت للناس.

فلم يدع القرآن هؤلاء وهؤلاء لدعواهم وتنازعهم، ونزلت آياته حاكمة فاصلة، قاضية، عادلة، تخاطب المسلمين فى صراحة وجلاء: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ؛ مَنْ يَعْمَلْ سُوءً يُجْزَ بِهِ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا؛ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (النساء ١٢٣-١٢٤)

(من مقالة له المنشورة فى البعث الإسلامى ١٧: ٣ رمضان ١٣٩٢ هـ ص ٤٥-٤٧)

(١) التشريع: سن القوانين

(٢) ضمائر التانيث كلها ترجع إلى الملة.

(٣) هذا جواب سؤال مطوى، وهو أن اليهود يدعون أن يعقوب عليه السلام يوم مات وصى بنيه بالتمسك باليهودية، فيستدلون بتلك الوصية على استحالة نسخ اليهودية، والجواب: أن ذلك افتراء منهم على يعقوب عليه السلام، ولم يكن معنى وصيته هذا، بل وصى هو بالإيمان والأعمال الصالحة، قال الله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ أى حضوراً ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ، إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ: مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي؟ قَالُوا: نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ: إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة ١٣٣) و(أم) بمعنى همزة الإنكار، أى: لم تحضروه وقت موته، فكيف تنسبون إليه ما لا يليق به؟ (تفسير الجلالين)

وصية التمسك بها هو الوصاية بالإيمان بالله والتمسك بالأعمال، ولم تكن خصوصية تلك الملة معتبرة لذاتها؛ ولكن اليهود اعتبروا الخصوصية، فظنوا أن يعقوب عليه السلام وصى بنيه بالتمسك باليهودية أبداً.

٣ - ومن جملة ذلك: أن الله تعالى شرف الأنبياء، والتابعين لهم بإحسان، في كل ملة بوصف المقرَّب والمحبوب، ووصف الذين ينكرون الملة بالمغضوب؛ وأطلق في هذا الباب لفظاً شائعاً في كل قوم، فلا عجب لو استعمل كلمة "الأبناء" مقام المحبوبين^(١)؛ ولكن ظن اليهود أن هذا التشريف دائر مع اسم اليهودي والعبري والإسرائيلي، ولم يعرفوا أنه دائر مع صفة الإنقياد والخضوع، والسير على الحق الذي أنزله الله على الأنبياء، لا غير.

وقد ارتكز^(٢) في خواطرهم كثير من التأويلات الفاسدة من هذا القبيل، وتلقوها وتوارثوها عن آبائهم وأجدادهم؛ فدَحَضَ^(٣) القرآن الكريم هذه الشبهات على أتم وجه.

بيان كتمان الآيات

أما كتمان الآيات: فهو أنهم كانوا يخفون بعض الأحكام والآيات

(١) قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إن النبي صلى الله عليه وسلم دعا جماعة من اليهود إلى دين الإسلام وخوفهم بعقاب الله تعالى فقالوا: كيف نخوفنا به، ونحن أبناء الله وأحباءه. وفي الآية الأولى من الباب ١٤ والآية ١٩ من الباب ٣٢ من كتاب الاستثناء، وفي الآية ٢ من الباب الأول والآية الأولى من الباب ٣٠ والآية ٨ من الباب ٦٣ من كتاب أشعياء، وفي الآية ١٠ من الباب الأول من كتاب هو شع، جاء إطلاق "أبناء الله" على جميع بني إسرائيل (إظهار الحق ٢: ١٢-١٣) وقيل: إن النصارى يتلون في الإنجيل أن المسيح قال لهم: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم — وبالجملة: أنهم كانوا يدعون أن لهم فضلاً ومزية عند الله تعالى على سائر الخلق (أبو السعود ١٦: ٢).

(٢) ارتكز الشيء: ثبت واستقر في محله.

(٣) دَحَضَ الحجَّة: أبطلها ودفعها.

للمحافظة على جاهٍ شريفٍ، أو لطلب منصب عزيز، لئلا يتلاشى^(١) اعتقادُ العامة فيهم، ولا يلاموا على ترك العمل بتلك الآيات.

أمثله:

١- فمن جملة ذلك: أن حكمَ رجم الزانى مصرَّحٌ في التوراة، ولكنهم أهملوه لإجماع أحبارهم^(٢) على إهماله، وإقامة الجَلْد وتسخيم^(٣) الوجه مقامه، وكانوا يخفون تلك الآيات خشيّة الفضيحة^(٤).

(١) تَلَاشى: مطاوعٌ لَأَشَاهُ الله: أفناه؛ كأنه جعله كالأشياء.

(٢) الأحبار: العلماء، جمعُ حَبْرٍ — بفتح حَبْرٍ — وبكسره —: العالم الكبير عند النصارى، وهو مأخوذ من تحبير العلم وتحسينه، وعند اليهود: رئيس الكهنة.

(٣) سَخَّم الله وجهه: سَوَّدَه، والسخم: السواد.

(٤) عن ابن عمر قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم يهودى ويهودية قد أحدثا (أى زنيا) جميعاً، فقال لهم: ماتجدون فى كتابكم؟ قالوا: إن أحبارنا أحدثوا (أى ابتدعوا) تحميم الوجه (أى تسويده بالفحم) والتجبية (وهو أن يحمل الزانيان على حمار مخالفا بين وجوههما ويطاف بهما) قال عبد الله بن سلام: ادعهم يارسول الله! بالتوراة فأتى بها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، وجعل يقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له ابن سلام: ارفع يدك، فإذا آية الرجم تحت يده، وأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فَرُجِمَا (رواه البخارى فى صحيحه فى باب الرجم بالبلاط ص ١٠٠٧) وعن البراء بن عازب، قال: مرَّ على النبى صلى الله عليه وسلم بيهودى محمَّماً مجلوداً فدعاهم فقال: هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم؟ قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم، فقال: أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى صلى الله عليه وسلم أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم؟ قال: لا! ولولا أنك نَشَدْتَنى بهذا لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر فى أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمع على شئٍ نقيمة على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجَلْد مكان الرجم، الحديث (رواه مسلم ٧٠: ٢ فى باب حد الزنا)

٢- ومن جملة ذلك: أن الآيات^(١) التي فيها بشارة ببعثة نبي في أولاد هاجر^(٢) وإسماعيل عليهما السلام، والتي فيها إشارة إلى وجود ملّة، يتم ظهورها وشهرتها في أرض الحجاز وتمتلىء بها جبال عرفة من التلبية، ويؤم الناس ذلك الموضع من الأقطار والأمصار؛ وهي ثابتة في التوراة حتى اليوم^(٣)؛ فكان اليهود يتأولونها بأن ذلك إخبار بوجود تلك الملّة، وليس فيها أمر باتباعها؛ وكانوا يرددون هذه الكلمة: "مَلَحْمَةٌ كُتِبَتْ عَلَيْنَا"^(٤)

ولمّا أن هذا التأويل الركيك لا يسمعه أحد، ولا يصح عند أحد، كانوا يتواصون فيما بينهم بإخفائها، ولا يسمعون بإظهارها على كل عام وخاص، كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ

(١) يعنى آيات التوراة .

(٢) هاجر على زينة فاعل: أم إسماعيل عليهما السلام ، ويقولون: آجر، فيبدلون الهمزة من الهاء .

(٣) كما في سفر التكوين في الباب السابع عشر في الآية العشرين (من الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤م): (وعلى إسماعيل استجيب لك، هو ذا أباركه وأكبره، وأكثره جداً، فسيلد اثني عشر رئيساً، وأجعله لشعب كبير) وقوله: اجعله لشعب كبير يشير إلى محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه لم يكن في ولد إسماعيل من كان لشعب كبير غيره (إظهار الحق ٢: ١٧٢) وكما في كتاب أشعيا في الباب الثاني والأربعين في الآيات ٩-١٧ وراجع لشرحها إظهار الحق (٢: ١٨)

(٤) الملحمة ج ملاحم: الموقعة العظمية القتل في الحرب، أى كانوا يقولون: الملحمة التي كتبت علينا هي الحرب الشديد مع النبي الذي سيظهر في أولاد إسماعيل، فكاننا أمرنا بمخالفته، لاتباعه، وإلا فكيف يكتب علينا القتال والحرب معه. ولما عرض حَيُّ بن أخطب للقتل يوم غزوة بني قريظة، أقبل على الناس فقال: "أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله: كتابٌ وقدرٌ وملحمةٌ كتبها الله على بني إسرائيل!" (البداية والنهاية ٤: ١٢٥، والسيرة الحلبية ٢: ٤٤١)

عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴿١﴾.

ما أجهلهم! هل يمكن أن تُحْمَلَ مِنْهُ اللّٰهُ تعالى على هاجرو إسماعيل —
عليهما السلام — بهذه المبالغة، وذكر هذه الأمة بهذه الفضيلة، على الإخبار
بوجود تلك الملة، ولا يكون فيه حث وتحريض على اتباع هذا الدين؟!
سُبْحَانَكَ هَذَا إِفْكٌ عَظِيمٌ!

بيان الافتراء:

أما الافتراء^(٢) فأسابه:

- ١- دخول التعمُّق والتشدد على أبحارهم ورهبانهم^(٣).
- ٢- والاستحسان أى استنباط بعض الأحكام بناءً على إدراك المصالح فيها،
بدون نص من الشارع^(٤).

(١) سورة البقرة ٧٦

(٢) الافتراء على الله: نسبة ما يكتبونه بأيديهم إلى الله تعالى وإلى التوراة.
(٣) الأبحار: العلماء، وعند اليهود رئيس الكهنة، والرهبان: جمع الراهب: من
اعتزل عن الناس إلى دَيْرٍ طلباً للعبادة؛ من الرهبة أى الخوف، والرهبانية — بفتح
الراء وضمها — طريقتهم، قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا، مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ، إِلَّا
ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ، فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ (الحديد ٢٧) وقال صلى الله عليه
وسلم: ﴿تَرَهَّبَ أُمْتِي الْجُلُوسُ فِي الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ﴾ وأما الحديث الذى
سرى فى المسلمين مسرى الأمثال السائرة: "لا رهبانية فى الإسلام" فقال ابن
حجر فى فتح البارى (٩: ٩٦): لم أره بهذا اللفظ ولكن ورد فى معناه هـ.
(٤) ستقف على تفصيل الاستحسان فى كلام الإمام المصنف المنقول عن
"الحجة" فيما بعد.

واعلم أن استحسان الأصوليين شئ آخر، فإنه عدول فى مسألة عن مثل ما
حكم به فى نظائرها إلى خلافه بوجه هو أقوى، قاله فى منهاج الأصول، وقال
السرخسى فى المبسوط (١٠: ١٤٥): القياس والاستحسان فى الحقيقة قياسان:
أحدهما: جلى، ضعيف أثره، فسمى قياساً، والآخر: خفى، قوى أثره، فسمى استحساناً
أى قياساً مستحسنًا، فالترجيح بالأثر لا بالخفاء والظهور الخ.

فاتباعهم الحقوها بالأصل زعما منهم أن اتفاق سلفهم على شئ من الحجج القاطعة؛ فلم يكن عندهم مستند في إنكار نبوة عيسى عليه السلام إلا أقوال سلفهم؛ وكذلك كان حالهم في كثير من الأحكام.

سبب التساهل وارتكاب المناهي:

وأما التساهل في تنفيذ أحكام التوراة، وارتكاب البخل والحرص، فظاهر أنه من مقتضيات النفس الأمارة، وهي تغلب الناس جميعاً إلا من شاء الله؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ، إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾^(١)

ولكن هذه الرذيلة^(٢) قد تلونت في أهل الكتاب بلون آخر؛ وهو أنهم كانوا يتكلفون تصحيحها بتأويل فاسد، وكانوا يُبرزونها في صبغة الدين^(٣)

(١) سورة يوسف ٥٣.

(٢) الرذيلة: ضد الفضيلة، والجمع رذائل.

(٣) قد تكلم الإمام المصنف على التحريف وأسبابه مبسوطاً، ولم أقدر على تلخيصه، ولا أردت تلخيصه، فإنه حسن كله، فأحببت أن آتية برُمته، إلا كلمات يسيرة فقد حذفها من موضع واحد فهذا نصه من كتابه العظيم: حجة الله البالغة (ص: ٢٥٩ إلى ص ٢٦٤ ج ١) وما بين القوسين زيادة مني.

باب إحكام الدين من التحريف: لا بد لصاحب السياسة الكبرى الذي يأتي من الله بدين ينسخ الأديان، من أن يُحكّم دينه من أن يتطرق إليه تحريف؛ لأنه يجمع أمماً كثيرة ذوى استعدادات شتى، وأغراض متفاوتة، فكثيراً ما يحملهم الهوى أو حُب الدين الذي — كانوا عليه سابقاً — أو الفهم الناقص — حيث عقلوا شيئاً وغابت مصالح كثيرة — أن يُهمّلوا مانصت الملة عليه، أو يدسّوا فيها (دسّ دَسًا: إذا أدخله في شئ بقهرو عنف) ما ليس منها، فيختل الدين، كما وقع في كثير من الأديان قبلنا.

ولما لم يُمكن الاستقصاء في معرفة مداخل الخلل، فإنها غير محصورة ولا متعينة — وما لا يدرك كله لا يترك كله — وجب أن ينذرهم من أسباب التحريف (⇒)

(==) إجمالاً، أشد الإنذار، وَيُخَصَّ مسائل قد عُلِمَ بالحَدَس أن التهاون والتحريف في مثلها أو بسببها داءٌ مستمر في بني آدم فَيَسُدُّ مدخل الفساد منها باتم وجه. ومن أسباب التحريف:

١- التهاون: وحقيقته أن يَخْلَفَ بعد الحوارين خَلْفَ أضعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، لايهتمون بإشاعة الدين تَعَلُّماً وتعليماً وعملاً، ولا يأمرّون بالمعروف، ولا يَنْهَوْنَ عن المنكر، فينْعَقِدُ عما قريب رِسْمٌ خلاف الدين، وتكون رغبة الطباع خلاف رغبة الشرائع، فيجئى خلف آخرون يزدون في التهاون، حتى يُنسى معظم العلم؛ والتهاون من سادة القوم وكُبرائهم أَضْرُبُهُمْ وأكثراً فساداً، وبهذا السبب ضاعت ملة نوح وإبراهيم — عليهما السلام — فلم يَكُذْ يُوجد منهم من يَعْرِفُها على وجهها.

ومبدأ التهاون أمور:

منها: عدم تحمل الرواية عن صاحب الملة، والعمل به، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: "أَلْيُوشَكُ" (يقرب) رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما جدتم فيه من حلال فأَحِلُّوه، وما جدتم فيه من حرام فحَرِّمُوهُ، وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله" وقوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لَا يَقْبِضُ العلمَ انتزاعاً، ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق (أى الله) عالماً اتخذ الناس رء وساً جهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم فضلُّوا وأضلُّوا"

ومنها: الأغراض الفاسدة الحاملة على التأويل الباطل، كطلب مرضاة الملوك في اتباعهم الهوى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ، وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾

ومنها: شيوع المنكرات، وترك علمائهم النهي عنها، وهو قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ، وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم: "لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماءهم، فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم، وآكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم (==)

(==) على لسان داود وعيسى بن مريم ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾
ومن أسباب التحريف:

٢- التعمق وحقيقته: أن يأمر الشارع بأمرٍ وينهى عن شيء، فيسمعه رجل من أمته، ويفهمه حسب ما يليق بذهنه، فيعدّي الحكم إلى ما يشاكل الشيء بحسب بعض الوجوه، أو بعض أجزاء العلة، أو إلى أجزاء الشيء ومظانه ودواعيه؛ وكلما اشبهت عليه الأمر لتعارض الروايات التزم الأشد، ويجعله واجبا، ويحمل كل ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم على العبادة، والحق: أنه فعل أشياء على العادة؛ فيظن أن الأمر والنهي شملا هذه الأمور — فيجهر بأن الله تعالى أمر بكذا ونهى عن كذا، كما أن الشارع لما شرع الصوم لقهر النفس، ومنع عن الجماع فيه، ظن قوم أن السحور خلاف المشروع، لأنه يناقض قهر النفس، وأنه يحرم على الصائم قبله امرأته، لأنها من دواعي الجماع، ولأنها تشاكل الجماع في قضاء الشهوة، فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فساد هذه المقالة وبيّن أنه تحريف.
ومنها:

٣- التشدد وحقيقته: اختيار عبادات شاقة لم يأمر بها الشارع، كدوام الصيام والقيام، والتبتل وترك الزوج، وأن يلتزم السنن والآداب كالتزام الواجبات، وهو حديث نهى النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمرو، وعثمان بن مظعون، عما قصدا من العبادات الشاقة، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: "لن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه" (أى: لا يتعمق أحد في الدين بترك الرفق، ويكلف نفسه من العبادة فوق طاقته إلا عجز عن عمله كله أو بعضه) فإذا صار هذا المتعمق أو المتشدد معلّم قومٍ ورئيسهم ظنوا أن هذا أمر الشرع ورضاه؛ وهذا داء رهبان اليهود والنصارى.

ومنها:

٤- الاستحسان وحقيقته: أن يرى رجل الشارع يضرب لكل حكمة مظنة مناسبة، ويراه يعقد التشريع، فيختلس بعض ما ذكرنا من أسرار التشريع، فيُشرع للناس حسب ما عقّل من المصلحة، كما أن اليهود رأوا أن الشارع إنما أمر (=)

(=) بالحدود زجرًا عن المعاصي للإصلاح، ورأوا أن الرجم يُورث اختلافًا وتَقَاتُلًا، بحيث يكون في ذلك أشد الفساد، فاستحسنوا تحميم الوجه والجَلْد، فبيّن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تحريف، ونبذ لحكم الله المنصوص في التوراة بآرائهم. عن ابن سيرين قال: "أَوَّلُ مَنْ قَاسَ إبليسُ، وما عُبِدَتِ الشمسُ والقمرُ إلا بالمقاييس" وعن الحسن أنه تلى هذه الآية: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَ مِنْ طِينٍ﴾ قال: قاس إبليس وهو أَوَّلُ مَنْ قَاسَ، وعن الشعبي: قال: والله لئن أخذتم بالمقاييس لَتَحَرَّمَنَّ الحلال وَلَتُحِلَّنَّ الحرام. وعن معاذ بن جبل: يُفْتَحُ الْقُرْآنُ عَلَى النَّاسِ، حَتَّى يَقْرَأَهُ الْمَرْأَةُ وَالصَّبِيُّ وَالرَّجُلُ، فيقول الرجل: قد قرأت القرآن فلم أَتَّبِعْ، والله لأَقُومَنَّ بِهِ فِيهِمْ، لَعَلَّى أَتَّبِعْ، فيقوم به فيهم فلا يُتَّبِعْ، فيقول! قد قرأت القرآن فلم أَتَّبِعْ وقد قمتُ به فيهم فلم اتبع لأُحْتَظِرَنَّ فِي بَيْتِي مَسْجِدًا لَعَلَّى أَتَّبِعْ، فيحتظر في بيته مسجدًا فلا يُتَّبِعْ، فيقول: قد قرأت القرآن فلم أَتَّبِعْ، وقمت به فيهم فلم أَتَّبِعْ، وقد احتظرت في بيتي مسجدًا فلم أَتَّبِعْ، والله لآتينهم بحديث لا يجدونه في كتاب الله ولم يسمعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لَعَلَّى أَتَّبِعْ، قال معاذ: فإياكم وما جاء به، فإنما جاء به ضلالة. وعن عمر رضى الله عنه، قال: يَهْدِمُ الْإِسْلَامَ زَلَّةُ الْعَالَمِ، وَجِدَالُ الْمَنَافِقِ بِالْكِتَابِ، وَحُكْمُ الْأُئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ، وَالْمَرَادُ بِهَذَا كُلِّهِ مَا لَيْسَ اسْتِنْبَاطًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ.

ومنها:

٥- اتباع الإجماع، وحققيقته: أن يتفق قوم من حملة الملة الذين اعتقد العامة فيهم الإصابة غالباً أو دائماً على شئ فيظن أن ذلك دليل قاطع على ثبوت الحكم، و(يكون) ذلك (الاتفاق) فيما ليس له أصل من الكتاب والسنة وهذا غير الإجماع الذى أجمعت الأمة (الإسلامية) عليه (أى على حجيته فجعلوه دليلاً ثالثاً من أدلة الفقه) فإنهم اتفقوا على القول بالإجماع الذى مستنده الكتاب والسنة أو الاستنباط من أحدهما، ولم يُجوزوا القول بالإجماع الذى ليس مستنداً إلى أحدهما وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاؤُنَا﴾ الآية؛ وما تمسكت اليهود فى نفى نبوة عيسى (=)

.....

(=) ومحمد — عليهما الصلاة والسلام — إلا بأن أسلافهم فحصوا عن حالهما، فلم يجدوهما على شرائط الأنبياء؛ والنصارى لهم شرائع كثيرة، مخالفة للتوراة والإنجيل، ليس لهم فيها متمسك إلا إجماع سلفهم.

ومنها:

٦- تقليد غير المعصوم: أعنى غير النبي الذى ثبتت عصمته، وحقيقته: أن يجتهد واحد من علماء الأمة فى مسألة، فيظن متبعوه أنه على الإصابة قطعاً أو غالباً، فيردوا به حديثاً صحيحاً؛ وهذا التقليد غير ما اتَّفَقَ عليه الأمة المرحومة، فإنهم اتفقوا على جواز التقليد للمجتهدين، مع العلم بأن المجتهد يخطئ ويصيب، ومع الاستشراف لنص النبي صلى الله عليه وسلم فى المسئلة، والعزم على أنه إذا ظهر حديث صحيح خلاف ما قلده فيه، ترك التقليد، واتبع الحديث، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى: ﴿إِتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرّموه.

ومنها:

٧- خلط ملة بملة، حتى لا يميز واحدة من الأخرى؛ وذلك أن يكون إنسان فى دين من الأديان، تعلق بقلبه علوم تلك الطبقة، ثم يدخل فى الملة الإسلامية، فيبقى مَيَّلَ قلبه إلى ما تعلق به من قبل، فيطلب لأجله وجهاً فى هذه الملة، ولو ضعيفاً أو موضوعاً، وربما جوّز الوضع، ورواية الموضوع لذلك، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: "لم يزل أمر بنى إسرائيل معتدلاً، حتى نشأ فيهم المولودون، وأبناء سبايا الأمم، فقالوا بالرأى فضّلوا وأضلّوا"

ومما دخل فى ديننا علوم بنى إسرائيل، وتذكير خطباء الجاهلية، وحكمة اليونانيين، ودعوة البابليين، وتاريخ الفارسيين، والنجوم، والرمل، والكلام، وهو سرُّ غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قرئ بين يديه نسخة من التوراة، وضرب عمر رضى الله عنه من كان يطلب كتب دانيال. والله أعلم.

أسباب استبعاد رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:

وأما استبعاد رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فأسبابه:

١- اختلاف عادات الأنبياء وأحوالهم في إكثار التزوج والإقلال منه، وما أشبه ذلك.

٢- واختلاف شرائعهم.

٣- واختلاف سنة الله تعالى في معاملة الأنبياء.

٤- وبعثة النبي صلى الله عليه وسلم من بنى إسماعيل، بعد ما كان جمهور الأنبياء من بنى إسرائيل.

٥- وأمثال هذه الأسباب^(١).

النبوة ومنهجها في إصلاح الناس:

والأصل في هذه المسئلة:^(٢) أن النبوة كائنة لإصلاح نفوس الناس، وتهذيب عباداتهم وتعديل عاداتهم، لا لإنشاء أصول البر والإثم؛ ولكل قوم عادات في العبادات، وتدير المنزل، والسياسة المدنيّة، فإذا ظهرت فيهم النبوة فلا تستأصل هذه العادات بالمرّة، ولا تضع لهم عادات جديدة، بل تميّز فيما بين العادات، فما كان منها صالحاً مطابقاً لرضى الله تعالى تبقّيه وتحفظه، وما كان منها مخالفاً للأصل، منافياً لرضى الله تعالى تُغيّره حسب الضرورة وتعذّله.

وكذلك يكون التذكير بآلاء الله، وبأيام الله على الأسلوب الذي هو معروف عندهم، وشائع لديهم؛ فهذا هو السبب في اختلاف شرائع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

(١) كنزول القرآن نجماً نجماً، فقالوا: لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة؟ (ر: الفرقان ٣٢) وكظهور ملة الإسلام في صورة غلبة الملوك؛ وما إلى ذلك من الوسوس.

(٢) يعنى اختلاف شرائع الأنبياء؛ فوجه الاختلاف فيها: أن النبوة الخ.

اختلاف الشرائع كاختلاف وَصَفَاتِ الطبيب

وهذا الاختلاف فى الشرائع كالاختلاف فى وصفات^(١) الطبيب : فإنه إذا دَبَّرَ أمر المريض يصف لأحدهما دواءً وغذاءً باردًا ، ويأمر الآخر بدواءٍ وغذاءٍ حارٍ، وغرض الطبيب من معالجتهم واحد، وهو إصلاح مزاجهما، وإزالة المواد الفاسدة منهما، لا غير؛ ويمكن أن يصف الطبيب فى كل منطقة أدوية وأغذية مختلفة، تلائم أهلها، وكذلك يختار فى كل فصل من الفصول علاجًا مختلفًا يناسب ذلك الفصل^(٢).

كذلك لما أراد الطبيب الحقيقى — جلَّ مجده — معالجةً من ابتلى بالمرض النفسانى، وتقوية القوة الملكية، وإزالة الفساد الطارئ عليهم، اختلفت المعالجة بحسب اختلاف أقوام كل عصر وعاداتهم، ومشهوراتهم، ومسلمااتهم .

أنموذج اليهود

وعلى كلِّ، فإن أردت أن ترى أنموذج^(٣) اليهود، فانظر إلى علماء السوء الذين يطلبون الدنيا، ويولعون بتقليد السلف ، ويُعرضون من نصوص الكتاب والسنة، ويستندون إلى تعمقِ عالمٍ وتشدُّده، أو إلى استحسانه، فأعرضوا عن كلام الشارع المعصوم، وجعلوا الأحاديث الموضوعة، والتأويلات الفاسدة قدوةً، فانظر كأنهم هم!

(١) وَصَفَ الطبيبُ الدواءَ: عَيَّنَه باسمه ومقداره؛ والوصفة: ما يكتبه الطبيب للمريض من الأدوية.

(٢) الفصل: زمن من أزمن السنة؛ وهى: الربيع والخريف، والصيف والشتاء.

(٣) الأنموذج والنموذج: مثال الشيء؛ أصلهما كلمة فارسية؛ وهى نمونه.

ذكر النصارى^(١)

عقيدة التثليث والرد عليها

أما النصارى: فكانوا مؤمنين بسيدنا عيسى عليه السلام، وكان ضلالهم:

(١) النصارى: هم أتباع عيسى ابن مريم المسيح، عليه الصلاة والسلام، المعتقدون للديانة المسيحية، مفردها: نصراني، نسبة إلى (الناصرة) على غير قياس.

والنصرانية: في بداية أمرها دينٌ توحيد، يدعو إلى الزهد في الدنيا والتطلع إلى الآخرة. وكانت رسالة المسيح خاصة لقومه اليهود، فإنه عليه السلام جاء ليهدى خراف (جمع الخروف: الحمل) بيت إسرائيل الضالة، وليس للعالم جميعاً، بدليل قوله في الآية الخامسة والسادسة من الباب العاشر في إنجيل متى: (إلى طريق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة الساميين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة) وفي متى أيضاً في الباب الخامس عشر في الآية الرابعة والعشرين: (لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة)

ثم قام بولس الرسول (واسمه الأول شاول) فدعا غير اليهود للدخول فيه وابتدع فكرة التثليث، فأخذها منه الدعاة لهذا الدين، فخرج هذا الدين عن التوحيد إلى التثليث، فجعلوا شخصية المسيح شخصية ممتازة: إلهاً أو ابن إله.

فحقاً أن نقول: إن الدين الذي يتبعه المسيحيون الآن هو دين بولس، لا دين المسيح. وهذا الدعوى يحتاج إلى البراهين والشواهد. فمن شاء فليرجع إلى "إظهار الحق" (١٦٣: ٢) للبحاثة الشيخ رحمة الله الهندي عليه رحمة الله. فإنه أجمع وأغزر مادة للمسائل المختلفة بين المسلمين وأهل الكتاب، وإلى معجم القرآن لعبد الرؤف المصرى (٢٠٩: ٢) وإلى مقدمة الشيخ محمد تقى العثمانى على ترجمة إظهار الحق بالأردية التى أسماها به "قرآن سے بائبل تک"

وقد تقدم ذكر الأناجيل الأربعة فى فاتحة ذكر اليهود، ثم اعلم أنه قد ظهرت أناجيل كثيرة، اتفقت الطوائف المسيحية على أربعة منها، وأهملت إنجيل برنابا، لأنه يبشر بمحمد صلى الله عليه وسلم، على أن بين إنجيل برنابا والأناجيل (==)

(=) الأربعة تقاربًا كبيرًا في أكثر الأمور، فإنجيل برنابا يعتمد في حوادثه على أسفار العهد القديم وهو يستشهد باثنين وعشرين سفرًا، في مقدمتها أسفار موسى وأشعيا والزبور، ثم هو مطابق للأناجيل الأربعة في أكثر المواضع بالرواية والمعنى تارة، وبالنص والحرف تارة أخرى، وهذا الإنجيل كان في مكتبة البابا (سكوتس الخامس) في القرن السادس عشر. وقد حمله الراهب (فرامرينو) من مكتبته، وترجم إلى الإنكليزية، ومؤخرًا إلى العربية، وحفظت نسخة البابا الإيطالية في مكتبة بلاط فينا إلى ما قبل الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ م.

فالأناجيل المعتمدة عندهم أربعة، وهم يرتبونها هكذا: مرقس (Mark)، متى (Mathew)، لوقا (Luke) يوحنا (Jhon) وهي لاتخرج عن تاريخ السيد المسيح وإليك نبذة عنها:

١- إنجيل مرقس: كتب بعد (٧٠) سنة من خروج السيد المسيح؛ وجمع هذا الإنجيل من الرواة الذين عاصروه، أو عاصروا أتباعه، ومادته قليلة، يبدأ بقصة يوحنا المعمدان، ثم عن تجولات السيد المسيح وأيامه الأخيرة.

٢- إنجيل متى: كتب في أواخر القرن الأول، مادته تزيد عن مادة إنجيل مرقس، يأتي بأقوال المسيح منسقة بالأسلوب الأدبي لذلك العصر، وهو يعدّ قطعة فنية، ثم يتكلم عن نسب المسيح وأيامه الأخيرة.

٣- إنجيل لوقا: كتب في أوائل القرن الثاني، وثلاث مادته جديدة، لا يوجد مثله في الأناجيل الأخرى، غير مرقس فإنه قد استعان به.

٤- إنجيل يوحنا: وهو يعد بذرة الفلسفة المسيحية، ومادته تخالف بعض ما جاء في الأناجيل الأخرى، كتب قسم منه في ثلث القرن الثاني، ولكنه لم تتم كتابة أجزائه الأخرى إلا في فترات متأخرة من القرن الثاني.

وترجمت الأناجيل إلى جميع لغات العالم المقروءة (معجم القرآن ١: ٨٩) وقال صاحب "المنجد في العلوم والفنون": الإنجيل: كلمة يونانية معناها: البشرى، والأناجيل: مجموعة أعمال المسيح وأقواله، وصلت إلينا بأربع روايات، وضعها: متى ويوحنا — وهما من الرسل — ولوقا ومرقس — (=)

.....
.....
.....
.....
.....
.....
(=) وهما من تلاميذ المسيح — وسميت بالإنجيل لأنها أتت للأنام ببشرى الخلاص عن يد المسيح الفادى اه.

وقال: متى: من تلامذة المسيح الاثنى عشر، كان عَشْرًا (: من يأخذ على السِّلْع مَكْسًا) فى "كفر نحوم" استشهد دون أن نعرف يقينا أين ومتى كان ذلك؟ له أنجيل متى كتبه لمسيحي فلسطين، اليهودى الأصل.

ويوحنا الحبيب ابن زبدى وسلمو و أخو يعقوب الكبير، أحد تلاميذ المسيح الاثنى عشر، وأحد الإنجيليين الأربعة. عانى الاضطهادات والعذاب، ومات فى شيخوخة صالحة، له إنجيل يوحنا وسفر الرؤيا، كتبهما فى أواخر القرن الأول. لوقا: قديس ورفيق بولس الرسول فى أسفاره، من المرجح أنه كان طبيباً، توفى نحو ٧٠ كتب إنجيل لوقا وسفر أعمال الرسل.

مرقس: القديس الإنجيلي، من تلامذة بطرس، وينسبون إليه تأسيس كنيسة الإسكندرية، مات شهيداً (٦٨؟) له إنجيل مرقس، وهو إحدى البشارات الأربع (= كلمة إنجيل ومتى ويوحنا ولوقا ومرقس).

وقال عبد الرؤف المصرى فى معجم القرآن (١: ٩٠) سأل جلال الدين المبشر الأحمدي فى الديار العربية القس الفريد نلسن الدانمركى المبشر فى دمشق سنة ١٩٢٧ عدة أسئلة منها:

السؤال الثانى: هل يمكنك أن تثبت بالأدلة التاريخية كون متى ومرقس ولوقا ويوحنا من تلامذة المسيح، وأنهم دونوا هذه الكتب الأربعة، المتدواله بين أيديكم؟

جواب القس: نفس الأناجيل تخبر بكون متى ويوحنا من رسل المسيح، ولا يوجد شئ عند القدماء يخالف ذلك، وأما مرقس فيذكر فى الشهادات القديمة أنه كرفيق بطرس الرسول، وأن لوقا كرفيق بولس، والشهادات القديمة تثبت أيضاً أن مرقس دوّن الإنجيل الثانى، ولوقا الإنجيل الثالث، لكنه يوجد بحث من جهة تأليف متى الإنجيل الأول، لكن أهمية البحث هى عن الإنجيل الرابع فإنه كان هو يوحنا رسول المسيح أم غيره؟ وأنكر كثيرون من العلماء فى القرن الماضى نسب (=)

أنهم يزعمون أن لله تبارك وتعالى ثلاثة أجزاء متغايرة بوجه، ومتحدة بآخر،
وكانوا يسمونها "الأقانيم" (١) "الثلاثة":

(=) هذا الإنجيل إلى يوحنا الرسول، لكنه يظهر من الأبحاث الحديثة أن بعض
العلماء مائلون إلى الفكر القديم: أن مؤلفه هو يوحنا الرسول (انتهى)
ومنها السؤال الرابع: هل زاد مؤلفوها أو المتأخرون فيها بعض الجمل من
عند أنفسهم أم لا؟

الجواب: كما قيل آنفا نعتقد أن المؤلفين مازادوا شيئاً على ما عرفوا من
الأخبار (راجع إنجيل لوقا، الإصحاح الأول ع ١-٤) أما من جهة المتأخرين فيجوز
أنهم زادوا في إنجيل مرقس ع ٩-٢٠ من الفصل الأخير و ع ١-١١ من الإصحاح
الثامن من إنجيل يوحنا، إذ أن القطعتين المذكورتين ليستا موجودتين في أقدم
النسخ. (انتهى الجواب، وانتهيت من النقل عنهما)

وأقول لك: أيها القارى! عليك أن ترجع إلى دائرة المعارف البريطانية في
الجزء السابع عشر صفحة ٨٩٨ فهي تدلك على تحريف واسع في الأناجيل،
وعما لا يوجد في أقدم النسخ، وراجع ديباجة هارون في الجزء الثاني ص ٣٢٢
وكذلك يقول العلامة ج - ر - د دميلوا المسيحي اللاهوتي في تفسيره المشهور،
ثم يعترف القس نفسه في رسالته الثانية سنة ١٩٢٧ بأن النسخ القديمة للأناجيل
الأربعة الموجودة اليوم، والتي تاريخها القرن الرابع بعد المسيح كانت قد
ضاعت، وبقيت مدة طويلة غير معروفة حتى لعبت بها أيدي الناس، ثم إنه يوجد
اختلاف في تعيين شخصيات مؤلفي الأناجيل، فلهذا لا يمكننا أن نبتّ الرأي فيهم
أنهم من الحواريين أو من رواتهم أو أن اللاعبين بها من القصاصين أو الدسائين.
على أن إنجيل متى ٢٧-٣٥ لا يوجد في أقدم النسخ، كما أن أصلية كثير من
الكلمات لأصل لها مثل: (أصعد إلى السماء)

وخلاصة القول: في هذه الأناجيل: أنها كتب تاريخية مضطربة المصادر،

منها ما هو كذب، ومنها ما هو متناقض. (انتهى عبارة معجم القرآن)

(١) الأقانيم جمع الأقنوم، وهى كلمة سريانية، معناها: الشخص (Person) والأصل.

(١) قارن الإمام المصنف رحمه الله مصطلحات النصارى بمصطلحات الفلاسفة؛ والفلاسفة يعنون بمبدأ العالم ذات الواجب تعالى، وبالصادر الأول العقل الأول، وبالعقول المجردة العقول العشرة. والعقل عندهم: جوهر مستغن في أفعاله عن الآلات الجسمانية، متوسط بين الواجب ومصنوعاته في إفاضة الوجود. واستدلوا عليه بوجوه:

أشهرها: أن الصادر الأول عن الواجب ليس بجسم، لأن الجسم مركب، ولا يصدر عن الواحد الحقيقي إلا الواحد، ولا عرضاً لأنه لا يقوم بلامحل، فالصادر جوهر مجرد سمي بالعقل الأول، وهو وإن كان من حيث ذاته واحداً، لا يصدر عنه إلا الواحد، لكن فيه ثلاث جهات: وجوده في نفسه، ووجوده بالواجب، وإمكانه الذاتى؛ فيصدر عنه ثلاثة أشياء؛ العقل الثانى — باعتبار وجوده — والفلك الأعظم وهو الفلك الأول — باعتبار إمكانه — والنفس المدبرة لهذا الفلك — باعتبار وجوبه — ثم يصدر عن العقل الثانى بالجهات الثلاث: العقل الثالث، وفلك الثوابت، والنفس المدبرة له، وهكذا إلى العقل العاشر، المدبر لعالم العناصر، وما يتركب منها، على حسب استعداد المواد، ولهم في كيفية الصدور وعدد جهات العقول أقوال أخرى، ليس هذا محل بسطها (من النبراس لشرح شرح العقائد النسفية للعلامة محمد عبد العزيز البرهياروى ص ١٤٣ بتوضيح) فالإمام ولى الله رحمه الله شَبَّهَ الثالث (ما رُكِّب من ثلاثة) المسيحى بثالوث الفلاسفة، لينكشف لك الحال، واختار للتشبيه ثالوث الفلاسفة لأن عصره كان عصر الفلسفة والمنطق.

ثم اعلم أن أصل عقيدة التثليث: هى ديانة قديمة جداً، جاءت بها الديانات المصرية والهندية والبابلية، وقد تكلمت عن شخصيات مثل شخصية المسيح وأبيه وأمه، التى جاءت بها الديانة المسيحية مؤخراً بعد أن قامت بفكرة التوحيد كما قدمنا. فالتثليث عند قدماء المصريين: هو الأب أوزيرس (Osiris) والابن هورس (Horus)، والعذراء إيزيس (Isis) زوجة أوزيرس.

والتثليث الهندية: فإن الثالوث الأول هو أجنى (النار) ووَايُو (الهواء) وسُورَى (الشمس) وقد نزع منهم السلطة ثالوث ثان، هو: برهما ووشنو (Vishnu) (=)

(==) وشيوا (Shiva) أما الإله شيوا فهو إله الحياة والتبديل، وأما وشنوفهو الحافظ، وأما برهما فهو البارئ الخالق، وهو أعلاها.

وقال الشيخ عبد المنعم النمر (تاريخ الإسلام فى الهند ص ٤٢): والفكرة التى تقوم عليها عبادة الهندوس — كما حدثنى غير واحد منهم — أن الله واحد، ولكنه حل فى شيفا وفشنو الخ وقال لى كاهن: إننا لانستطيع تصور المجرد، ولذلك رمزنا للإله بهذه الرموز التى سميناها آلهة، حتى يمكن تصويره والتوجه له. وقال لى بعضهم: إن فكرتنا قريبة من فكرة المسيحيين عن حلول روح الإله فى عيسى. وكل فرقة منهم اعتقدت فى حلول الآلهة فى واحد، فعبدوه؛ وهذا تفسير المثقفين لا العوام اهـ.

هنا تذكر ما قلنا لك أن بولس هو الذى ابتدع فكرة التثليث، لما فتح باب الديانة المسيحية لغير اليهود أى للعالم جميعا، لأنه رأى تلك الفكرة أقرب الطرق لوصوله إلى بغيته، فإن الديانات الأخر يتلقونها برغبة.

والتثليث البابلية: فكانوا يعتقدون في ثلاثة آلهة عظيمة، وهى: أنو (Anu) رب السماء، وبعل (Baal) أو مردوخ (Merduke) خالق الأرض والإنسان، وهيا (Ea) رب الماء وتحت الأرض؛ وهذه الآلهة الثلاثة تكوّن الثالوث الأول، فى حين كان الثالوث الثانى مركبا من سين (Sin) والشمس وريمان (Rimman) إله الرعد والبرق، وكان لكل واحد من هذه الآلهة (أنو وبعل وهيا) إلهة تزوج بها لتعاونه فى إيجاد الخلق، فزوجة أنو هى أنتو (Antu) وتزوج بعل ببعليتو (Balitu) وهيا تزوج دومنيكا (Domnika).

وبالجملة: فهذه أربعة تثليثات قديمة: ثليث الفلاسفة والمصريين والهنود والبابليين، كانت مسيطرة على العالم جميعا، فاخترع البولس تثليثا خامسا ليسهل له طريق إشاعة الدين المسيحي إلى العالم بأسره.

أو نقول: إنه حرّف دين المسيحية: دين التوحيد، لأنه يمكن أن يكون في دين من الأديان تعلق بقلبه تثليث تلك الطبقة، ثم دخل في الملة المسيحية فبقى ميل قلبه إلى ما تعلّق به من قبل، فطلب لأجله وجهًا في الملة المسيحية أيضًا. وراجع ما قدمنا من الكلام على التحريف وأسبابه (وراجعتُ لهذا التعليق (==

والثانى: الابن؛ وهو بيازاء الصادر الأول الذى هو معنى عام شامل لجميع
الموجودات^(١)

(==) معجم القرآن ١: ١٥٥، ١١٢ وتاريخ الإسلام فى الهند ص ٤٢-٤٨ والمنجد
فى الأدب والفنون من مواضع شتى)

(١) الفلاسفة يعنون بالصادر الأول العقل الأول، وصاحبنا الإمام المصنف له وجهة
أخرى فى هذه المسئلة فذكرها، ورد على الفلاسفة مذهبهم؛ وتكلم الإمام على
هذه المسئلة مبسوطا فى التفهيمات الإلهية (٢: ٢٨-٣١) وفى الخير الكثير (ص
٢٠-٢٤) فقال:

القضية الفلسفية بأن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد، صادق؛ والصادر الأول
من الحقيقة الواجبية اسم من أسماء الله سبحانه، وليس بعقل كما يزعمه الفلاسفة.
والاسم: ما كان عنوانا للشيء، وصادقا عليه، ولا يمتاز عنه إلا بأن الشيء
من حيث هو ذلك، ليس هو هذا الاسم، بل من حيث أخذ معه خصوصية شارحة
لماهية الشيء؛ كالزوج للأربعة؛ أو خصوصية زائدة أجنبية ليست من اقتضاء
الماهية، كالكتاب للإنسان؛ هذه ماهية "الاسم" على سبيل العموم.

وأما هذا الصادر فلا جرم أنه من القليل الأول — أعنى لازم الماهية — لأن
ماهيته عين وجوده، فلا يتصور هناك ما يكون لازم الوجود من غير اقتضاء الماهية؛
والعقل جوهر متغاير ليس بعنوان للواجب، ولا صادق عليه (فكيف يكون هو
الصادر الأول؟)

ولنا فى إثبات هذا المطلب وجوه (فذكر وجوها ثلاثة فقال):

والثالث: أيضا يحتاج إلى تمهيد مقدمة؛ هى: أن الإبداع ليس شاكلته
شاكلة البناء ولا جعل المركب، الذى أثره الهيئة الخلطية، بل الحق أنه جعل
بسيط، أثره الشيء بنفسه — هذا هو النظر الجلى.

والنظر الدقيق يحكم بأن الصادر الأول تمثال ما للمصدر، وأن ليس
الانبجاس إلا بظهور جهة المصدر فى خصوصيات لا تعد ولا تحصى، والصادر الأول
جامع لشتات الصادات أجمعها؛ لأنه لو صدر أمر خاص لما صدر غيره، إذ
الواحد لا يصدر عنه إلا واحد.

(==)

والثالث: روح القدس ؛ وهو بإزاء العقول المجردة.

وكانوا يعتقدون أن أقنوم "الابن" تدرع^(١) بروح عيسى عليه السلام، أي كما أن جبرئيل عليه السلام قد يظهر في صورة الإنسان، كذلك ظهر الابن في صورة روح عيسى عليه السلام ؛ فعيسى إله وابنُ إله وبشر أيضًا في وقت (==) وإنما أعنى بالخصوصية الهيئة الفارقة بين الجهة والصادر منها؛ وقد قضت الضرورة الفطرية بأن الشيء الجامع للمظاهر لا يتلون بلون مظهرها، وإلا لما كان جامعاً.

وإذا تمهدت المقدمة، فنقول: الصادر الأول تمثال لجهة الواجب — جل مجده — كله ب كله، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولا يمتاز عنه إلا بالخصوصية الشارحة، فلا جرم أنه اسم أعظم من أسماء الله سبحانه اه (التفهيمات الإلهية)

وقد تكلم الإمام النانوتوى — رحمه الله تعالى — في كتابه "قبله نما" (ص ١٩١ وفيما بعده) على هذه المسئلة مبسوطاً وفذلكة القول:

أن الكمالات الذاتية الواجبية — بأسرها — مجتمعة في التجلى الأول، ثم صدرت منه الكمالات إلى العالم، كالشمس اجتمعت فيها الأنوار من جانب الله تعالى، ثم خرجت منها إلى العالم.

وهذا التجلى تجلى أولى معبود، والصادر منه صادر أول، وهو الوجود المنبسط المجرد لأن سلسلة المفاهيم قد انتهت على الوجود فليس فوقه مفهوم، وهو مجمع الكمالات أيضًا؛ فعلم من هذا أن "الوجود" هو الصادر الأول من التجلى الأول، ثم وجد العالم بحذافيره من هذا الوجود المنبسط المجرد فكان الكائنات بأسرها قطعات متفرقة، وحصص متميزة لهذا الوجود، فالصادر الأول معنى عام شامل لجميع الموجودات.

وتفصيل الكلام طويل، يحتاج إلى بحث دقيق، وفي القدر المذكور كفاية

للطالب البصير.

(١) تدرع أى تَقْمَص .

واحد؛ وتجري عليه الأحكام البشرية والإلهية معاً^(١).

(١) ذهب جمهور النصارى إلى ما ذكره الإمام من مذهبهم، راجع دائرة المعارف لبريتانيكا ج ٢٢ ص ٤٧٩ وفي "نويد جاويد" (ص ٣٥٦): أن فرقة منهم تزعم أن الأقانيم الثلاثة: الأب والابن ومريم العذراء.

ثم اعلم أن المنازعة بيننا وبين أهل التثليث لا تتحقق ما لم يقولوا: إن التثليث والتوحيد كليهما حقيقيان، وإن قالوا: التثليث حقيقى والتوحيد اعتبارى، فلا نزاع بيننا وبينهم؛ لكنهم يقولون: إن كلامهما حقيقى، كما هو مصرح به فى كتب علماء بروتستانت (Protestant) قال صاحب ميزان الحق (القسيس فندر) فى الباب الأول من كتابه المسمى بحل الإشكال هكذا: (إن المسيحيين يحملون التوحيد والتثليث كليهما على المعنى الحقيقى)

ثم اختلفوا فى بيان علاقة الاتحاد بين أقنوم الابن وجسم المسيح اختلافاً شديداً، حتى إذارأى علماء بروتستانت أن بيان علاقة الاتحاد لا يخلو عن الفساد البين، تركوا آراء الأسلاف وعجزوا أنفسهم، واختاروا السكوت عن بيانها، وعن بيان العلاقة بين الأقانيم الثلاثة.

قال المَلَكَّانِيَّة واليعقوبية والنسطورية: إن الابن اتحد بإنسان مخلوق، فصار هو وما اتحد به مسيحاً واحداً، وأن المسيح هو إله العباد وربهم ثم اختلفوا فى صفة الاتحاد، بينه العلامة المقريزى فى كتابه المسمى بالخطط فى بيان الفرق المسيحية التى كانت فى عصره، وحكاها العلامة رحمة الله فى إظهار الحق ٢٨: ١ فراجع، فإن الظروف لا تسمح لنا بنقل الخرافات؛ وكذا اختلفت آراء النصارى فى حكم كل أقنوم، فقالت طائفة: كل أقنوم إله بذاته كما أن المجموع إله، وقالت أخرى: كل أقنوم إله ولكن المجموع أقل رتبة من الإله، وإطلاق كلمة الإله على المجموع على سبيل التجوز، وقالت الثالثة — وهى المرقولية — : أن المجموع إله والأفراد ليس بإله، (الخطط المقريزية ٤٠٨: ٣ طبع لبنان سنة ١٩٥٩ م)

وبالجملة: فهذه العقيدة مما يتخبط فيها الجهلاء خبط العشواء، ويتحير علماءهم ويعترفون بأننا نعتقد ولانفهم، ويعجزون عن تصويرها وبيانها، وحكى أن رجلاً ذكياً تنصّر، فعلمه بعض القسيسين العقائد الضرورية سيما عقيدة التثليث أيضاً ثم طلبه بعد مدة وسأله عن التثليث فقال: يا مولاي! حفظت ما (==)

وكانوا يتمسكون في إثبات هذه العقيدة ببعض نصوص الإنجيل التي أطلق فيها لفظ "الابن" على عيسى عليه السلام^(١)، وكذلك يستدلون بالآيات (==) علمتني جيدًا، وفهمت فهما كاملا بفضل الرب المسيح: أن الواحد ثلاثة، والثلاثة واحد، وصُلب واحد منهم ومات، فمات الكل لأجل الاتحاد ولا إله الآن، وإلا يلزم نفى الاتحاد! (إظهار الحق ١: ٢٨٧ بتصرف)

(١) الأقوال التي يتمسك بها المسيحيون غالبًا مجملة منقولة عن إنجيل يوحنا، وهي على ثلاثة أقسام: بعضها لاتدل بحسب معانيها الحقيقية على مقصودهم، فاستنباط الألوهية منها مجرد زعمهم، وبعضها أقوال يفهم تفسيرها من الأقوال المسيحية الأخرى، أو من بعض مواضع الإنجيل، ففيها أيضًا لاعتبار لرايهم. وبعضها أقوال يجب تأويلها عندهم أيضًا، فإذا وجب التأويل فليكن ذلك بحيث لا يخالف البراهين والنصوص؛ فلا حاجة إلى نقل الكل، ولنكتف بالأنموذج لنقيس الباقي عليه:

(الف) يتمسكون على ألوهيته عليه السلام من إطلاق الله تعالى لفظ "ابن الله" عليه، ومن إطلاقه عليه السلام على الله تعالى لفظ "الأب" راجع إنجيل مرقس ١٣: ٣٢ وإنجيل لوقا ٢٣: ٤٦ والمواضع الكثيرة من إنجيل يوحنا؛ وسيجيء الجواب عن هذا في الكتاب.

(ب) أنه عليه السلام نفى كونه من هذا العالم، اقرأ إنجيل يوحنا ٨: ٢٣ ففيه: (فقال لهم: أنتم من أسفل؛ أما أنا فمن فوق، أنتم من هذا العالم، أما أنا فلست من هذا العالم) يعنى أنى "إله" نزلت من السماء وتَجَسَّمَتْ.

قلنا: إنه عليه السلام قال مثل هذا القول في حق تلاميذه أيضًا، ففي إنجيل يوحنا ١٥: ١٩ هكذا: (لو كنتم من العالم لكان العالم يحب خاصته، ولكنكم لستم من العالم، بل أنا اخترتكم من العالم، لذلك يبغضكم العالم) وفي ١٧: ١٤ و ١٦ مثل ذلك؛ فلو كان هذا مستلزما للألوهية — كما زعموا — لزم أن يكونوا كلهم آلهة، والعياذ بالله! بل التأويل الصحيح: أنتم طالب الدنيا الدنيئة وأنا لست كذلك، بل أنا طالب الآخرة ورضاء الله؛ وهذا المجاز شائع في الألسنة يقال: للزهاد والصلحاء: أنهم ليسوا من الدنيا.

(ج) في إنجيل يوحنا ١٠: ٣٠ هكذا: (أنا والأب واحد) فهذا يدل على (==)

(ب) اتحاد المسيح بالله.

قلنا: وقع مثل هذا في حق الحواريين أيضًا، ففي إنجيل يوحنا ١٧: ٢١ - ٢٣ هكذا: (ليكون الجميع واحداً، كما أنك أنت أيها الأب في وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا، ليؤمن العالم أنك أرسلتني وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد، أنا فيهم وأنت في، ليكونوا مكملين إلى واحد) فقله: "ليكون الجميع واحداً" وقله: "ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد" وقله: "ليكونوا مكملين إلى واحد" يدل على اتحادهم، وسوى في القول الثاني بين اتحاده بالله وبين اتحاده فيما بينهم، وظاهر أن اتحادهم فيما بينهم ليس حقيقة، فكذا اتحاده بالله؛ بل الحق: أن الاتحاد بالله عبارة عن إطاعة أحكامه والعمل بالأعمال الصالحة. (د) وقد يتمسكون على ألوهيته ببعض حالاته، فيستدلون تارة: أنه ولد بلا أب.

قلنا: فآدم عليه السلام يفوق عليه بكثير، لأنه ولد بلا أب وأم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ (سورة آل عمران ٥٩) (هـ) وتارة يستدلون بمعجزاته كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، بأن ذلك لا يمكن حصوله إلا بقدرة الإله تعالى.

قلنا: من أعظم معجزاته إحياء الموتى، فعيسى عليه السلام بحسب هذا الإنجيل ما أحيى إلى زمان الصلب إلا ثلاثة أشخاص: ابنة الرئيس (كما في الأناجيل الثلاثة الأولى) والميت (نقله لوقا فقط في الباب السابع) والعاذار (نقله يوحنا فقط في الباب الحادي عشر من إنجيله) وفي الباب السادس والعشرين من كتاب الأعمال: وأحيى حزقيال ألوفاً كما في كتابه في الباب السابع والثلاثين، وأحيى إيليا عليه السلام أيضاً ميتاً (سفر الملوك الأول في الباب ١٧) وأحيى المسيح عليه السلام أيضاً ميتاً (سفر الملوك الثاني في الباب ٤) فهؤلاء كلهم يجب أن يكونوا آلهة، بل حزقيال أحق وأولى بأن يكون إلهاً. (و) إنه عليه السلام قد نسب إلى نفسه بعض الأفعال الإلهية كما يأتي في

التعليق الآتي (ملتقى من إظهار الحق)

التي تُسبب فيها عيسى عليه السلام بعض أفعال الله تعالى إلى نفسه .

وجواب الإشكال الأول : على تقدير صحة نصوص الإنجيل، وأنه ليس فيها تحريف^(٣) : أن لفظ "الابن" في العهد القديم، كان مستعملاً بمعنى

(١) كما في الأصحاح (أى الباب) فإن الأصحاح — بفتح أوله وبكسره — من التوراة والإنجيل : دون السفر وفوق الفصل منهما) الثامن من إنجيل متى : (ولما نزل من الجبل اتبعه جموع كثيرة، وإذا بأبرص قد جاء، وسجد له قائلاً : يا رب إن شئت فأنت قادر على تطهيرى فمد يسوع يده ولمسه، وقال : "قد شئت فأطهره" فطهره للوقت من برصه) (الآيات ١-٣)

(٢) الإشكال (هنا وفيما يأتي) بمعنى الالتباس والاشتباه من أشكل الأمر : إذا التبس، يقال : "أشكلت على الأخبار" أى انبست : فالتشبهتين التين أو صفتيهما الضلالة : (الف) إطلاق لفظ "الابن" عليه صلى الله عليه وسلم (ب) ونسبته عليه السلام إلى نفسه بعض الأفعال الإلهية.

(٣) قد ثبت أن التحريف وقع في هذه الكتب بقتناء، وثبت أن أهل الدين والتبينة كانوا يحرفون قصداً لتأييد مسألة مقبولة، أو لدفع اعتراض، وقد ثبت تحريفهم في مسألة التثليث أيضاً فزادوا في الباب الخامس من رسالة يوحنا الأولى، فصبغوا لأن الذين يشهدون في السماء ثلاثة، وهم الأب والابن والروح القدس، وهؤلاء ثلاثة واحدة، والشهود الذين يشهدون في الأرض ثلاثة وهم الروح القدس والابن والابن، وهؤلاء الثلاثة تتحد في واحد، ففى هاتين الآيتين كان أصل العقيدة على ما راعه محققوهم هذا القدر : لأن الشهود الذين يشهدون ثلاثة وهم الروح القدس والابن، وهؤلاء الثلاثة تتحد في واحد، وزاجع تبحث إظهار الحق ١٨٢٠ من تشبهه من المقصد الثاني.

وزادوا بعض الألفاظ في الباب الأول، من إنجيل لوقا، وأسقطوا بعض الألفاظ من الباب الأول من إنجيل متى، وأسقطوا الآية السابعة من الباب الثاني من إنجيل لوقا، ففى هذه الصورة لو واحد بعض الألفاظ لمسيحية لمتشبهة، تدل على التثليث فلا اعتماد عليها إظهار الحق مختصراً ١٨٢١

المحجوب والمقرب والمجتبى^(١)، كما يدل عليه كثير من القرائن فى الإنجيل^(٢).

(=) نفس عدم القدرة على فهمها، فباقية بعد العروج أيضًا، حتى لم يعلم عالم من علماء هم، إلى هذا الحين، كيفية هذه العلاقة والوحدانية، وحتى ترك علماء بروتستنت بيانها رأسًا، والقسيس فندر بنفسه يعترف فى مواضع من تصانيفه بأن هذا الأمر من الأسرار خارج عن درك العقل.

وأما الثانى: فلأن المسيح عليه السلام ما جاء عندهم إلا لأجل أن يكون كفارة لذنوب الخلق ويصلب بأيدي اليهود، وكان يعلم يقينًا أنهم يصلبونه، ومتى يصلبونه، فأى محل للخوف عن اليهود فى بيان العقيدة؟ والعجب أن خالق الأرض والسماء والقادر على ما يشاء يخاف من عباده الذين هم من أذل أقوام الدنيا، ولا يبين لأجل خوفهم العقيدة التى هى مدار النجاة، وعبّاده من الأنبياء مثل أرميا وأشعيا ويحيى عليهم السلام لا يخافون منهم فى بيان الحق، ويؤذون إيذاءً شديدًا حتى يقتل بعضهم. (من إظهار الحق ١: ١٨١-١٨٣ بتغيير يسير)

(١) فى معجم القرآن (١: ١٠) ويسمى بالأب كل من كان سببا فى إيجاد شئ أو إصلاحه أو ظهوره؛ ولهذا كان أرباب الشرائع المتقدمة يطلقون الأب على الله باعتبار السبب الأول، وكذلك يقال للأب: الإله الأصغر؛ وكل من سماه الأقدمون بابن الله فإما لكونه حبرًا بارًا، وإما لأنه لم يُنسب إلى أب حقيقى، فُنُسب إلى الله بكونه ابنه، لأن الله أبوهذا العالم، وخالقهم وإليه يرجعون اهـ.

(٢) لا يصح أن يكون لفظ الابن بمعناه الحقيقى، لأن معناه الحقيقى — باتفاق لغة أهل العالم — من تولد من نطفة الأبوين، وهذا محال ههنا، فلا بد من الحمل على المعنى المجازى، المناسب لشأن المسيح، وقد علم من هذا الإنجيل أن هذا اللفظ فى حقه بمعنى الصالح؛ الآية التاسعة والثلاثون من الباب الخامس عشر من إنجيل مرقس هكذا: (ولما رأى قائد المائة الواقف مقابله أنه صرّح هكذا وأسلم الروح قال حقا كان هذا الإنسان ابن الله) ونقل لوقا قول القائد فى (٢٣: ٤٧) من إنجيله هكذا: (بالحقيقة كان هذا الإنسان بارًا) وفى إنجيل مرقس لفظ ابن (=)

وجواب الإشكال الثانى: أن تلك النسبة على طريق الحكاية؛ كما يقول رسول الملك: "إنا فتحنا البلد الفلانى" و "لقد حطمنا القلعة الفلانية" وفى الحقيقة هذا الأمر راجع إلى الملك؛ وأما الرسول فإنما هو ترجمان الملك فحسب.

والجواب الثانى: أنه يحتمل أن يكون الوحي إلى عيسى عليه السلام عن طريق انطباع^(١) المعانى فى لوح قلبه من قبل العالم العلوى، لاعن طريق تمثّل جبرئيل عليه السلام فى صورة البشر، وإلقاء الكلام إليه؛ فبسبب هذا الانطباع جرى منه عليه السلام كلام مشعر بنسبة تلك الأفعال إلى نفسه؛ والحقيقة غير خفية^(٢).

وبالجملة: فقد ردّ الله تعالى هذا المذهب الباطل،^(٣) وبَيَّن أن عيسى عبدٌ

(=) الله وفى إنجيل لوقا بدله لفظ البار؛ واستعمل مثل هذا اللفظ فى حق الصالح غير المسيح أيضاً كما استعمل مثل ابن إبليس فى حق الطالح فى الباب الخامس من إنجيل متى، فى الآيات ٤٤ و ٤٥ ففیهما أطلق عيسى عليه السلام على صانحي السلام والصلح وعلى العاملين بالأعمال المذكورة فيهما لفظ أبناء الله وعلى الله نَفْظ الأب بالنسبة إليهم. وراجع إنجيل يوحنا ٨: ٤١ و ٤٤ والرسالة الأولى ليوحنا ٣: ٩ - ١٠ و ٤ - ٧.

(١) يعبر عن هذا الطريق بالنفث، وقد تقدم بيان طرق الوحي قبيل ذكر اليهود فراجع؛ والانطباع مطاوع لطبع.

(٢) أى: كل أحد يعرف حقيقة هذه النسبة، أنها نسبة مجازية، لاحقيقية.

(٣) قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ الآية (سورة المائدة ٧٣) قال ابن كثير فى تفسيره (٢: ٨١): والصحيح أنها أنزلت فى النصارى خاصة، قاله مجاهد وغير واحد، ثم اختلفوا فى ذلك فقليل: المراد بذلك كفارهم فى قولهم بالأقانيم الثلاثة، وهى أقنوم الأب، وأقنوم الابن وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن — تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا — قال ابن جرير وغيره: والطوائف الثلاثة: من الملكانية واليعقوبية (=)

الله وروحه المطهرة التي نفخها في رحم مريم الصديقة^(١)، وأنه تعالى أيد بروح القدس،^(٢) وحاطه^(٣) عليه السلام بعناية خاصة.

وبالجملة: فلو فرضنا أن الله سبحانه وتعالى ظهر في الكسوة الروحية . التي هي من جنس الأرواح^(٤) وتدرّج بالبشرية، فلا ينطبق لفظ "الاتحاد" على هذا (=) والنسبورية تقول بهذه الأقسام، وهم مختلفون فيها اختلافا متبايناً. ليس هذا موضع بسطه، وكل فرقة منهم تكفر الأخرى، والحق أن الثلاثة كافرة. وقال السدي وغيره: نزلت في جعلهم المسيح وأمه إلهن مع الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار، قال السدي: وهي كقوله تعالى في آخر السورة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ قَالَ: سُبْحَانَكَ﴾ الآية وهذا القول هو الأظهر، والله أعلم اهـ.

(١) راجع الآيات ١٧١ و١٧٢ من النساء، وتمسك بعض النصارى بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ، أُلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ فقال: إذا كان المسيح روح الله فلا بد أن يكون في مرتبة الألوهية، لأن روح الله لا يكون أقل من الله.

قلنا: قال الله تعالى في سورة السجدة في حق آدم عليه السلام: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ وقال في سورة الحجر وسورة ص في حقه أيضاً: ﴿فِي ذِي سُوْرَتِهِ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ وقال في سورة مريم في حق جبرئيل: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ وأطلق في كتاب حرقيا ٣٧: ١٤ "روحى" على الألف من الناس الذين أحياهم بمعجزة حرقيا وقال الله تعالى في سورة الجاثية: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ (الآية ١٣). فلو كان معنى (روح منه) روح بعض منه، أو جزء منه، فيكون معنى "جميعاً منه" أيضاً مثله فيلزم أن يكون جميع المخلوقات آليه من إظهار الحق ١: ٣٤-٣٦ ملخصاً)

(٢) راجع الآية ١١٠ من سورة المائدة: والمراد بروح القدس هنا جبرئيل عليه السلام.

(٣) حاطَ حَوْطًا الشئ: حَفِظَهُ وَتَعَهَّدَهُ بِجَلْبِ مَا يَنْفَعُهُ، وَدَفْعِ مَا يَضُرُّهُ.

(٤) أى أن الكسوة الروحية أيضاً روح من الأرواح.

المعنى عند التدقيق والإمعان، إلابتسامح؛ وأقرب الألفاظ لهذا المعنى: هو "التقويم" ومثله^(١)؛ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

(١) حاصل ما قاله الإمام المصنف رحمه الله: أن النصارى يقولون بالاتحاد بين الله تعالى وبين عيسى عليه السلام بأن الله تعالى تقمّص بشرية عيسى عليه السلام فصار متحدًا معه، فردّ عليهم المصنف رحمه الله، وقال: لو فرضنا أن الله تعالى صار روحاً في أول الأمر، ثم تقمّص بشرية عيسى عليه السلام ثانياً، فلا ينطبق عليه لفظ "الاتحاد" أى لم يصر سبحانه وتعالى مع هذا متحداً مع عيسى عليه السلام في النظر المممعن؛ لأن الله تعالى بمنزلة الروح، وبشرية عيسى بمنزلة الجسد، والروح لا تكون متحدة مع الجسد أبداً، بل تكون مقوِّمةً ومعدّلةً فحسب، فكيف يقول الظالمون بالاتحاد بينه تبارك وتعالى وبين عبده عيسى عليه الصلاة والسلام؟! ويجدر بنا في خاتمة البحث أن نسرّد أقوال المسيح عليه السلام في إبطال التثليث:

١- في إنجيل يوحنا (٣: ١٧) قول عيسى عليه السلام في خطابه مع الله هكذا: (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك، أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذى أرسلته) فبين أن الحياة الحقيقية عبارة عن أن يعرف الناس أن الله واحد حقيقى، وأن عيسى عليه السلام رسوله.

٢- في إنجيل مرقس (٣٢: ١٣) قول المسيح هكذا: (وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد، ولا الملائكة الذين فى السماء ولا الابن إلا الأب) فالمسيح عليه السلام خصص علم القيامة بالله، ونفى عن نفسه كما نفى عن عباد الله الآخرين ولا يمكن هذا فى صورة كونه إلهاً، سيما إذا لاحظنا أن "الكلمة" وأقنوم "الابن" عبارتان عن علم الله.

٣- فى إنجيل متى (١٩: ١٦-١٨) هكذا: (وإذا واحد تقدم وقال له: أيها المعلم الصالح أى صلاح أعمل، لتكون لى الحياة الأبدية؟ فقال له: لماذا تدعوننى صالحاً؟ ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله) فما رضى عليه السلام — تواضعاً أن يطلق عليه لفظ الصالح أيضاً. (==)

أنموذج النصارى

وإن شئت أن ترى نموذجا لهذا الفريق ، فانظر اليوم إلى أولاد المشايخ والأولياء ، ماذا يظنون بآبائهم؟ وإلى أى حد وصلوا بهم! ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾^(١)

عقيدة مصلوبية المسيح والرد عليها

ومن ضلالاتهم أيضا: أنهم يجزمون بأن عيسى عليه السلام قد قُتل ، مع أن الواقع خلاف ذلك ، وقد شُبّه لهم ، والتبس عليهم الأمر ، فظنوا رفعه إلى السماء قتلاً ، ورووا هذا الغلط كابرًا عن كابر ، فكشف الله تعالى الستار عن حقيقة الأمر في القرآن العظيم قائلاً: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ، وَلَكِنْ شُبّهَ لَهُمْ﴾^(٢)

(==) ٤ - فى إنجيل يوحنا (١٤: ٢٤) قول المسيح عليه السلام هكذا: (الكلام الذى تسمعون له ليس لى ، بل للأب الذى أرسلنى) ففيه أيضا تصريح بالرسالة، وبأن الكلام الذى تسمعون له هو وحي من جانب الله.

٥ - فى إنجيل متى (٩: ٢٣ - ١٠) قول المسيح عليه السلام فى خطاب تلاميذه هكذا: (ولا تدعوا لكم أبا على الأرض ، لأن أباكم واحد الذى فى السموات، ولا تدعوا معلمين، لأن معلمكم واحد المسيح) فهنا أيضا صرح بأن الله واحد، وإنى معلم لكم.

٦ - وقال المسيح: ﴿يَبْنِى إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ؛ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ (سورة المائدة ٧٢) (إظهار الحق ١: ٢ - ١٠)

(١) سورة الشعراء ٢٢٧

(٢) سورة النساء ١٥٧ قال ابن كثير فى تفسيره (١: ٥٧٤) قال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه، وفى البيت اثنا عشر رجلاً من الحواريين، يعنى فخرج عليهم من عين فى البيت ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من يكفر بى اثنى عشر مرة بعد أن (==)

وأما ما ذكر في الإنجيل من قول عيسى عليه السلام في هذا الباب^(١) فمعناه: أنه إخبار بجرأة اليهود، وإقدامهم على قتله ؛ ولكن الله تعالى أنجاه من هذه المهلكة.

وأما كلام الحواريين^(٢) فإنه ناشٍ عن اشتباه الأمر، وعدم وقوفهم على حقيقة الرفع الذي لم يكن مألوفاً لعقولهم، ولألسانهم.

(=) آمن بي قال: ثم قال: أيكم يلقي عليه شبهى فيقتل مكانى ويكون معى فى درجتى؟ فقام شاب من أحدثهم سناً، فقال له: اجلس! ثم أعاد عليهم فقام ذلك الشاب فقال: اجلس! ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا، فقال هو أنت ذاك، فألقى عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روزنة فى البيت إلى السماء، قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه فكفر به بعضهم اثنى عشرة مرة بعد أن آمن به، واقتروا ثلث فرق:

فقال فرق: كان الله فينا ماشاء، ثم صعد إلى السماء؛ وهؤلاء اليعقوبية.
وقالت فرق: كان فينا ابن الله ماشاء، ثم رفعه الله إليه؛ وهؤلاء النسطورية.
وقالت فرق: كان فينا عبد الله ورسوله ماشاء الله، ثم رفعه الله إليه؛ وهؤلاء المسلمون.

فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوهما، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ورواه النسائي عن أبي كريب عن أبي معاوية بنحوه اهـ.

(١) راجع إنجيل متى (٢٦: ٣٨-٤٥) ففيها: أن عيسى عليه السلام قال للحواريين: (إن نفسى حزينة جداً، امكثوا ههنا، واسهروا معى، ثم تقدم قليلاً للصلاة، ثم جاء إليهم فوجدهم نياماً، فقال لبطرس: أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معى؟ ساعة واحدة اسهروا وصلوا! فمضى مرة ثانية للصلاة، ثم جاء فوجدهم نياماً، فتركهم ومضى، ثم جاء إلى تلاميذه وقال لهم: ناموا واستريحوا، انظروا قد اقتربت تلك الساعة، وابن الناس يصلب بأيدي الفجار الظلمة الخ)
(٢) أى إخبار الحواريين بقتل عيسى عليه السلام.

تحريفهم في بشارة الفار قليط^(١)

ومن ضلالاتهم أيضًا: أنهم يقولون: إن الفار قليط الموعود هو عيسى عليه السلام (١) فار قليط (Peroclitus) كلمة سريانية، معناها: أحمد (أفعل التفضيل من الحمد) أي الذي يحمد الله تعالى أكثر من كل أحد.

وجاء ذكر الفار قليط في إنجيل يوحنا (١٤: ١٥-١٧) هكذا: (إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب لكم من الأب فيعطىكم فار قليطًا آخر ليثبت معكم إلى الأبد) وفي الآية ٢٦ هكذا: (والفار قليط روح القدس الذي يرسله الأب باسمي هو يعلمكم كل شيء، وهو يذكركم كل ما قلته لكم) وفي إنجيل يوحنا (١٥: ٢٦) هكذا: (فإذا جاء الفار قليط الذي أرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من الأب ينبثق، هو يشهد لأجلي، وأنتم تشهدون لأنكم معي من الابتداء) وفيه أيضًا (١٦: ٧-١٠) هكذا: (لكني أقول لكم الحق، إنه خير لكم أن انطلق، لأنني إن لم انطلق لم يأتكم الفار قليط، فأما إن انطلقت أرسلته إليكم، فإذا جاء ذاك فهو يربخ العالم على خطيئة وعلى برو على حكم: أما على الخطيئة: فلأنهم لم يؤمنوا بي، وأما على البر فلأنني منطلق إلى الأب، ولستم ترونني بعد، وأما على الحكم فإني أركون هذا العالم قد دين، وإن لي كلامًا كثيرًا أقوله لكم، ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن، وإذا جاء روح الحق ذاك فهو يعلمكم جميع الحق، لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بكل ما يسمع ويخبركم بما سيأتي، وهو يمجدني لأنه يأخذ مما هو لي، ويخبركم جميع ما هو للأب فهو لي، فمن أجل هذا قلت إن مما هو لي يأخذ ويخبركم)

وانتظار هذا الفار قليط كان في القرون الأولى المسيحية أيضًا، ولذلك كان الناس يدعون أنهم مصادقه، وكان المسيحيون يقبلون دعاويهم، كما ادعى منتسب المسيحين، الذي كان في القرن الثاني من الميلاد ذكر حاله ولَّيم ميور في تاريخه في الباب الثالث في القسم الثاني، وقال صاحب لبّ التواريخ: إن اليهود والمسيحيين من معاصري محمد صلى الله عليه وسلم كانوا منتظرين لنبي، فحصل لمحمد من هذا الأمر نفع عظيم، لأنه ادعى أنه هو ذاك المنتظر اه ملخصًا.

فيعلم من كلامه أيضًا: أن أهل الكتاب كانوا منتظرين لخروج نبي في (=)

(=) زمان النبي صلى الله عليه وسلم وهو الحق، لأن النجاشي لما وصل إليه كتاب محمد صلى الله عليه وسلم قال: "أشهد بالله أنه نبي الذي ينتظره أهل الكتاب" وكتب المقوقس في جواب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم، وفيه: "وقد علمت أن نبيا قد بقى، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك" فهذان (النجاشي والمقوقس) كانا نصرانيان يشهدان ببقاء النبي. تاويلهم الباطل:

وبالجملة فأولوا بشارة الفار قليط بالروح النازل على تلاميذ عيسى عليه السلام يوم الدار، الذي جاء ذكره في الباب الثاني من كتاب الأعمال، ولكنه باطل لأن روح عيسى عليه السلام لم تمكث عندهم إلا قليلا، على زعمهم، وقد بينه العلامة رحمت الله في كتابه إظهار الحق (٢: ١٩٧ - ٢٠١) بمالامزيد عليه، فعليك أن تراجع.

وصية عيسى:

جاء في إنجيل متى (١٥: ٧) قول المسيح هكذا: (احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بشباب الحُمَلاَن، ولكنهم من داخل ذناب خاطفة) وقد ظهر الأنبياء الكذبة الكثيرون في الطبقة الأولى بعد صعوده، كما يظهر من الرسائل الموجودة في العهد الجديد في الباب الحادي عشر من الرسالة الثانية إلى أهل قورنثيوس في الآية الثالث عشرة. وقال آدم كلارك المفسر في شرح هذا المقام: (هؤلاء الأشخاص كانوا يدعون كذبا أنهم رسول المسيح، وما كانوا رسل المسيح في نفس الأمر، وكانوا يعظون ويجتهدون، لكن مقصودهم ما كان إلا جلب المنفعة، وفي الباب الرابع من الرسالة الأولى ليوحنا هكذا: (أيها الأحبة لاتصدقوا كل روح، بل امتحنوا الأرواح، هل هي من الله؟ لأن الأنبياء الكذبة كثيرون قد خرجوا إلى العالم)

بيان القرآن:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ: يَبْنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ، وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ (=)

(==) أَحْمَدُ (سورة الصف ٦) قال ابن كثير فى تفسيره (٣٥٩: ٤) يعنى: التوراة قد بشرت بى، وأنا مصداق ما أخبرت عنه، وأنا مبشر بمن بعدى، وهو الرسول النبى الأُمى العربى المكى: أحمد اه وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ (سورة الأعراف ١٥٧) .
ختام البحث:

وبالجملة فعىسى عليه السلام له أربع خصوصيات، مرعية فى حقه لاتوجد لغيره:

- ١- أنه ولد بلا أب، من روح الله تعالى وكلمته.
 - ٢- وأنه رُفِعَ إلى السماء.
 - ٣- وينزل عليه السلام فى آخر الزمان عند ظهور الدجال الأكبر.
 - ٤- وكونه عليه السلام خاتماً لأنبياء بنى إسرائيل.
- ولما انقرض الحواريون من أصحابه وحملة دينه خَلَفَ من بعدهم خَلَف ابتدعوا من الخصوصية الأولى عقيدة الألوهية، وحملوا الألفاظ المستعملة المشتبهة على غير محلها، كما حملوا المحبوبة والشفاعة التى أثبتها الله تعالى فى قاطبة الشرائع لخواص البشر على غير محلها، وكما حملوا صدور خرق العوائد والإشراقات على انتقال العلم.
- ولما لم يدر كوا حقيقة رفعه إلى السماء، وشُبِّهَ لهم أيضاً، زعموا أنه عليه السلام قد قتل، ولكن لم ترضوا أنفسهم لنبيهم بهذه العاقبة، فلدفع هذا العوار اخترعوا عقيدة الكفارة والفداء، فكان هذا ضِغْثاً على إباله. ثم لما صلب هو كفارةً وفداءً عن ذنوب بنى آدم كما زعموا فما بقي حاجة إلى الشريعة والناموس، فنسخ الحواريون كما زعموا بعد المشاورة التامة جميع الأحكام العملية للتوراة إلا أربعة: ذبيحة الصنم، والدم، والمخنوق، والزنا، ثم لما رأى مقدسهم بولس بعد هذا الزمان أن هذه الرعاية ليست بضرورية، نسخ حرمة الثلاثة الأولى بفتوى الإباحة العامة، فما بقي من أحكام التوراة العملية إلا الزنا، ولما لم يكن فيه حد فى الشريعة العيسوية، فكانه منسوخ أيضاً من هذه الجهة، فقد حصل الفراغ التام من الأحكام العملية، قال الله (==)

بسلام نفسه، الذي جاء بعد قتله إلى الحواريين، وأوصاهم بالتمسك
'إنجيل ويقولون: إن عيسى عليه السلام أوصاهم أيضًا بأن المتنبيين
كثرون، فمن سَمَانِي فاقبلوا كلامه، وإلا فلا.

وقد بين القرآن العظيم أن بشارة عيسى عليه السلام تصدق على نبينا
لى الله عليه وسلم، لا على الصورة الروحية لعيسى عليه السلام؛ لأنه قد
رُح في الإنجيل بأن الفار قليط يمكث فيكم مدة طويلة، ويعلم العلم،
زكى الناس؛ ولا يظهر هذا المعنى فى غير نبينا صلى الله عليه وسلم،
وأما ذكر عيسى عليه السلام وتسميته، فالغرض منه التصديق بنبوته، لا
، يتخذه ربا، أو يعتقد بأنه ابنُ الله.

ذكر المنافقين

باق الاعتقاد ونفاق العمل

بالمنافقون: فكانوا على قسمين :

(==) تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ
قَونَ عَذَابٍ ﴾ (سورة مريم ٥٩)

وكذا حرفوا إخبار نزوله عليه السلام عند ظهور الدجال بنزول روحه يوم
لدار، وحرفوا كونه خاتماً لنبى بنى إسرائيل إلى كونه خاتم النبىين مطلقاً فادعوا أن
بن المسيحى أبدى، ولا يجوز نسخه، ولما عارض ما راموا بشارة عيسى عليه
لسلام بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أولوها بمجى روح عيسى عليه السلام
يا سلام! ثم يا سلام! من غوائل الضلالة. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ
لَيْكَ الْكِتَابَ ، مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ — هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ — وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٍ؛ فَأَمَّا
لِذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ، وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ
أَوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ: آمَنَّا بِهِ. كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، وَمَا يَذَّكَّرُ
لَا أُولُوا الْأَلْبَابِ. رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ
نْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (آمين) (سورة آل عمران ٨٧)

- ١- طائفة منهم يقولون بألسنتهم: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، وقلوبهم مطمئنة بالكفر، ويضمرون^(١) الجحود الصرف في أنفسهم، قال الله تعالى في حقهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾^(٢)
- ٢- وطائفة دخلوا في الإسلام مع ضعف فيه.

مظاهر نفاق العمل

- ١- فمنهم من يعتاد موافقة قومهم: إن ثبت القوم على الإيمان ثبتوا، وإن رجع القوم إلى الكفر رجعوا.
- ٢- ومنهم من استولى على قلوبهم الانسياق^(٣) وراء اللذات الدنيوية الدنيئة، بحيث لم يذر في قلوبهم مكانا لحب الله، وحب رسوله صلى الله عليه وسلم.
- ٣- ومنهم من تملك قلوبهم الحرص على المال والحسد والحقد، ونحو ذلك من الرذائل، بحيث لم يبق في قلوبهم محل لحلاوة الابتهاال والمناجاة، ولا لبركات العبادات.
- ٤- ومنهم من انغمسوا في شئون المعاش واشتغلوا بها، حتى لم يبق لديهم فرصة للاهتمام بأمر الآخرة، ولترقيها وللتفكير فيها.
- ٥- ومنهم من تخطر ببالهم ظنون واهية وشبهات ركيكة في رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم، وإن لم يبلغوا إلى أن يخلعوا ربقة الإسلام عن عنقهم، وينفضوا أيديهم منه بتاتا.

وسبب تلك الشكوك: جريان الأحكام البشرية على نبينا صلى الله عليه وسلم، وظهور الملة الإسلامية في صورة سيطرة الملوك على أطراف البلاد،

(١) أضمر الشيء: أخفاه وذلك كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا: آمَنَّا، وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَٰئِطَانِهِمْ قَالُوا: إِنَّا مَعَكُمْ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ﴾ (سورة البقرة ١٤)

(٢) سورة النساء ٤٥

(٣) الانسياق: مطاوع ساقه أى تبع غيره ومشى خلفه.

وأمثال ذلك.

٦- ومنهم من حملتهم مَحبة القبائل والعشائر على أن يبذلوا الجهد البليغ في نصرتهم، وتقويتهم وتأييدهم، ولو كان ذلك على مُناوأة أهل الإسلام؛ ويضعفون أمر الإسلام عند التعارض، ويلحقون به الضرر^(١).

الكلام حول قسمي النفاق:

وهذا القسم من النفاق^(٢) هو نفاق الأعمال والأخلاق، ولا يمكن الاطلاع على النفاق الأول^(٣) بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه من الأمور المَغيبية، ولا يمكن الاطلاع على مكنونات القلوب.

والنفاق الثاني كثير الوقوع، لاسيما في عصرنا، وإليه جاءت الإشارة في الحديث الشريف: "أربع من كنَّ فيه كان منافقا خالصاً: إذا أُؤْتِمَنَ خان، وإذا حَدَّثَ كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر"^(٤) وقال: "هَمُّ المنافق بطنه، وهَمُّ المؤمن فرسه"^(٥) إلى غير ذلك من الأحاديث^(٦).

(١) أى: وإن كانت النصرَة والتأييد لقومهم مخالفةً لأهل الإسلام، ويضعفون أمر الإسلام عند هذه المقابلة. ونَاوَاهُ مُنَاوَاةٌ: عَادَاهُ.

(٢) يعنى القسم الثانى بجميع أنواعه.

(٣) يعنى نفاق الاعتقاد الذى هو النفاق الأصلى.

(٤) رواه الستة إلا ابن ماجه عن ابن عمرو رضى الله عنهما (مشكوة المصابيح ١: ١٧)

(٥) لم أجده مع الجهد البليغ.

(٦) قال الإمام فى حجة الله البالغة (١: ٣٨٥-٣٩٠) اعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم لما كان مبعوثاً إلى الخلق بعثاً عاماً ليغلب دينه على الأديان كلها بعزَّ عزيرٍ أو ذُلَّ ذليلٍ، حصل فى دينه أنواع من الناس فوجب التمييز بين الذين يَدِينُونَ بدين الإسلام وبين غيرهم، ثم بين الذين اهتدوا بالهداية التى بُعث بها، وبين غيرهم ممن لم تدخل بشاشة الإيمان قلوبهم فجعل الإيمان على ضربين:

أحدهما: الإيمان الذى يدور عليه أحكام الدنيا من عصمة الدماء (==)

(=) والأموال، وضبطه بأمور ظاهرة في الانقياد.

وثانيهما: الإيمان الذي يدور عليه أحكام الآخرة من النجاة والفوز بالدرجات، وهو متناول لكل اعتقادٍ حقٍّ، وعمل مرضى، وملكة فاضلة.

ويُسمى مقابل الإيمان الأول بالكفر، وأما مقابل الإيمان الثاني فإن كان تفويتاً للتصديق، وإنما يكون الانقياد بغلبة السيف فهو النفاق الأصلي، والمنافق بهذا المعنى لا فرق بينه وبين الكافر في الآخرة، بل المنافقون في الدرك الأسفل من النار، وإن كان مصدقاً مفوتاً لوظيفة الجوارح سمى فاسقاً، أو مفوتاً لوظيفة الجنان فهو المنافق بنفاق آخر وقد سَمَّاه بعض السلف نفاق العمل. وذلك أن يغلب عليه حجاب الطبع أو الرسم، أو سوء المعرفة فيكون مُمَعِنًا في محبة الدنيا والعشائر والأولاد فيدب في قلبه استبعاد المجازاة، والاجترأ على المعاصي من حيث لا يدري، وإن كان مُعْتَرِفًا بالنظر البرهاني بما ينبغي الاعتراف به؛ أو رأى الشدائد في الإسلام فكَرِهه، أو أحب الكفار بأعيانهم فَصَدَّ ذلك من إعلاء كلمة الله.

ولما كان نفاق العمل وما يقابله من الإخلاص أمرًا خَفِيًّا، وجب بيان علامات كل واحد منهما، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: "أربع من كنَّ فيه كان منافقًا خالصًا" الخ، وقوله صلى الله عليه وسلم: "ثلاث من كنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحبَّ عبدًا لا يحبه إلا الله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقي في النار" وقوله صلى الله عليه وسلم: "إذا رأيتم العبد يُلَازِم المسجدَ فاشهدوا له بالإيمان" وكذا قوله عليه السلام: "حُبُّ عَلَى آية الإيمان، وبُغْضُ عَلَى آية النفاق" وقوله صلى الله عليه وسلم: "حُبُّ الْأَنْصَارِ آية الإيمان".

والفقه فيه: أن العرب المَعْدِيَّة واليمنية ما زالوا يتنازعون بينهم حتى جمعهم الإيمان، فمن كان جامعَ الهمة على إعلاء الكلمة زال عنه الحقد، ومن لم يكن جامعًا بقي فيه النزاع اهـ (بحذف)

وقال في التفيهمات الإلهية (١: ٣٢-٣٣) النفاق مقول على معنيين — إما باشتراك اللفظ وإما باشتراك المعنى:

أحدهما: إظهار الانقياد، وإسرار الكفر وهو في الدرك الأسفل من النار (=)

الغرض من ذكر أحوال المنافقين فى القرآن العظيم

وقد كشف الله تعالى فى القرآن العظيم عن معائب المنافقين وأعمالهم^(١)،

وذكر من أحوال الفريقين أشياء كثيرة، لتحترز الأمة بأسرها منها^(٢).

(==) والآخر: إحاطة الخطايا بالعبد أى فناءه فيها، واطمئنانه بها كما قال الله تعالى: ﴿وَاطْمَئِنُّوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وكون اللذات غالبية والرسوم مالكة.

ومن العباد من يُظهر كفرًا ويُضمر إيمانًا، وهو عندنا من أكبر الكبائر وحكمه حكم من لم يهاجر من مكة مع الاستطاعة، وفيهم نزل ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ، قَالُوا: فِيمَ كُنْتُمْ؟ قَالُوا: كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ! قَالُوا: أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً، فَتُهَاجَرُوا فِيهَا؟ قَالُوا لَيْسَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ومنهم من يعمل الصالحات، ويلبس الخيرات، وهم الذين خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا.

وكذلك قوم متردد بين النفاق والإيمان، كمن دام حضوره وهو لا يصلى أو يشرب الخمر.

وهذا التفصيل مفهوم من الآيات والأحاديث. قال الله تعالى فى المنافقين: ﴿يَقُولُونَ لَيْنُ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ﴾ وجعل من صفاتهم الخداع، والتكذيب والاستهزاء بآيات الله، وهم فى الدرك الأسفل من النار، وفى الحديث: أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا الخ وقال: تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان، قام فنقر أربع نقرات وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى، يُرَاؤُنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وقال: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ اهـ (ملخصًا)

(١) فى مواضع شتى من القرآن كما فى أول سورة البقرة، وكما فى سورة التوبة وسورة المنافقين.

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (سورة الأنعام ٥٥) أى: بهذا التفصيل البديع نفصل الآيات فى صفة أهل الطاعة وأهل الأجر المصيرين منهم والأوابين، لتستبين سبلهم فيحيى من حى عن بينة ويهلك من هلك عن بينة.

نموذج المنافقين

وإن شئت أن ترى نموذجاً للمنافقين، فانطلق إلى مجالس الأمراء، وانظر إلى مصاحبيهم وندمائهم، يُؤثرون رضى الأمراء على رضى الله تعالى. ولا فرق عند المنصف بين المنافقين الذين سمعوا كلام الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة ثم نافقوا، وبين هؤلاء المنافقين الذين ولدوا في هذا الزمان، ثم علموا أحكام الشريعة بطريق القطع واليقين، ثم أقدموا على خلافها، وانحرفوا عنها^(١).

وكذلك طائفة من المعقوليين الذين تمكّنت في خواطرهم شكوك وشبهات كثيرة، ونسوا الدار الآخرة^(٢)، فهم أيضاً نموذج المنافقين.

القرآن كتاب كل عصر

وعلى كل، فإذا قرأت القرآن فلا تحسب أن المخاصمة كانت مع قوم انقرضوا، كلا، بل مامن بلاء كان فيما سبق من الزمان إلا وهو موجود اليوم بطريق الأنموذج، كما ورد في الحديث الشريف: "لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ"^(٣) فمقصود القرآن الكريم بيان كليات تلك المفاسد، لا خصوص الحوادث.

هذا ما تيسر لى فى هذا الكتاب من بيان عقائد الفرق الضالة، والردود عليها؛ وأظن أن هذا القدر كاف فى فهم معانى آيات الجدل إن شاء الله تعالى.

(١) يعنى: أن منافقى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ومنافقى زماننا أشبه من الماء بالماء.

(٢) أى: يضمرون فى خواطرهم شكوكاً وشبهات كثيرة، وجعلوا المعاد نسياً منسياً.

(٣) حديث متفق عليه، وتمامه: "شَبْرًا بِشِيرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ" مشكوة رقم الحديث ٥٣٦١ كتاب الرقاق، باب تغير الناس.

الفصل الثاني

فى

بقية مباحث العلوم الخمسة^(١)

بيان التذكير بالآء الله

لِيُعْلَمَ أن نزول القرآن الكريم إنما كان لإصلاح النفوس البشرية سواء كانوا عرباً أو عجماء، بدواً أو حَضَرًا^(٢)؛ فلذلك اقتضت الحكمة الإلهية أن لا يُخاطب الناس فى التذكير بالآء الله إلا بماتسعه أذهانهم، وتُحيط به مداركهم، ولأَيُّبَالِغ فى البحث والتحقيق مبالغة زائدة^(٣)؛ فسيق الكلام فى أسماء الله تعالى وصفاته^(٤) بوجه يمكن فهمه، والإحاطة به بإدراك وفطنة خلق أكثر أفراد الإنسان عليهما فى أصل خِلْقَتِهِمْ، من دون حاجة إلى ممارسة الفلسفة الإلهية ومزاولة علم الكلام.^(٥)

(١) كان الكلام فى الفصل الأول حول "علم الجدَل" والآن يتحدثنا الإمام المصنف عن العلوم الأربعة الباقية.

(٢) أهل الحضر: سُكَّانُ الْقَرْى والمدن، والبَدُو: سكان البادية من القبائل العربية الرُّحَّل، أهل الوبر.

(٣) أى: اقتضت الحكمة الإلهية أن لا يُبَالِغ فى البحث والتفتيش بأكثر مما يعلمه أكثر أفراد بنى آدم.

وذلك لأن المقصد الوحيد هو التذكير، وإذا لا يحصل كما ينبغي بذكر ما لا يعلمه المخاطب، فإن ذهنه وقلبه حينئذ يتوجهان إلى تحصيل المجهول، وتصوره وتعلّمه، فلا تبقى له فرصة التذكّر بالمذكور، وأما إذا خوطب بما يعلم فيلقى السمع وهو شهيد، فيتذكر حق التذكّر.

(٤) صفاته تعالى من جملة آلاءه، كما تقدم فى فاتحة الباب الأول.

(٥) قال الإمام المصنف: علم التوحيد والصفات يجب أن يكون مشروحاً بشرح يناله العقل الإنسانى بطبيعته، لا مغلقاً لا يناله إلا من يَنْدُر وجود مثله اه (حجة الله ١: ٤٨)

إثبات الذات وبيان الصفات

فأثبت سبحانه وتعالى ذات المبدأ إجمالاً^(١)، إذ أن معرفته تعالى مركزة في فطرة بني آدم؛ لا ترى طائفة منهم في الأقاليم الصالحة، والأماكن القريبة من الاعتدال^(٢) ينكرون ذلك.

ولما كان إثبات الصفات الإلهية بطريق الإمعان، وتحقيق الحقائق، مستحيلاً بالنسبة إلى أفراد الإنسان^(٣)؛ ولو لم يطلعوا على صفاته تعالى إطلاقاً لم يصلوا إلى معرفة الربوبية التي هي أنفع الأشياء في تهذيب النفوس^(٤)؛ فكان

(١) يعني ذات مُبْدَأ الكائنات، وهو الله تعالى شأنه.

(٢) قال الإمام المصنف في الحجة (٢٥٥: ١) الأقاليم الصالحة لتولد الأمزجة المعتدلة كانت مجموعة تحت مَلِكَيْن كبيرين يومئذ (يعني زمن النبي صلى الله عليه وسلم) أحدهما: كسرى، والثاني: قيصر اه مختصراً وسنقل النص برمته في الفصل الثاني من الباب الأول في مبحث علم الأحكام فراجع.

(٣) أى لا بالنسبة إلى الله تعالى. وجه الامتناع لإثبات الصفات بطريق الإمعان وتحقيق الحقائق: أن بيان حقيقة الصفات لو كان بألفاظنا ولغتنا فهي تقصر عنها ولا تعبر عنها حق التعبير، لأنها من وضعنا، وضعناها حسب فهمنا، فكيف تناولها وتشرحها؟ ولا بد من تعريفها إلى الناس (كما سيأتى مفصلاً) ولو كان البيان بما وراء ألفاظنا ولغتنا لما استطعنا فهمها، فما الفائدة في البيان؟!.

(٤) أى: إن لم يطلع الناس على الصفات الإلهية لم ينالوا معرفة الربوبية، التي هي أنفع الأشياء في تهذيب النفوس.

قال الشيخ أبو الحسن على الحسنى الندوى في الأركان الأربعة (ص ٢٢٤): لأن تهذيب النفوس يتوقف على معرفة الصلة بين العبد وبين الرب: إنها صلة غريبة فريدة، لا نظير لها ولا مثال، ولا يفهم هذه الصلة إلا من عرف صفة العبد والرب، والصلة دائماً تابعة للصفة، نابعة منها، إنك لا تستطيع أن تحدد صلة بين طرفين، وبين اثنين، إلا إذا عرفت صفة كل واحد منهما، وعرفت التفاوت والتفاضل بينهما، وعرفت مقدار احتياج أحدهما إلى الآخر، وفضل أحدهما على الآخر. (=)

(=) ولأن الصفات هي التي تثير الحب، وتبعث الحنان، وتوجد الأشواق، ولو لا هذه الصفات العلياء وأسماء الله الحسنى، التي نطق بها القرآن ووردت بها السنة، وهام بها الهائمون، وتغنى بها العارفون، وسبح بها المسبحون، وسبح في بحارها ونزل في أعماقها الغواصون، لكان هذا الدين خشيباً جامداً، لا يملك على أتباعه قلباً، ولا يثير فيهم عاطفة، ولا يبعث فيهم حماسة ولا يحدث في القلب رقة، ولا في الصلوة خشوعاً، ولا في العين دموعاً، ولا في الدعاء ابتهالاً، ولا في الحياة تفانياً، وكانت علاقة العبد بربه علاقة محدودة، ميتة خشبية، لا عاطفة فيها، ولا أشواق، ولا حنان فيها ولا هيام، وإذا أی فرق بين الحياة والموت وبين الإنسان والجماد؟

ولهذا لهجت الصحف السماوية، والأديان والشرائع بالصفات قبل أن تحدد الصلاة وتدعوا إلى العبادات، وتسن الفرائض وتحث على الطاعات ولذا سبقت العقيدة في جميع الأديان العمل والعبادة وأحكامها وشرائعها ودعا جميع الرسل في مختلف الأدوار والأعصار إلى العلم الصحيح، والمعرفة الصحيحة، ووصف الله الوصف الصحيح ودعوا إلى التقديس والتنزيه قبل أن يدعوا إلى شيء آخر. وشغل هذا الموضوع أكبر فراغ في أوقاتهم، وأكبر قسط من جهودهم، وأكبر مكان في صحفهم ودعواتهم وجاهدوا في ذلك الجهاد الأكبر.

والقرآن الذي جاء مهيمنا على هذه الكتب كلها، وكان الكتاب الأخير الخالد أكبر شاهد على ذلك، فهو الموضوع المكرر المتنوع، الذي احتل المكان الرئيسي في هذا الكتاب المعجز اه (بتعديل وحذف كثير)

وقال الإمام ولي الله في التفهيمات (١: ٢٢٩) إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً، هي أسماء الصفات، وواحدًا هو اسم الذات ويمكن للعبد أن يتحقق بكل ذلك؛ والمراد بالتحقق: أن يفنى العبد عن نفسه، ويبقى بالله، ويعطى الوجود الموهوب، ثم يتداخله أسماء الله عز وجل، فيظهر له في نفسه قوى تلك الأسماء، وينقاد العالم له حسب تلك القوى.

والتحقق بأسماء الصفات على أنواع:

منها: التحقق بوجه الانفعال وقبول الأثر، كالمغنى والمعطى، والمنعم، (=)

(=) والوهاب، والرزاق فكثيرا ما يوجه العارف وجه مرآة قلبه إلى هذه الأسماء بكثرة تلاوتها، أو بالتوجه إلى حقائقها المتمثلة في الأمثال. أو بالوجهين جميعا، فتتفعل نفسه وتطاول لهذه الصفة خاصة فينطبع فيها لون هذه الصفة، فيكون حكمة الله تعالى حينئذ أن يسخر الأسباب حتى يكون مرزوقا ومنعما عليه ومعطى له وموهوبا له لي مطابق النظام النفسى والخارجى اهـ (باختصار)

وقال العارف فقير الله بن عبد الرحمن الجلال آبادى فى كتابه " قطب الإرشاد ": إن فى أسماء الله الحسنى ثلاثة أمور:

الأول: أن يتحقق العبد معانى هذه الأسماء على ما اتصف الله تعالى بها.

والثانى: التعلق بهذه الأسماء أن يستغرق العبد فى جلال صفاته وجمال أسمائه بحيث يستشعر بها قلبه كل حين وينقاد لآثارها وأنوارها.

والثالث: التخلق بها أى: ينصبغ العبد بأمثال تلك الصفات ، فيعامل المخلوق بحيث يلوح فيه آثار الاستخلاف والنيابة.

وخذلك مثالا ليتضح منه هذه المراتب الثلاث: فمرتبة التحقق فى " الرحمن " معرفته بأن الله رحمة عظيمة ، ومرتبة التعلق أن يخضع له العبد بقواه وجوارحه، ومرتبة التخلق به أن يرحم المرأ على عبادته، ويواسيه فى مصائبه، ويُعينه فى نوائبه وينفق عليه من يده اهـ. وراجع لمزيد البيان يتيمة البيان ص ٦٣-٦٥.

وبعد ما تحدثنا العلامة الندوى عن حاجة الناس إلى معرفة صفات الله تعالى شأنه، وأفاض علينا الإمام ولى الله علومه الخاصة أدق من الأول، وأرشدنا العارف فقير الله إلى تفصيل ما أجمله الإمام المصنف، نريد أن نشرح المقام بأسهل من هذا فنقول: تهذيب النفوس يتوقف على معرفة الله تعالى بصفاته الكاملة، لأن من يؤمن بالله ولكن لا يعرفه بكونه " رزاقا " فهو مع إيمانه بالله يؤمن بإرزاق كثير من الناس: يعتقد أن الوالد زراق، ومالك المصنع رزاق، والزوج رزاق والسلطان رزاق كما قال فرعون: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ لأنى أرزقكم قال الله تعالى ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ: يَقُومُوا إِلَيَّ مَلِكُ مِصْرَ، وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي؟ أَفَلَا تُبْصِرُونَ؟ ﴾ (الزخرف ٥١)؛ وكذا من يؤمن بالله ولكن لا يعرفه بكونه ربًا، (=)

من حكمة الله تعالى: أنه اختار شيئاً من الصفات البشرية الكاملة التي يعرفونها، ويجرى التمدُّح بوجودها فيما بينهم، فاستعملها بإزاء المعانى الدقيقة الغامضة التي لا مدخل للعقول البشرية فى ساحة جلالها^(١)؛ وجعل^(٢) الأصل المصرَّح بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٣) ترياقاً للداء العُضال^(٤) من الجهل المركب؛ ومنع من إثبات الصفات البشرية التي تثير^(٥) الأوهام إلى العقائد الباطلة، كإثبات الولد والبكاء والجزع له تعالى شأنه.

صفاته تعالى توقيفية

وإن أمعنتَ النظر فى مسألة الصفات الإلهية تجلى لك أن الجرى على مسطرة^(٦) العلوم الإنسانية، غير المكتسبة، وتمييز صفات يجوز أن تُنسب إلى الله تعالى، ولا يقع بها خلل، عن الصفات التي يؤدى إثباتها إلى الأوهام الباطلة، أمر دقيق خطير للغاية، لا يدرك غوره جمهور الناس^(٧)؛ فلا جرم كان هذا العلم

(=) فهو مع إيمانه يتخذ أرباباً كثيرة من دون الله: يتخذ البقرة الغزيرة اللبن ربّة، ويعتقد أن النهر الفياض ربّ أكبر منها، ويزعم بر بوبية الشمس المفيضة النور، كما نرى كل ذلك فى الهند؛ وكذا من يؤمن بالله ولكن لا يعرفه بكونه شديد العقاب ذى الطول، فهو مع إيمانه يرتكب المعاصى، وينتهك الحدود، ولا يبالى. فالحاصل: أن إصلاح النفوس يبتنى على معرفة الله تعالى بصفاته الكاملة.

(١) أى: فاستعمل الله سبحانه وتعالى تلك الصفات البشرية بإزاء صفاتها الكاملة.

(٢) أى: جعل الله تعالى. (٣) سورة الشورى ١١

(٤) الداء العضال الذى أعجزو أعيا الأطباء.

(٥) آثار الشئى: صيره يثور ويهيج.

(٦) المسطر: ما يسطر به الكتاب، والمراد ههنا: الخطوط والمناهج والطرق.

(٧) أى: رعاية الأمرين معاً: رعاية العلوم الإنسانية الخلقية، وإثبات صفات يمكن إثباتها ونفى صفات تثير الأوهام) أمرٌ دقيقٌ، لاتكاد تفهمه أذهان العامة فلا جرم كان علم الأسماء والصفات توقيفياً.

توقيفياً، لم يُسمح فيه بالبحث بحرية وإطلاق^(١).

(١) تكلم الإمام ولي الله في حجة الله البالغة (١: ١٢٨ - ١٣٢) على الصفات مبسوطاً، فأجبت أن أتبه برمته، فهذا نصه:

باب الإيمان بصفات الله تعالى: اعلم أن من أعظم أنواع البر الإيمان بصفات الله تعالى، واعتقاد اتصافه بها، فإنه يفتح باباً بين هذا العبد وبينه تعالى، ويُعده لانكشاف ما هنالك من المجد والكبرياء.

واعلم أن الحق تعالى أجل من أن يقاس بمعقول، أو محسوس، أو يحل فيه صفات، كحلول الأعراض في محالها، أو تعالجه العقول العامة، أو يتناولها الألفاظ العرفية؛ ولا بد من تعريفه إلى الناس ليكملوا كمالهم الممكن لهم؛ فوجب أن تُستعمل الصفات بمعنى وجود غاياتها، لا بمعنى وجود مبادئها، فمعنى الرحمة: إفاضة النعم، لا انعطاف القلب والرقّة و(وجب) أن تُستعار ألفاظ تدلّ على تسخير المَلِك لمدينته، لتسخيره (تعالى) لجميع الموجودات؛ إذ لا عبارة في هذا المعنى أفصح من هذه؛ و(وجب) أن تُستعمل تشبيهات؛ بشرط أن لا يُقصد إلى أنفسها بل إلى معانٍ مناسبة لها في العرف، فيُراد ببسط اليد الجود — مثلاً — وبشرط أن لا يُوهَم المخاطبين إيهاماً صريحاً أنه تعالى في ألوان البهيمية وذلك يختلف باختلاف المخاطبين فيقال: يرى ويسمع، ولا يقال: يذوق ويلمس؛ و(وجب) أن يُسمى إفاضة كل معانٍ متفقة في أمر باسم كالرزاق والمصور؛ و(وجب) أن يُسلب عنه كل مالا يليق به، لا سيما ما لهج به الظالمون في حقه (تعالى) مثل لم يلد ولم يولد.

وقد أجمعت الملل السماوية قاطبتها على بيان الصفات على هذا الوجه وعلى أن تُستعمل تلك العبارات على وجهها، ولا يُبحث عنها أكثر من استعمالها وعلى هذا مضت القرون المشهود لها بالخير، ثم خاض طائفة من المسلمين في البحث عنها، وتحقيق معانيها، من غير نص ولا برهان قاطع، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "تَفَكَّرُوا فِي الْخَلْقِ وَلَا تَفَكَّرُوا فِي الْخَالِقِ" وقال في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾: لا فكرة في الرب؛ والصفات ليست بمخلوقات محدثات، والتفكير فيها إنما هو: أن الحق كيف اتصف بها، فكان تفكيراً في الخالق، قال الترمذي في حديث: "يَدُ اللَّهِ مَلَأَتْ" (٢: ١٣٠) قال الأئمة: نؤمن كما جاء من (==)

(=) غير أن يُفسَّرَ، أو يُتَوَهَّم، هكذا قال غير واحد من الأئمة، منهم : سفيان الثوري، ومالك بن أنس وابن عيينة وابن المبارك: إنه تُروى هذه الأشياء، ويؤمن بها، ولا يقال: كيف؟ (انتهى)

وقال في موضع آخر: (١: ٨٤) في باب فضل الصدقة من أبواب الزكاة: إن إجراء هذه الصفات كما هي ليس بتشبيه، إنما التشبيه أن يقال: سمع كسمع، وبصر كبصر (انتهى) وقال الحافظ ابن حجر: لم يُنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا عن أحد من الصحابة، من طريق صحيح، التصريح بوجوب تأويل شيء من ذلك — يعنى المتشابهات — ولا المنع من ذكره، ومن المحال: أن يأمر الله نبيه بتبليغ ما أنزل إليه من ربه ويُنزل عليه ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ثم يترك هذا الباب، فلا يُمَيِّز ما يجوزُ نسبته إليه تعالى مما لا يجوز، مع حثه على التبليغ عنه بقوله: "ليبلغ الشاهد الغائب" حتى نقلوا أقواله وأفعاله، وأحواله، وما فُعل بحضرته، فدل على أنهم اتفقوا على الإيمان به على الوجه الذى أراد الله تعالى منها، وأوجب تنزيهه عن مشابهة المخلوقات بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فمن أوجب خلاف ذلك بعدهم فقد خالف سبيلهم اهـ.

أقول: ولا فرق بين السمع والبصر والقدرة والضحك والكلام والاستواء، فإن المفهوم عند أهل اللسان من كل ذلك، غير ما يليق بجناب القُدس، وهل في الضحك استحالة إلا من جهة أنه يستدعى الفم، وكذلك الكلام، وهل في البطش والنزول استحالة إلا من جهة أنهما يستدعيان اليد والرجل، وكذلك السمع والبصر يستدعيان الأذن والعين، والله أعلم.

واستطال هؤلاء الخائضون على معشر أهل الحديث، وسمّوهم مجسّمة ومشبهة، وقالوا: هم المتسترون بالبلغة، وقد وضع على وضوحنا، أن استطالتهم هذه ليست بشيء، وإنهم مخطئون في مقاتلهم رواية ودراية، وخاطئون في طعنهم أئمة الهدى.

تفصيل ذلك: أن ههنا مقامين:

أحدهما: أن الله تبارك وتعالى كيف اتصف بهذه الصفات؟ وهل هي (==)

(==) زائدة على ذاته أو عين ذاته؟ وما حقيقة السمع والبصر والكلام وغيرها؟ فإن المفهوم من هذه الألفاظ بادئ الرأي غير لائق بجناب القدس .
والحق في هذا المقام: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتكلم فيه بشيء، بل حجر أمته عن التكلم فيه، والبحث عنه، فليس لأحد أن يقدم على ما حجره.
والثاني: أنه أى شيء يجوز في الشرع أن نَصِفَه تعالى به؟ وأى شيء لا يجوز أن نَصِفَه به؟.

والحق: أن صفاته وأسماءه توقيفية، بمعنى: إنا وإن عرفنا القواعد التي بنى الشرع بيان صفاته تعالى عليها — كما حررنا في صدر الباب — لكن كثيرًا من الناس لو أبيح لهم الخوض في الصفات لَضَلُّوا وأَضَلُّوا؛ وكثيرًا من الصفات وإن كان الوصف بها جائزًا في الأصل، لكن قومًا من الكفار حملوا تلك الألفاظ على غير محلها، وشاع ذلك فيما بينهم فكان حكم الشرع النهي عن استعمالها، دفعًا لتلك المفسدة؛ وكثير من الصفات يُوهم استعمالها على ظواهرها خلاف المراد، فوجب الاحتراز عنها، فلهذه الحكم جعلها الشرع توقيفية، ولم يُبَحَّ الخوض فيها بالرأي.
وبالجملة: فالضحك والفرح والتبشُّب والغضب والرضا يجوز لنا استعمالها، والبكاء والخوف، ونحو ذلك لا يجوز لنا استعمالها، وإن كان المآخذان متقاربين، والمسئلة على ما حققنا معتضة بالعقل والنقل، لا يحوم الباطل بين يديها، ولا من خلفها، والإطالة في إبطال أقوالهم ومذاهبهم لها موضع آخر غير هذا الموضع.

وقال أيضًا (١: ٤٨): أثبت لنفسه صفات يعرفونها، ويستعملونها بينهم من الحياة والسمع والبصر والقدرة والإرادة والكلام والغضب والسخط والرحمة والملك والغنا، وأثبت مع ذلك: أنه ليس كمثله شيء في هذه الصفات، فهو حي لا كحيوتنا، بصير لا كبصيرنا، قدير لا كقدرتنا، مريد لا كإرادتنا، متكلم لا ككلامنا، ونحو ذلك؛ ثم فُسِّرَ عدم المماثلة بأمور مستبعدة في جنسنا، مثل أن يقال: يعلم عدد قطرات المطار، وعدد رمل الفياض، وعدد أوراق الأشجار، وعدد أنفاس الحيوانات، ويصير دبيب النمل في الليلة الظلماء، ويسمع ما يتوسوس به (==)

بيان آلائه تعالى وآيات قدرته:

واختار سبحانه وتعالى من آلائه وآيات قدرته ما يستوى في فهمه الحَضَرِيُّ والبدوي، والعربي والعجمي؛ ولأجل ذلك لم يذكر النعم الروحانية المخصوصة بالعلماء والأولياء،^(١) ولم يُخبر بالنعم الارتفاقية المخصوصة بالملوك^(٢)؛ وإنما ذكر سبحانه وتعالى ما ينبغي ذكره، مثل خلق السموات والأرض، وإنزال المطر من السحاب، وتفجير الينابيع في الأرض، وإخراج أنواع الثمار والحبوب والأزهار بالماء، وإلهام الصنائع والجرف الضرورية^(٣) وخلق القدرة لممارستها ومزاولتها.

وقد نبّه في مواضع كثيرة على اختلاف أحوال الناس عندهجوم المصائب، وانكشافها ببيان الأمراض النفسانية الكثيرة الوقوع.^(٤)

(=) تحت اللحف، في بيوت مغلقة عليها أبوابها، ونحو ذلك هـ.

ولقد طال بنا النفس في هذا التعليق ولكن بقي أشياء فنحن ذاكروها بعد هذا الموضوع (في الفصل الثاني من الباب الرابع) وراجع حجة الله البالغة ١١٦: ١ والتفهيمات الإلهية ٢١٢: ١.

(١) كفرح كشف النكات النافعة، ومسرة حل المعضلات، وكحلاوة العبادة، والانبساط بروية الأنوار الإلهية.

(٢) النعم الارتفاقية: هي التي يحتاج إليها الرجل، ليقضى بها حاجاته النوعية من الأكل والشرب والجماع والاستظلال من الشمس والمطر، والاستدفاء في الشتاء، وغيرها.

(٣) قال الله تعالى في حق داود عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ؟﴾

(٤) أي تغيير مواقف الناس عند السراء والضراء، وأوضح سبحانه وتعالى ذلك بأمثلة الأمراض النفسانية الكثيرة الوقوع ليفهمها جميع الناس، كما قال تعالى: "إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا: إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا" (المعارج ١٩-٢١)

وقال تعالى: ﴿أُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ (سورة النساء ١٢٨) وما إلى ذلك من الآيات الكثيرة، ولم يذكر الأمراض، القليلة الوقوع، أو المخصوصة بموضع دون موضع، أو بصنف دون صنف، لأنه لا يستوى في فهمها جميع الناس.

بيان التذكير بأيام الله

واختار سبحانه وتعالى من أيام الله — أى من الوقائع التى أحدثها الله تعالى من قبيل تنعيم المطيعين، وتعذيب المجرمين — ما قرع أسماعهم^(١) من قبل وكانوا قد سمعوا عنه بالإجمال، مثل قصص قوم نوح وعاد وثمود التى تتلقاها العرب أباعن جد؛ ومثل قصص إبراهيم، وقصص أنبياء بنى إسرائيل عليهم السلام التى ألفتها أسماعهم لطول اختلاط العرب مع اليهود؛ ولم يذكر القصص الغريبة، غير المألوفة للعرب، ولا أخبار مجازاة الفارس والهنود.^(٢)

ذكر من القصص ما هو الغرض منها

وانتزع سبحانه وتعالى من القصص المشهورة جماعاً^(٣) تنفع فى التذكير والموعظة، ولم يسرد القصص بتمامها مع جميع خصوصياتها. والحكمة فى ذلك: أن العوام إذا سمعوا قصة نادرة غاية الندرة، أو ذكرت القصة عندهم بجميع خصوصياتها وتفاصيلها، فإن طباعهم تميل إلى نفس القصة، ويفوتهم الغرض الأساسى الذى هو التذكير.

ومثال ذلك: ما قاله بعض العارفين: "إن الناس لما حفظوا قواعد التجويد شغلوا عن الخشوع فى التلاوة، ولما بدأ المفسرون يتكلمون فى الوجوه البعيدة فى التفسير، أصبح علم التفسير نادراً كالمعدوم".

(١) قرع سمعه أى دق ووقع الكلام فى أذنه.

(٢) المراد بأخبار مجازاة الفارس: حروبهم وملاحمهم، كقصص رستم، وإسكندر، ودارا وغيرها؛ والمراد بأخبار مجازاة الهنود أيامهم الشهيرة، كحرب مها بهارت، وغيرها؛ والمجازاة والجزاء: المكافأة على الشيء.

(٣) الجماع: مجتمع أصله، يقال: هذا الباب جماع هذه الأبواب أى الجامع لها، الشامل لما فيها.

القصص المتكررة فى القرآن:

ومما تكرر من القصص فى القرآن العظيم:

• قصة خلق آدم من الطين، وسجود الملائكة له، واستكبار الشيطان عنه، وكونه ملعونا، وسعيه بعد ذلك فى إضلال بنى آدم^(١).

• وقِصَصُ مُحَاجَّةِ نوح وهود وصالح وإبراهيم^(٢) ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام مع شعوبهم وأقوامهم فى توحيد الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، واستكبار الأقوام عن الإيمان، وإدلائهم^(٣) بشبهات ركيكة، وردود الأنبياء عليها، وابتلاء الأقوام بالعقوبة الإلهية، وظهور نصره الله تعالى فى حق الأنبياء وأتباعهم^(٤).

• وقِصَصُ موسى عليه السلام مع فرعون ومَلَأِهِ، ومع سفهاء بنى إسرائيل ومكابرتهم معه عليه السلام، وعقاب الله تعالى لأولئك الأشقياء، وظهور نصره الله تعالى متتالية لنَجِيَّهِ عليه السلام^(٥).

• وقِصَصُ داود وسليمان عليهما السلام، وخلافتهما وآياتهما وكراماتهما^(٦).

(١) ذكرت فى سورة البقرة ٣٠-٣٩، وسورة الأعراف ١١-٢٥ وسورة الإسراء ٦١-٦٥ وسورة الكهف ٥٠ وسورة طه ١١٦-١٢٣ وسورة ص ٧١-٨٥ وسورة الحجر ٢٦-٤٤.

(٢) ليس ذكر سيدنا إبراهيم فى الأصل الفارسي الذى عندنا.

(٣) أدلى فلان بحجته أى أحضرها.

(٤) كما ذكر ذلك فى سورة الأعراف ٥٩-٩٣ وسورة هود ٢٥-٩٥ وسورة الحجر ٥١-٨٤ وسورة الشعراء ٦٩-١٩١ وسورة الذاريات ٢٤-٤٦ وسورة القمر ٩-٤٠.

(٥) كما ذكر ذلك فى سورة البقرة ٤٩-٧٣ وسورة الأعراف ١٠٣-١٦٢ وسورة الشعراء ١٠-٦٨ وسورة القصص ٣-٦.

(٦) كما ذكر فى سورة النمل ١٥-٤٤ وسورة سبأ ١٠-١٤ وسورة ص ١٧-٤٠.

● وقصص مِحْنَة^(١) أيوب ويونس عليهما السلام، وظهور رحمة الله تعالى لهما^(٢)،

● وقصة دعاء زكريا عليه السلام، واستجابة الله تعالى إياه^(٣).

● وقصص سيدنا عيسى العجيبة: من ولادته من غير أب، وتكلمه في المهد، وظهور الخوارق على يده^(٤).

فذكرت هذه القصص في القرآن العظيم بأساليب متنوعة من الإيجاز والإطناب حسب مقتضى الأساليب المرعية في السور^(٥).

ما ذكرت من القصص مرة أو مرتين فقط

وأما القصص التي لم تتكرر في القرآن ، بل وردت في موضع أو موضعين فحسب، فهي:

● قصة رفع سيدنا إدريس عليه السلام مكانا عليا^(٦).

(١) المحنة: البلاء والشدة ج مَحَنٌ.

(٢) كما ذكر في سورة الأنبياء ٨٣-٨٨ وسورة الصافات ١٣٩-١٤٨.

(٣) كما ذكر في سورة آل عمران ٣٨-٤١ وسورة مريم ٢-١١ وسورة الأنبياء ٨٩-٩٠.

(٤) كما ذكر في سورة آل عمران ٤٥-٥١ وسورة مريم ١٦-٣٦ وسورة الأنبياء ٩١.

(٥) إعادة القصة الواحدة بالفاظ مختلفة، تؤدي معنى واحداً ، من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة، وتبين فيه البلاغة؛ فأعاد الله تعالى كثيراً من القصص، في مواضع مختلفة، على ترتيبات متفاوتة، ونبه بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله، مبتدأ به ومكرراً.

(٦) وذلك في سورة مريم ٥٧ قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ فسرهُ كعب الأحبار برفعه عليه السلام إلى السماء الرابعة في كلام طويل مذكور في التفاسير؛ ولكنه من أخبار كعب الأحبار الإسرائيلية، وفي بعضه نكارة قاله ابن كثير في تفسيره (١٢٦: ٣) وقال في تاريخه (١: ١٠٠) فالصحيح: أنه شرف النبوة والزلفى عند الله، وعلو الرتبة بالذكر الجميل في الدنيا.

- وقصة مُحاجة سيدنا إبراهيم عليه السلام لنمرود^(١)، ومشاهدته لإحياء الطير^(٢)، وقصة ذبح ولده الوحيد^(٣).
- وقصة سيدنا يوسف عليه السلام^(٤).
- وقصة ولادة سيدنا موسى عليه السلام، وإلقائه في اليمّ وقتله القبطى، وتوجهه إلى مَدْيَنَ، وتزوجه هناك، ورؤيته النار على الشجرة، وسماع الكلام منها^(٥).
- وقصة ذبح البقرة^(٦).
- وقصة لقاء موسى مع الخضر عليهما السلام^(٧).
- وقصة طالوت وجالوت^(٨).
- وقصة بلقيس^(٩).
- وقصة ذى القرنين^(١٠).
- وقصة أصحاب الكهف^(١١).
- وقصة الرجلين المتحاورين^(١٢).
- وقصة أصحاب الجنة^(١٣).

(١) فى سورة البقرة ٢٥٨ (٢) فى سورة البقرة ٢٦٠

(٣) فى سورة الصافات ١٠١-١١١ والوحيد: المنفرد

(٤) فى سورة يوسف ٤-١٠١

(٥) فى سورة القصص ٧-٣٥، وسورة طه ٣٨-٤٠، وقال الشيخ أحمد الصاوى فى حاشيته على تفسير الجلالين (٣: ٢٠٣): وليس المراد أنه سمع الكلام من جهة الشجرة فقط، بل المحققون على أنه سمع الكلام بجميع أجزائه — بلا حرف ولا صوت — من جميع جهاته، كما يكون لنا فى الآخرة عند رؤية ذاته جلّ شأنه، بلا كيف ولا انحصار ٥١.

(٦) فى سورة البقرة ٦٧-٧٣ (٧) فى سورة الكهف ٦٠-٨٢

(٨) فى سورة البقرة ٢٤٦-٢٥١ (٩) فى سورة النمل ٢٣-٤٤

(١٠) فى سورة الكهف ٨٣-٩٩ (١١) فى سورة الكهف ٩-٢٦

(١٢) فى سورة الكهف ٣٢-٤٤ (١٣) فى سورة القلم ١٧-٣٣

والجنة: الحديقة.

● وقصة الرسل الثلاثة الذين بعثهم عيسى عليه السلام لدعوة الدين^(١)، وقصة المؤمن الذى قتله الكفار شهيدا^(٢).

● وقصة أصحاب الفيل^(٣).

فليس الغرض من سرد هذه القصص فى القرآن الكريم معرفتها بأنفسها^(٤) بل الغرض الأساسى : هو أن ينتقل ذهن القارئ والسامع إلى شناعة الشرك والمعاصى، ومعاقبة الله تعالى عليها، وأطمئنان المؤمنين بنصرة الله تعالى وتأييده، وظهور أظفاره وأفضاله تعالى فى حق عباده المخلصين^(٥).

(١) فى سورة يس ١٣-١٩ (٢) فى سورة يس ٢٠-٢٩ (٣) فى سورة الفيل

(٤) أى الاطلاع عليها، والتعرف على جزئياتها فحسب.

(٥) قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ، وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة هود ١٢٠) ففى هذه الآية: أن المقصود من سرد قصص الأنبياء أمور أربعة:

الأول: يذكر من القصص والأخبار ما يزداد بها فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم، وأفئدة أمته ثباتا وطمأنينة على أداء الرسالة، وتبليغ الدين، واحتمال أذية الكفار، بالوقوف على تفاصيل أحوال الأمم السالفة فى تماديهم فى الضلال، ومالقى الرسل من جهتهم من مكابدة المشاق بمقتضى ما قيل: إن المصيبة إذا عمت سهلت.

والثانى: جاءنا فى غضون هذه الأنبياء المقصودة علينا الأمر الحق من أنبياءهم، أى: لو وقع الخلط والتحريف فى حالاتهم فالقرآن الكريم يرشدنا إلى ما هو الحق منها، ولو إشارة.

والثالث: ليتعظ بها الكفار.

والرابع: ليتذكر بها أولو الألباب والإيمان.

فالقرآن العظيم لا يسرد قصص الأنبياء بتمامها، بل يجتنى من بينها ما يوفى بالأغراض المذكورة؛ وأما القصص الأخر، ماسوى قصص الأنبياء فلها أغراض شتى، سوى ما ذكرنا، وقد أشار الإمام على الله إلى بعض منها، وليس هذا موضع استقصاءها.

ان التذكير بالموت وما بعده

وقد ذكر رجل شأنه من الموت وما بعده: كيفية الإنسان عند موته، عجزه في تلك الساعة،^(١) وعرض الجنة والنار عليه بعد الموت^(٢)، وظهور لائحة العذاب أمامه^(٣)، وأشراط^(٤) الساعة من نزول سيدنا عيسى عليه السلام وخروج الدجال^(٥) وخروج دابة الأرض^(٦) وخروج ياجوج^(١) كما ذكرت في سورة القيمة ٢٦ - ٣٠.

(٢) قال تعالى في حق آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ (سورة مؤمن ٤٦)

(٣) قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ أَدْبَارَهُمْ، وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (سورة الأنفال ٥٠)

(٤) الأشراط: جمع الشرط: العلامة وأول الشيء.

(٥) قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ﴾ (سورة الزخرف ٦١) قال ابن عباس: هو خروج عيسى ابن مريم — عليه الصلوة والسلام — قبل يوم القيامة اه وقال بن كثير في تفسيره (٤: ١٣٢): الصحيح أن الضمير في (وإنه) عائد على عيسى عليه الصلاة والسلام، فإن السياق في ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم لقيامة — وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أخبر نزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيمة، إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً اه. وقد ذكر الأحاديث الواردة في نزول عيسى ابن مريم في تفسيره (١: ٥٧٨ - ٥٨٤) لشيخ مشايخنا العلامة الكشميري كتاب ممتع رائق حول الأحاديث الواردة في نزول عيسى، أسماه: "التصريح بما تواتر في نزول المسيح"؛ وقرأ (لَعَلَّمَ) بالتحريك أى: أمانة ودليل على اقتراب الساعة، وذلك لأنه ينزل بعد خروج لمسيح الدجال، فيقتله الله على يديه؛ وليس لخروج الدجال ذكر في القرآن صرح من ذلك.

(٦) ذكرها الله تعالى في سورة النمل في الآية ٨٢ وهذه الدابة تخرج في آخر الزمان، عند فساد الناس، وورد في حديث صحيح: "إن أول الآيات (=

وما جوج^(١) ونفخة الصعق، ونفخة القيام^(٢)، والحشر والنشر، والسؤال والجواب، والميزان^(٣) وأخذ صحائف الأعمال بالإيمان والشمالك، ودخول المؤمنين الجنة، ودخول الكفار النار، وتخاصم أهل النار من التابعين والمتبوعين فيما بينهم، وإنكار بعضهم على بعض، ولعن بعضهم بعضا^(٤)، واختصاص المؤمنين برؤية الله تعالى^(٥)، وأنواع العذاب من السلاسل والأغلال والحميم والغساق والزقوم^(٦) وأنواع النعم من الحور والقصور

(=) خروجًا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبته فالأخرى على أثرها قريباً“ (مسلم ٤٠٤: ٢ باب ذكر الدجال) وروى أبو داود الطيالسي عن أبي هريرة مرفوعاً: تخرج دابة الأرض، ومعها عصا موسى، وخاتم سليمان — عليهما السلام — الحديث، وجاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص — رضى الله عنه — أن الجساسة هي دابة الأرض المذكورة في القرآن (شرح النووي على الصحيح لمسلم ٤٠٤: ٢) وقال الراغب: لاسيل لنا إلى الوقوف على حقائقها وأزمانها (قاله في مقدمة التفسير له ص ٦٠١ المطبوع في آخر مفرداته) وليس في الأصل الفارسي ذكر خروج دابة الأرض.

(١) سورة الأنبياء ٩٦ (٢) سورة الزمر ٦٨ (٣) سورة الأعراف ٨

(٤) كما ذكر في سورة الأعراف ٣٨ - ٣٩ وسورة الصافات ٢٧ - ٣٣

(٥) قال تعالى: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ (سورة القيامة ٢٢ و ٢٣) وقال في المكذبين: ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ (سورة التطفيف ١٥) فإنه لما حجب الكفار عن رؤيته خزيا لهم دل ذلك على إثباتها للأبرار وارتفع به الإجمال في قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ (سورة الأنعام ١٠٣) (البرهان ٢: ٢١٦)

(٦) السلاسل جمع السلسلة: حبل الحديد والأغلال جمع الغل: طوق من حديد أو جلد يُجعل في اليد والعنق؛ والحميم: من الأضداد: الماء الحار والماء البارد؛ والغساق: البارد أو المنتن أو ما يسيل من صديد أهل النار؛ والزقوم: شجرة ذات شوكة، تنبت في أصل الجحيم.

والأنهار، والمطاعم الهنيئة والملابس الناعمة^(١) والنساء الجميلات،
ومجالس أهل الجنة الفكهة الطيبة المفرحة للقلوب.
ففرّق سبحانه وتعالى هذه المطالب في مختلف السور بالإجمال
والتفصيل، مراعيًا أساليبها الخاصة.

بيان علم الأحكام

والقاعدة الكلية في مباحث الأحكام: أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث بالملة الإبراهيمية الحنيفية، فلزم إبقاء شرائع تلك الملة، وأن لا يُحدَثَ أيُّ تغيير في أمهات مسائلها؛ اللهم إلا تخصيصاً لعموماتها، وزيادةً للتوقيعات والتحديدات فيها، وأمثال ذلك.

ولما أراد الله سبحانه وتعالى أن يزكّي العرب بنينا صلى الله عليه وسلم،
ويزكّي سائر الأقاليم بالعرب لزم أن تتكوّن مادّة^(٢) شريعته صلى الله عليه وسلم من رسوم العرب وعاداتهم^(٣)

فإذا أنعمت النظر في مجموع شرائع الملة الحنيفية، ولاحظت عادات العرب ورسومهم، وتأملت في تشريعه صلى الله عليه وسلم — الذي هو بمنزلة الإصلاح والتهديب لها^(٤) — علمت أن لكل حكم سببا، وفهمت

(١) الحور جمع الحوراء: البيضاء؛ والقصور جمع القصر: المكان المرتفع؛
والهنيئة: المرغوبة؛ والناعمة: اللينة.

(٢) مادّة الشيء: أصوله وعناصره التي يتكوّن منها، حسيّة كانت أو معنوية، كمادّة الخشب ومادّة البحث العلمي.

(٣) أي مما توارثوها من الملة الحنيفية، وانحرفوا عن جادتها في كثير منها.

(٤) أي لعادات العرب ورسومهم. وحاصل ما قال الإمام المصنف: أنك إذا لاحظت ثلاثة من الأمور: الملة الإبراهيمية، ورسوم العرب وتشريع النبي صلى الله عليه وسلم علمت لكل شيء سببا.

أن لكل أمر ونهى مصلحة، وتفصيل ذلك يطول^(١).

(١) وقد اقتبست من مواضع شتى من حجة الله البالغة، فإليك المقتبسات، وما بين الهالين زيادة منى:

معنى قوله: بُعث بالملة الحنيفية:

واعلم أن النبوة كثيرا ما تكون من تحت الملة كما قال الله تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ وكما قال: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ وسِرُّ ذلك: أنه تنشأ قرون كثيرة على التدئين بدين، وعلى تعظيم شعائره وتصير أحكامه من المشهورات الذائعة، اللاحقة بالبدعيات الأولية — التي لا تكاد تنكر — فتجئ نبوة أخرى لإقامة ما اعوجَّ منها، وصلاح ما فسد منها بعد اختلاط رواية نبيها، ففتش عن الأحكام المشهورة عندهم، فما كان صحيحا موافقا لقواعد السياسة المالية لا تغيّره، بل تدعو إليه، وتحت عليه؛ وما كان سقيما قد دخله التحريف، فإنها تغيّره بقدر الحاجة، وما كان حريا أن يُزاد فإنها تزيده على ما كان عندهم؛ وكثيرا ما يستدلّ هذا النبي في مطالبه بما بقى عندهم من الشريعة الأولى، فيقال عند ذلك: "هذا النبي في ملة فلان النبي" أو "من شيعته" (ج ١ ص ١٩١)

أراد الله أن يزكى به صلى الله عليه وسلم العرب ثم يزكى بهم العالم جميعاً الإمام الأكبر: الذي يجمع الأمم على ملة واحدة يحتاج إلى أن يدعو قوما إلى السنة الراشدة، ويزكيهم ويصلح شأنهم، ثم يتخذهم بمنزلة جوارحه فيجاهد أهل الأديان ويفرقهم في الآفاق، وهو قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وذلك لأن هذا الإمام نفسه لا يتأتى منه مجاهدة أمة غير محصورة.

لزم أن تكون مادة شريعته على رسوم العرب:

وإذا كان كذلك وجب أن تكون مادة شريعته ما هو بمنزلة المذهب الطبيعي لأهل الأقاليم الصالحة، وعربهم وعجمهم، ثم (وجب أن تكون مادة شريعته) ما عند قومه من العلم والارتفاقات، ويراعى فيه حالهم أكثر من غيرهم، ثم يحمل الناس جميعاً على اتباع تلك الشريعة؛ لأنه لا سبيل إلى أن يُفَوَّضَ الأمر إلى كل قوم، أو إلى أئمة كل عصر، إذ لا يحصل منه فائدة التشريع أصلاً، ولا (سبيل) إلى أن ينظر ما عند كل قوم قوم، ويمارس كلا منهم، فيجعل لكل شريعة، إذ (=)

(==) الإحاطة بعاداتهم وما عندهم على اختلاف بلدانهم وتباين أديانهم كالممتنع وقد عجز جمهور الرواة عن رواية شريعة واحدة ، فما ظنك بشرائع مختلفة؟! .
والأكثر أنه لا يكون انقياد الآخرين إلا بعد عُدِدٍ ومُدَدٍ (العدد جمع العُدَّة: الاستعداد؛ والمُدَد جمع المدة: برهة من الزمان) لا يطول عُمرُ النبی إليها، كما وقع في الشرائع الموجودة الآن، فإن اليهود والنصارى والمسلمين ما آمن من أوائلهم إلا جمعٌ، ثم أصبحوا ظاهرين بعد ذلك، فلا أحسن ولا أيسر من أن يُعتبر في الشرائع، والحدود، والارتفاقات عادةً قومه المبعوث فيهم، ولا يُضَيَّق كل التضيق على الآخرين الذين يأتون بعد، ويُبقي عليهم (أى: يَرْحَمهم ويشفق عليهم) في الجملة، والأولون يتيسر لهم الأخذ بتلك الشريعة بشهادة قلوبهم وعاداتهم، والآخرون يتيسر لهم ذلك بالرغبة في سِير أئمة الملة والخلفاء، فإنها كالأمر الطبيعي لكل قوم في كل عصر، قديمًا أو حديثًا.

الأقاليم الصالحة:

والأقاليم الصالحة لتولد الأمزجة المعتدلة كانت مجموعة تحت مَلِكَيْن

كبيرين يومئذ:

أحدهما: كسرى، وكان متسلطاً على العراق واليمن وخراسان وماوَلِيَّها وكانت ملوك مارواء النهر والهند تحت حكمه، يُجْبَى إليه منهم الخراج كل سنة .
والثاني: قَيْصَر، وكان متسلطاً على الشام والروم وما وَلِيَّهما، وكان ملوك مصر والمغرب والإفريقية تحت حكمه، يُجْبَى إليه منهم الخراج، وكان كُسْرُ دَوْلَة هذين الملكين، والتسلط على ملكهما بمنزلة الغلبة على جميع الأرض، وكانت عاداتهم في التَرْفُّه سارية في جميع البلاد التي هي تحت حكمهما وتَغَيَّر تلك العادات وصَدُّهم عنها مفضيا في الجملة إلى تنبيه جميع البلاد على ذلك، وإن اختلفت أمورهم بعده، وقد ذكر الهَرْمُزَانُ شيئاً من ذلك حين استشاره عمر رضى الله عنه في غزوة العجم.

أما سائر النواحي البعيدة عن اعتدال المزاج فليس بها كبير اعتداد في المصلحة الكلية، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "اتركو التُّركَ" (==)

(=) ماتر كو كم، ودَعُوا الحبشة ما ودعوكم“.

وبالجملة: فلما أراد الله تعالى إقامة الملة العوجاء، وأن يُخرج الناس أمة تأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر، وتُغيّر رسومهم الفاسدة كان ذلك موقوفاً على زوال دولة هذين متيسّراً بالتعرض لحالهما، فإن حالهما يسرى في جميع الأقاليم الصالحة، أو يكاد يسرى، ففضى الله بزوال دولتهما فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن هلك كسرى، فلا كسرى بعده، وهلك قيصر فلا قيصر بعده، ونزل الحق الدامغ لباطل جميع الأرض في دمع باطل العرب بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ودمغ باطل هذين المَلِكِينَ بالعرب، ودمغ سائر البلاد بملاهما، والله الحجة البالغة (ج ١ ص ٢٥٤-٢٥٧)

تفصيل ما ذكرنا:

إن كنت تريد النظر في معاني شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فَتَحَقَّقْ:
أولاً: حال الأُمَمِينَ الذين بعث فيهم، التي هي مادة تشريع.

وثانياً: كيفية إصلاحه لها بالمقاصد المذكورة في باب التشريع، والتيسير، وأحكام الملة.

فاعلم أنه صلى الله عليه وسلم بعث بالملة الحنيفية الإسماعيلية، لإقامة عِوَجِهَا، وإزالة تحريفها وإشاعة نورها، وذلك قوله تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ ولما كان الأمر على ذلك وجب أن يكون أصول تلك الملة مسلّمةً وسننها مقرّرة، إذ النبي إذا بعث إلى قوم، فيهم بقية سنة راشدة، فلا معنى لتغييرها وتبديلها، بل الواجب تقريرها، لأنه أطوعُ لنفوسهم، وأثبتُ عند الاحتجاج عليهم.

وكان بنو إسماعيل تَوَارَثُوا منها ج أبيهم إسماعيل، فكانوا على تلك الشريعة إلى أن وجد عمرو بن لحي، فأدخل فيها أشياء برأيه الكاسد، فَضَلَّ وَأَضَلَّ وَشَرَعَ عبادة الأوثان، وسيب السوائب، وبَحَّرَ البحائر، فهناك بطل الدين واختلط الصحيح بالفاسد، وغلبت عليهم الجهل والشرك والكفر، فبعث الله سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم مقيماً لعوجهم، ومصلحاً لفسادهم، فنظر صلى الله عليه وسلم في شريعتهم، فما كان منها موافقاً لمنهاج إسماعيل عليه السلام أو من شعائر الله أبقاه، وما كان منها تحريفاً أو إفساداً أو من شعائر الشرك والكفر أبطله، (=)

(=) وسَجَّلَ على إبطاله، وما كان من باب العادات وغيرها فبيِّن آدابها ومكروها تها مما يُحترز به عن غوائل الرسوم، ونهى عن الرسوم الفاسدة، وأمر بالصالحة، وما كان من مسألة أصلية أو عملية تُركت في الفترة أعادها غَضَّة طرية كما كانت فَتَمَّتْ بذلك نعمة الله، واستقام دينه (ج ١ ص ٢٧١ و ٢٧٢)

وكان من المعلوم عندهم: (أى عند أهل الجاهلية فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم): أن كمال الإنسان أن يُسَلِّمَ وجهه لربه، ويعبده بأقصى مجهوده، وأن من أبواب العبادة: الطهارة، وما زال الغسل من الجنابة سنة معمولة عندهم، وكذلك الختان وسائر خصال الفطرة، وفى التوراة أن الله جعل الختان مِيسْمَةً على إبراهيم وذريته، وهذا الوضوء يفعله المجوس واليهود وغيرهم، وكان يفعله حكماء العرب، وكانت فيهم الصلوة، وكان أبو ذر رضى الله عنه يصلى قبل أن يقدم على النبى صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين، وكان قُتَيْب بن ساعدة الأيادى يصلى، والمحفوظ من الصلاة فى أمم اليهود والمجوس وبقية العرب أفعال تعظيمية، لاسيما السجود وأقوال من الدعاء والذكر، وكانت فيهم الزكوة، وكان المعمول عندهم منها، قِرَى الضيف وابن السبيل، وحملُ الكَلِّ، والصدقة على المساكين، وصلة الأرحام، والإعانة فى نوائب الحق، وكانوا يُمدِّحون بها ويعرفون أنها كمال الإنسان وسعاده — وكان فيهم الصوم من الفجر إلى غروب الشمس، وكانت قريش تصوم عاشوراء فى الجاهلية، وكان الجوار فى المسجد (أى الاعتكاف) وكان عمر نذر اعتكاف ليلة فى الجاهلية، فاستفتى فى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان عاص بن الوائل أوصى أن يعتق عنه كذا وكذا من العبيد.

وبالجملة كان أهل الجاهلية يتحشّون بأنواع التحنّثات، وأما حج بيت الله وتعظيم شعائره والأشهر الحُرْم فأمره أظهر من أن يخفى، وكان لهم أنواع من الرقى والعوذات، وكانوا أدخلوا فيها الإشراك، ولم تزل سنتهم الذبح فى الحلق والنحر فى اللبّة، ما كانوا يَخْنُقون ولا يَبْعَجُون، وكانوا على بقية دين إبراهيم عليه السلام فى ترك النجوم، وترك الخوض فى دقائق الطبيعيات، غير ما ألجا إليه البداهة. وكان العمدة عندهم فى تقدمة المعرفة الرؤيا وبشارات الأنبياء من (==)

(=) قبلهم، ثم دخل فيهم الكهانة والاستقسام بالأزلام والطيرة، وكانوا يعرفون أن هذه لم تكن في أصل الملة، وهو قوله صلى الله عليه وسلم حين رأى صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في أيديهما الأزلام: "لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمَا لَمْ يَسْتَقْسِمَا قَطُّ"

وكان بنو إسماعيل على منهاج أبيهم إلى أن وجد فيهم عمرو بن لحي، وذلك قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم قريبا من ثلاث مائة سنة، وكانت لهم سنن متأكدة يتلاومون على تركها في ماكلهم ومشربهم، ولباسهم، وولائهم، وأعيادهم، ودفن موتاهم، ونكاحهم، وطلاقهم، وعدتهم، وإحدادهم، وبيوعهم ومعاملاتهم، وما زالوا يحرمون المحارم، كالبنات والأمهات والأخوات وغيرها وكانت لهم مزاجر في مظالمهم كالقصاص، والديات والقسامة، وعقوبات على الزنا، والسرقة، ودخلت فيهم من الأكاسرة، والقياصرة، علوم الارتفاق الثالث والرابع؛ قال الإمام في الحجة (١: ٨١): للارتفاقات حدان: الأول: هو الذي لا يمكن أن ينفك عنه أهل الاجتماعات القاصرة، كأهل البدو وسكان شواحق الجبال والنواحي البعيدة من الأقاليم الصالحة، وهو الذي نُسِمَ به بالارتفاق الأول. والثاني: ما عليه أهل الحضر والقرى العامرة، من الأقاليم الصالحة، المستوجبة أن ينشأ فيها أهل الأخلاق الفاضلة والحكماء، فإنه كثر هنالك الاجتماعات، وازدحمت الحاجات، وكثرت التجارب، فاستنبطت سنن جزيلة وعضوا عليها بالنواجذ، والطرف الأعلى من هذا الحد: ما يتعامله الملوك، أهل الرفاهية الكاملة، الذين يَرُدُّ عليهم حكماء الأمم، فَيَنْتَحِلُونَ منهم سننا صالحة وهو الذي نُسِمَ به بالارتفاق الثاني. ولما كمل الارتفاق الثاني أوجب ارتفاقا ثالثا، وذلك: أنهم لما دارت بينهم المعاملات وداخلها الشح والحسد والمطل والتجاهد نشأت بينهم اختلافات ومنازعات، وأنهم نشأ فيهم من تغلب عليه الشهوات الرديئة، أو يُجْبَلُ على الجرأة في القتل والنهب، وأنهم كانت لهم ارتفاقات مشتركة النفع لا يُطِيق واحد منهم إقامتها، ولا تسهل عليه، أولا تسمح نفسه بها فاضطروا إلى إقامة ملك، يقضى بينهم بالعدل، وَيَزْجُرُ عاصيهم، ويقاوم جريهم، وَيَجْبِي منهم الخراج، وَيَصْرِفُهُ في مصرفه، وأوجب الارتفاق الثالث ارتفاقا رابعا: (=)

(=) وذلك أنه لما انفرد كل مَلِك بمدينته وجبى إليه الأموال وانضمَّ إليه الأبطال وداخلهم الشُّخ والجِرْصُ والحِقْدُ تشاجروا فيما بينهم، وتقاتلوا، فاضطروا إلى إقامة الخليفة أو الانقياد لمن تسلَّط عليهم تسلَّط الخلافة الكبرى، لكن داخلهم الفسوق والتظالم بالسبى والنهب، وشيوع الزنا، والنكاحات الفاسدة، والربوا، وكانوا تركوا الصلاة والذكروا عرضوا عنهما، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم فيهم، وهذا حالهم، فنظر في جميع ما عند القوم؛ فما كان بقية الملة الصحيحة أبقاها وسجَّل على الأخذ به، وضبط لهم العبادات بشرع الأسباب والأوقات، والشروط والأركان، والآداب والمفسدات، والرخصة، والعزيمة، والأداء والقضاء، وضبط لهم المعاصي ببيان الأركان والشروط، وشرع فيها حدودًا ومزاجر وكفارات، ويسَّر لهم الدين ببيان الترغيب والترهيب، وسَدَّ ذرائع الإثم والحث على مكملات الخير، إلى غير ذلك مما سبق ذكره، وبالع في إشاعة الملة الحنيفية وتغليبها على المِلَل كلها، وما كان من تحريفاتهم نفاه وبالع في نفيه. وما كان من الارتفاقات الصحيحة سجَّل عليه وأمر به، وما كان من رسومهم الفاسدة مَنَعَهُمْ عنه، وقبض على أيديهم، وقام بالخلافة الكبرى، وجاهد بمن معه من دُونَهُمْ، حتى تمَّ أمر الله وهم كارهون.

وجاء في بعض الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بُعِثْتُ بِالْمِلَةِ السُّمْحَةِ الحَنِيفِيَةِ البِيضَاءِ" يريد بـ (السمحة) ما ليس فيه مَشَاقِ الطاعات، كما ابتدعه الرهبان، بل فيها لكل عذر رخصة، يتأتى العمل بها للقوى والضعيف، والمكتسب والفارغ، وبـ (الحنيفية) ما ذكرنا من إنها ملة إبراهيم — صلوات الله عليه — فيها إقامة شعائر الله، وكبَّت شعائر الشرك، وإبطال التحريف والرسوم الفاسدة، وبـ (البیضاء) أن علَّلها وحكَّمها والمقاصد التي بُنيت عليها واضحة: لا يريب فيه من تأمل وكان سليم العقل، غير مكابر، والله أعلم (ج ١ ص ٢٧٧ - ٢٨١)

ولقد أطنبنا الكلام في هذا المقام لأن رموز الإمام كانت في حاجة شديدة إلى هذا التفصيل الطويل العميق، ولقد آثرنا أن نشرح المقام بكلام الإمام نفسه، لأنه رحمه الله ركب غضنفرًا فمن الرديف له؟!

دور التشريع الإسلامي^(١) في إصلاح الملة الحنيفية المحرّفة:

وبالجملة فقد كان تطرّق إلى العبادات من الطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج والذكر فتورّ عظيم، من جهة التساهل في إقامتها، واختلاف الناس فيها بسبب عدم معرفة أكثرها، وتسرب التحريفات الجاهلية إليها، فأصلح القرآن العظيم ذلك الاختلال كلّهُ، وسوّاها حتى استقام أمرها.

وأما تدبير المنزل^(٢) فقد كانت حدثت فيه رسوم ضارّة، وأنواع تعدّ وعتوّ؛ وهكذا اختلّت أحكام السياسة المدنية؛ فضبط القرآن العظيم لهما أصولاً، وحدد لهما حدوداً، وذكر من هذا الباب^(٣) أنواعاً من الكبائر، وكثيراً من الصغائر، لتحترز الأمة عنها.

وذكر مسائل الصلاة إجمالاً، واستعمل فيها لفظ " إقامة الصلاة " ففضلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأذان وبناء المساجد والجماعة والأوقات، وكذلك ذكر مسائل الزكاة باختصار، وفضلها رسول الله صلى الله عليه وسلم أيّما تفصيل^(٤)، وذكر الصوم في سورة البقرة^(٥)، وذكر الحج

(١) الدور: النوبة. وشرع مبالغة في شرع؛ وشرع الدين: سنّه وبينّه.

(٢) أى الحياة العائلية.

(٣) أى: من باب تدبير المنزل والسياسة المدنية.

(٤) قال الإمام في التفهيمات الإلهية (١: ١٤٩): "كُشف لى عن أصل الشريعة، وعن تبيانها الحاصل على لسان النبي صلى الله عليه وسلم، كما قال عز من قائل ﴿لَتَبَيَّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾"

مثاله: قال الله تعالى: أقيموا الصلوة وآتوا الزكاة، فالإقامة مأخوذة من "قامت السوق": إذا وجد فيها البيع والشراء.

ومعناها ههنا: الترويج والإشاعة؛ فبيّن النبي صلى الله عليه وسلم الترويج المقصود بتوقيت الأوقات، وتعيين عدد الركعات، وتعليم صفة الصلوة، ونشر الأذان، وتأكيد أمر الجماعة والجمع، والتدب إلى بناء المساجد وحضورها فكل هذه الأبواب تبيان لإقامة الصلوة، ولولا بيانه الواضح المفصل لم نعلم شيئاً (==)

أيضاً فيها وفي سورة الحج؛^(١) وذكر الجهاد في سورة البقرة والأنفال وفي مواضع متفرقة أخرى^(٢)؛ وذكر الحدود في المائدة والنور^(٣)؛ وذكر

(=) من ذلك أبداً وكذلك بين إيتاء الزكاة بتعيين النصاب والمقدار الواجب إخراجها، والجنس الواجب إخراجها منه إلى غير ذلك.

ثم عن تبيان تبيانها على السنة الصحابة والتابعين، كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: "اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر" وقال: "أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم".

مثاله: قصر النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة في السفر، والسفر عندنا أمر مبهم فالحق به فعل ابن عمرو وابن عباس بيانا أنه أربعة برد.

ثم عن إيضاحها وتدوين أصولها وفروعها الحاصل على أيدي المجتهدين المتقدمين. مثاله: قال الله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ، وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ فتكلم المجتهدون أن الغسل معناه إسالة الماء فقط أو يشترط معها الدلك؟ والوجه حده من كذا وكذا إلى كذا وكذا، وإلى المرافق معناه مع المرافق وهل يكفي مسمى المسح، ولو على شعرة أو شعرتين، أو لابد من مسح ربع الرأس أو من مسح كله؟

ثم عن شرح مذاهبهم وأقوالهم، والتخريج على قواعدهم، الحاصل على أيدي المتأخرين من الفقهاء في كل مذهب.

وما أصدق ما قيل في ذلك: إن مثله كمثل دَوْحَةٍ نبتت منها غصون كبار، ومن تلك الغصون غصون أخرى صغار، ونبتت في الغصون الصغار أوراق وأزهار. أو مثله كمثل عين، نبع منها جداول كبار، ومن تلك الجداول جداول أخرى صغار، واغترفت من الجداول الصغار في الأواني، ووقع منها شيء في المهاون ومنابت الأشجار اهـ.

(٥) اقرأ الآيات ١٨٣-١٨٧

(١) سورة البقرة ١٩٧-٢٠٣، وسورة الحج ٢٦-٣٧.

(٢) سورة البقرة ١٩٠-١٩٥ و ٢١٧ و ٢٤٤ وسورة الأنفال ١٢-١٩ و ٦٥-٦٩

وسورة الحج ٣٨-٤١ وفي مواضع كثيرة من سورة البراءة.

(٣) سورة المائدة ٣٢-٤٠ وسورة النور ١-١٠.

المواريث في سورة النساء؛^(١) وبَيَّن أحكام النكاح والطلاق في سورة البقرة والنساء والطلاق وغيرها من السور^(٢).

التعريضات التي تحتاج إلى البيان

وإذا عرفتَ هذا القسم الذي تَعُمُّ فائدته جميع الأمة^(٣) فههنا قسم آخر وهو:

- أنه كان يُعَرَّض عليه صلى الله عليه وسلم سؤال، فيجيب عنه^(٤):
- أو تقع حادثة يجود^(٥) فيها المؤمنون بأنفسهم وأموالهم، ويُمسك المنافقون ويتبعون الهوى، فيمدح الله تعالى المؤمنين، ويذم المنافقين ويتوعدهم^(٦).
- أو تقع حادثة من قبيل الغلبة على الأعداء، وكف ضررهم، فَيَمُنُّ الله تعالى بذلك على المؤمنين، ويذكّرهم بتلك النعمة^(٧).
- أو تحدث حالة تحتاج إلى تنبيه أو زجر أو إشارة أو إيماء^(٨) أو أمر، أو نهى، فينزل الله تعالى في ذلك الباب.

فما كان من هذا القبيل فلا بد للمفسر من ذكر تلك القصص بطريق الإجمال أمثلتها:

وقدوردت التعريضات بقصة غزوة بدر في سورة الأنفال،^(٩) وبقصة

(١) سورة النساء ١١ - ١٤ وفي الآية ١٧٦.

(٢) سورة البقرة ٢٢٦ - ٢٤٢ وسورة النساء ١٩ - ٢٥ و ٣٤ - ٣٥ و ١٢٧ - ١٣٠ وسورة الطلاق ١ - ٧

(٣) أي عرفت القسم الذي فيه خطاب عام، ولا يحتاج إلى معرفة شأن نزوله،
(٤) كما سألوا عن الأهلة، وعن القتال في الأشهر الحرم وعن الكلاله فأجيب عنه في القرآن.

(٥) جاد فلان جوداً: سَخَاوَبَدَل، ويقال: جَادَ بماله.

(٦) كما وقع ذلك في غزوة تبوك.

(٧) كما وقع ذلك في غزوة بدر والأحزاب.

(٨) الإيماء: هو الإشارة الدقيقة.

(٩) في الآيات ٥ - ١١.

غزوة أُحُدٍ في سورة آل عمران،^(١) وبقصة غزوة الخندق في سورة الأحزاب^(٢) ، وبقصة صلح الحديبية في سورة الفتح،^(٣) وبغزوة بني النضير في سورة الحشر^(٤)، وجاء الحث والتحريض على فتح مكة وغزوة تبوك في سورة البراءة^(٥)، ووردت الإشارة إلى حجة الوداع في سورة المائدة^(٦)، وجاءت الإشارة إلى قصة زواج زينب رضى الله عنها في سورة الأحزاب^(٧)، وإلى تحريم السُّرِّيَّة^(٨) في سورة التحريم^(٩)، وإلى قصة الإفك في سورة النور،^(١٠) وجاء ذكر استماع وفد الجن تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم في سورة الجن والأحقاف^(١١)، وذكرت قصة مسجد الضُّرار في سورة البراءة^(١٢) وأشير إلى قصة الإسراء في أول سورة بني إسرائيل^(١٣).

هذه الآيات من التذكير بأيام الله

وهذا القسم من الآيات الكريمة في الحقيقة نوع من أنواع التذكير بأيام الله ؛ ولكن لما كان حل الإشارات فيها متوقفا على سماع القصة ميزت عن سائر أقسامها.

-
- | | |
|--|--|
| (١) في الآيات ١٥٢-١٦٨ | (٢) في الآيات ٩-٢٥. |
| (٣) في الآيات ١-١٠ | (٤) في الآيات ١-١٤ |
| (٥) في الآيات ٣٨-٦٦ وما بعدها. | (٦) في الآية ٣٠. |
| (٧) في الآية ٣٦ | (٨) السُّرِّيَّة والجمع سَرَارِيٌّ: الأمة التي تقام في البيت؛ والأغلب أن اشتقاقها من السُّر. |
| (٩) في الآية ٤-١ | (١٠) في الآيات ١١-٢٠. |
| (١١) سورة الجن ١-١٩ وسورة الأحقاف ٢٩-٣٢. | (١٢) في الآيات ١٠٢-١١٠ |
| (١٣) في الآية الأولى. | |

الباب الثانى

فى

بيان وجوه الخفاء فى معانى نظم القرآن بالنسبة إلى

أهل هذا العصر^(١)، وإزالة ذلك الخفاء بأوضح بيان

ليُعلم أن القرآن العظيم قد نزل فى لغة العرب القُحَّة^(٢) المبيَّنة الواضحة^(٣)

وفهم العرب معنى منطوقه بسليقتهم التى جُبلوا عليها، كما قال تعالى:

﴿وَالكِتَابِ الْمُبِينِ﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٥) وقال

تعالى: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ، ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾^(٦)

وكان من مرضى الشارع الحكيم عدم الخوض فى تأويل المتشابهات

القرآنية، وتصوير حقائق الصفات الإلهية، وتسمية المبهم^(٧)، واستقصاء القصص،

وما أشبه ذلك؛ ولذلك قلَّما كانوا يسئلونه صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك^(٨)

(١) أى: بالنسبة إلى أهالى زماننا؛ واحتراز به عن زمان النزول، لأن الخفاء لم يكن حينذاك.

(٢) القُحَّة تأنيث القَحّ: الخالص الخالى من الشوائب الغريبة.

(٣) أى: نزل القرآن بمناهجهم، ولغاتهم ومطابقا لمحاوراتهم.

(٤) سورة الزخرف، ٢ (٥) سورة يوسف ٢ (٦) سورة هود ١

(٧) كأسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعصا موسى من أى الشجر كان؟

وأسماء الطيور التى أحيها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذى ضرب به القتل من

البقرة، ونوع الشجرة التى كلم الله منها موسى، وتعيين التى جاءت لتدعو موسى

إلى أبيها فى مدين أهى الصغرى أو الكبرى؟ إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى فى

القرآن مما لا فائدة فى تعيينه، تعود على المكلفين فى دينهم ولا دنياهم.

(٨) روى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أنه قال: ما كان قوم أقل سؤالا من أمة

محمد صلى الله عليه وسلم، سألوه عن أربعة عشر حرفا، فأجيبوا (البرهان ٤: ٥٢)

ولهذا لم يُرفع^(١) في هذا الباب من الأحاديث إلا شيء قليل.
ولكن لما مضت تلك الطبقة وتدخل^(٢) العجم، وتُركت تلك اللغة الأصلية^(٣) واستُصِيب فهم المراد في بعض المواضع، ومست الحاجة إلى تفتيش اللغة والنحو، وجرت الأسئلة والأجوبة فيما بين الناس، وصُنِفَتْ كتب التفسير، لزم أن نذكر هذه المواضع الصعبة إجمالاً، ونورد لها أمثلة حتى لا يحتاج المفسر عند الخوض فيها إلى زيادة بيان، ولا يضطر إلى المبالغة في الكشف عنها وشرحها^(٤).

أسباب صعوبة فهم المراد من الكلام

فنقول: إن عدم الوصول إلى المراد من اللفظ يكون:

- أحياناً بسبب استعمال لفظ غريب^(٥)، وعلاجه: نقل معنى اللفظ عن الصحابة والتابعين، وسائر أهل المعاني^(٦).
- وأحياناً لقلة الاطلاع على النسخ والمنسوخ.
- وأحياناً للغفلة عن أسباب النزول.

(١) أي: لم يُرو.

(٢) أي: اعتنى العجم الإسلام ومعنى تدخل أي دخل فيه قليلاً.

(٣) الأصلية: الثالثة القديمة.

(٤) أي: لتلا بحثنا الباحث إلى زيادة بيان في شرح نكت المعاني وقت ندرس القرآن الكريم.

(٥) غُرِبَ الكلام غمض وحفى. وغُرِبَ شيءٌ كان غير مأثوف. وغرب من الكلام البعيد الفهم.

(٦) أهل المعاني هم الذين لهم راي ضوئ وفهم واسع في بيان معنى بعض القرآني، قال من الصلاح وحب رأيت في كتب تفسير أن أهل المعاني فالمراد به مصنف الكتب في معاني القرآن. كالمفرد والمفرد، ولا يحسن أن

الأنباري اهـ (الإتقان ١: ١٤١ في النوع ٣٦ والرهدة ١: ١٩١).

- وأحيانا بسبب حذف المضاف أو الموصوف أو غيرهما.
 - وأحيانا لإبدال شيء بشيء ، أو إبدال حرف بحرف ، أو اسم باسم ، أو فعل بفعل ، أو لذكر الجمع مكان المفرد ، أو بالعكس ، أو للالتفات من الخطاب إلى الغيبة.
 - وأحيانا لتقديم ما حقه التأخير أو بالعكس .
 - وأحيانا بسبب انتشار الضمائر ، أو تعدد المراد من اللفظة الواحدة.
 - وأحيانا بسبب التكرار والإطناب .
 - وأحيانا بسبب الاختصار والإيجاز
 - وأحيانا بسبب استعمال الكناية والتعريض والمتشابه والمجاز العقلي .
- فينبغي للإخوة السعداء أن يطلعوا في مبدأ الكلام^(١) على حقيقة هذه الأمور ، وعلى شيء من أمثلتها ، ويكتفوا بالرمز والإشارة في مواضع التفصيل .

الفصل الأول

في

شرح غريب القرآن^(٢)

وأحسن الطرق في شرح الغريب ما صَحَّ عن ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما^(٣)، عن طريق ابن أبي طلحة^(٤) واعتمد

- (١) يعني الكلام في تفسير القرآن الكريم ؛ واطَّلَعَ على الأمر أي عِلِمَهُ .
- (٢) قال الزركشي في البرهان (١ : ٢٩٢) : معرفة هذا الفن للمفسر ضروري ، وإلا فلا يحل له الإقدام على كتاب الله تعالى هـ ، وقد صُنِفَ في غريب القرآن كتب عديدة ومن أشهرها وأحسنها " كتاب المفردات " للراغب الأصفهاني المتوفى سنة ٥٠٢ هـ .
- (٣) هو صحابي جليل ، جَبَر هذه الأمة ، ترجمان القرآن ، ولُقِّبَ بهذا ابن مسعود رضي الله عنه ، فإنه قال : " نِعِمَّ ترجمان القرآن ابن عباس " رواه ابن جرير ، وقد مات ابن مسعود رضي الله عنه في سنة الثنتين وثلاثين ، على الصحيح : وعُمِّرَ بعده عبد الله بن عباس ستا وثلاثين سنة ، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود ؟! (==)

عليه البخارى^(١) فى صحيحه غالباً^(٢)؛ ثم طريق

(==) (التفسير لابن كثير ١: ٣) وقال فى حقه رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل" وحسبك بهذه الدعوة !

ولد رضى الله عنه بمكة سنة ٣ ق هـ وتوفى بالطائف سنة ٦٨ هـ

(٤) هو على بن أبى طلحة سالم بن المخارق الهاشمى ولأء، ولم يصلنا عن نشأته وحياته شئ.

(١) هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى: إمام الدنيا وجبل الحفظ، صاحب الصحيح، ولد سنة ١٩٤ هـ وتوفى سنة ٢٥٦ هـ

(٢) قال السيوطى فى كتابه "الإتقان فى علوم القرآن" (النوع السادس والثلاثون) فى معرفة غريبه: أفردته بالتأليف خلاصاً لا يحصون وأولى ما يرجع إليه فى ذلك ما ثبت عن ابن عباس وأصحابه الآخذين عنه، فإنه ورد عنهم ما يستوعب تفسير غريب القرآن بالأسانيد الثابتة الصحيحة. وما ورد عن ابن عباس من طريق ابن أبى طلحة خاصة، فإنها من أصح الطرق وعليها اعتمد البخارى فى صحيحه هـ.

وقال فى موضع آخر: "وقد ورد عن ابن عباس فى التفسير ما لا يحصى كثرة، وفيه روايات وطرق مختلفة؛ فمن جيدها طريق على بن أبى طلحة الهاشمى، قال أحمد بن حنبل: "بمصر صحيفة فى التفسير، رواها على بن أبى طلحة، لو رَحَلَ رجل فيها إلى مصر، قاصداً ما كان كثيراً"، أسنده أبو جعفر النحاس فى ناسخه.

قال ابن حجر: هذه النسخة كانت عند أبى صالح كاتب الليث، رواها عن معاوية بن صالح عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس.

وهى عند البخارى عن أبى صالح، وقد اعتمد عليها فى صحيحه كثيراً، فيما يعلقه عن ابن عباس. وأخرج منها ابن جرير وابن أبى حاتم وابن المنذر كثيراً، بوسائط بينهم وبين أبى صالح. وقال قوم: لم يسمع ابن أبى طلحة من ابن عباس التفسير، وإنما أخذه عن مجاهد وسعيد بن جبير، قال ابن حجر: بعد أن عُرِفَت الواسطة، وهو ثقة، فلا ضير فى ذلك.

هذا، ولْيَعْلَم أن الإمام البخارى لم يرو فى صحيحه كَلَّ الصحيفة، وإنما روى ما يتعلق بشرح معنى اللفظ الغريب فقط.

وليَعْلَم أيضاً أن ما رواه من شرح اللفظ الغريب ليس كله مما جاء من (==)

.....
.....
.....
.....
.....
.....
(==) الصحيفة فقد روى كثيراً من غير ابن عباس (ملتقاة من مقدمة الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي على كتابه "معجم غريب القرآن مستخرجا من صحيح البخاري") وقد كتب الأستاذ محمد كامل حسين بحثاً رائقاً في فاتحة المعجم المذكور، وهاهو غيَضٌ من فيضه:

"من أقدم الروايات التي وصلتنا عن ابن عباس في تفسير القرآن الكريم، تلك الصحيفة، التي عُرفت بين المفسرين المتأخرين بصحيفة علي بن أبي طلحة.

ابن أبي طلحة:

أما ابن أبي طلحة الذي نعرف به هذه الصحيفة، فهو علي بن أبي طلحة سالم بن المخارق، الهاشمي ولأء، ويكنى بأبي الحسن، وقيل غير ذلك — لم يصلنا عن نشأته وحياته شيء. وكل الذي وصلنا عنه إنما هو في الحديث عن شيوخه الذين أخذ عنهم، وعن هؤلاء الذين رَوَّاعنه؛ ثم عن توثيقه أو تجريحه، ويكاد يجمع الذين تحدثوا عنه من المؤرخين والمحدثين أنه لم يرو عن ابن عباس مباشرة، إنما أخذ رواية ابن عباس بواسطة بينهما، واختلف المؤرخون في من كان بينه وبين ابن عباس، فأبوجعفر النحاس يذهب إلى أنه مجاهد أحياناً وعكرمة أحياناً أخرى. أي: إن سلسلة الرواية هي علي بن أبي طلحة عن مجاهد عن ابن عباس أحياناً، وعلي بن أبي طلحة عن عكرمة عن ابن عباس أحياناً أخرى؛ وجعل السيوطي الوسطة هو مجاهد طوراً، وسعيد بن جبير طوراً آخر، ولانستطيع أن نتبين الحقيقة، لأن الذين رَوَّاعه أبي طلحة أغفلوا ذكر من كان بينه وبين ابن عباس، ومن ههنا جاء الطعن في إسناده، وقد دافع عنه أبوجعفر النحاس، وعدَّله في رواية هذه الصحيفة أحمد بن حنبل على النحو الذي رأيناه في النص الذي نقله عنه أبوجعفر النحاس، غير أن ابن حنبل كان يقول عنه: "له أشياء منكرات" وذكره ابن حبان في الثقات، وقال: "روى عن ابن عباس ولم يره" وروى له مسلم حديثاً واحداً في ذكر العزل (في كتاب النكاح في باب حكم العزل) وروى له المحدثون حديثاً آخر في الفرائض، وقد ذكرنا أن (==)

الضحاك^(١) عن ابن عباس، وأجوبة ابن عباس عن سؤالات نافع بن الأزرق^(٢)؛
(==) البخارى نقل من صحيفته فى التفسير الذى رواه عن ابن عباس شيئا كثيرا فى
التراجم وغيرها، بالرغم من أنه لا يُسميه.

وهناك عدد من العلماء أنكروا الرواية عن ابن أبى طلحة بجانب هؤلاء الذين
عدّلوهم فمن الذين لم يوثقوه: يعقوب بن سفيان الذى قال عنه: ضعيف الحديث
منكر، ليس محمود المذهب وقال فى موضع آخر: شامى ليس هو بمتروك ولا هو
حجة. ولعل هذا هو السبب الذى من أجله لم يرو البخارى شيئا من الأحاديث عن
طريقه، بل لم يذكره فى إسناده حينما أخذ من صحيفته فى التفسير، على أن الذين
وثقوه، والذين جرحوه اتفقوا جميعا على صحة رواية الصحيفة التى عرفت به فى
التفسير.

والذى نقله البخارى من صحيفته لم يتجاوز مفردات غريب القرآن حتى
وهم السيوطى فى إتقانه أن ما نقله البخارى هو كل ما فى صحيفة على بن أبى
طلحة، بينما نرى ابن جرير لم يرو معانى مفردات الغريب، كما فعل البخارى بل
نرى فى روايته عن طريق ابن أبى طلحة تفسيراً تاماً للآيات، فهو يذكر ناسخ الآيات
ومنسوخها، وأسباب النزول.

فصحيفته إذن لم تكن فى تفسير مفردات غريب القرآن، كالذى نفهمه من
كلام السيوطى فى الإتقان، أو ما نقله البخارى فى صحيحه فإن التفسير فى تلك
الصحيفة كان أشمل وأعم مما وهم السيوطى أو ما نقله البخارى اهـ.

(١) الضحاك: هو ابن مزاحم الهلالى ولأء، البلخى الخراسانى، أبو القاسم مفسر،
قال سعيد بن جبیر؛ لم يلق ابن عباس، ووثقه أحمد وابن معين وأبو زرعة، وقال ابن
عدى: فى جميع ما روى نظر، إنما اشتهر بالتفسير مات سنة ١٠٥ هـ، قال ابن حجر:
ذكر البخارى عنه شيئا موقوفاً، وهو تفسير قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾ فقال فى
كتاب اللعان: وقال الضحاك: إلا رمزا أى إشارة (من تهذيب التهذيب ٤: ٤٥٣)

(٢) نافع بن الأزرق الحرورى، من رؤس الخوارج وإليه تنسب طائفة الأزارقة، قتل
فى جمادى الآخرة سنة ٦٥ هـ وروى السيوطى بالسند المتصل: بينما عبد الله بن
عباس جالس بفناء الكعبة، قد اكتنفه الناس، يسألونه عن تفسير القرآن، (==)

وقد ذكر السيوطي^(١) هذه الطرق الثلاث في كتابه: "الإتقان في علوم القرآن"^(٢).

ثم ما نقله البخاري من شرح الغريب عن أئمة التفسير^(٣)، ثم مارواه سائر المفسرين عن الصحابة والتابعين وأتباعهم رضى الله عنهم من شرح غريب القرآن. وأرى من المناسب أن أجمع في الباب الخامس من هذه الرسالة جملة صالحه^(٤) من شرح غريب القرآن مع بيان أسباب النزول، وأجعلها رسالة مستقلة^(٥) فمن شاء ضمها إلى هذه الرسالة، ومن شاء أفرد لها على حدة: ^(٦)

وللناس فيما يعشقون مذاهب

(==) فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر: قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما إليه فقالا: إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله، فتفسرها لنا، وتأتينا بمصادقه من كلام العرب، فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فقال ابن عباس: سلاني عما بدا لكما.

ثم سرد الإمام السيوطي مسائل نافع. مسألة مسألة، وجواب ابن عباس عن كل مسألة منها.

(١) هو عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي جلال الدين: إمام حافظ، ولد سنة ٨٤٩هـ وتوفي سنة ٩١١هـ له نحو ٦٠٠ مصنف.

(٢) الإتقان في علوم القرآن: كتاب ممتع رائع جامع مطبوع، وضعه السيوطي كمقدمة لتفسيره: "مجمع البحرين ومطلع البدرين" ذكر فيه علوم القرآن في ثمانين نوعاً، وشرح الغريب في النوع ٣٦ فنقل شرح الغريب أولاً بطريق ابن أبي طلحة، ثم أكمله بطريق الضحاك، ثم ساق في فصل مستقل أسئلة نافع بحذف بضعة عشر سؤالاً.

(٣) كمجاهد والحسن وقتادة وابن المسيب وابن عيينة ومعمرو وغيرهم.

(٤) أى: مقداراً كافياً.

(٥) سماها الإمام بـ "فتح الخبير بما لا بد من حفظه في علوم التفسير"

(٦) لم نضم فتح الخبير مع الفوز الكبير في شرحنا هذا، لعدم شموله في الدرس في المدارس الإسلامية بالهند.

القدماء ربما يفسرون اللفظ بلازم معناه

ومما ينبغي أن يُعلم هنا: أن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ربما يفسرون اللفظ بلازم معناه^(١)؛ وقد يتعقب المفسرون المتأخرون ذلك التفسير القديم، من جهة تتبع اللغة، وتفحص موارد الاستعمال^(٢). والغرض المطلوب في هذه الرسالة: ^(٣) سرّد تفسيرات السلف بعينها، ولنقلدها وتنقيحها موضع آخر غير هذا الموضع: فلكل مقام مقال، ولكل نكتة مجال

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٥: ١) تُذكر أقوالهم (يعني المتقدمين من المفسرين) في الآية فيقع في عبارتهم تباين في الألفاظ، يحسبها من لاعلم عنده اختلاف، فيحكيها أقوالاً، وليس كذلك فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في أكثر الأماكن، فليفتن اللبيب لذلك، والله الهادي اه وقال الزركشي في البرهان (٢: ١٥٩) يكثر في معنى الآية أقوالهم واختلافهم ويحكيه المصنفون للتفسير بعبارات متباينة الألفاظ، ويظن من لافهم عنده أن في ذلك اختلافاً فيحكيه أقوالاً، وليس كذلك بل يكون كل واحد منهم ذكر معنى ظهر من الآية، وإنما اقتصر عليه لأنه أظهر عند ذلك القائل، أو لكونه أليق بحال السائل. وقد يكون بعضهم يخبر عن الشيء بلازمه ونظيره، والآخر بمقصوده وثمرته، والكل يزول إلى معنى واحد غالباً، والمراد الجميع فليفتن لذلك؛ ولا يفهم من اختلاف العبارات اختلاف المراتد كما قيل:

عباراتنا شتى وحسنك واحد وكل إلى ذلك الجمال يشير

(٢) مع أن تعقيبه غير ملائم بل هو من قبيل:

كم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

(٣) يعني: فتح الخير.

الفصل الثانى

فى

معرفة الناسخ والمنسوخ^(١)

من المواضع الصّعبة فى علم التفسير التى مباحثها كثيرة، والاختلاف فيها واسع: معرفة الناسخ والمنسوخ ؛ ومن أقوى وجوه الصّعوبة: اختلاف اصطلاح المتقدمين والمتأخرين.

معنى النسخ عند المتقدمين:

والذى وضح لنا باستقراء^(٢) كلام الصحابة والتابعين: أنهم كانوا

(١) والعلم به عظيم الشأن، بل هو من تنمة الاجتهاد؛ وقال الأئمة: لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف الناسخ والمنسوخ، وقد مر على بن أبى طالب رضى الله عنه على قاصّ (:خطيب) فقال له: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا! قال: هلكت! وأهلك! (أسنده الحازمى فى الاعتبار ص ٤) والآثار فى هذا الباب تكثر جداً، وقد صنف فيه خلّاق لا يحصون، منهم أبو جعفر النحاس، أحد أئمة العلم واللغة بمصر (المتوفى سنة ٣٣٨هـ) وكتابه الناسخ والمنسوخ مطبوع بمصر، وصنف الشيخ هبة الله بن سلامة الضرير (م ٤١٠هـ) وكتابه أيضاً مطبوع بمصر على هامش أسباب النزول للواحدي، وكذا صنف أبو الفرج ابن الجوزى (م ٥٩٧هـ) وكتابه "اخبار الرسوخ بمقدار الناسخ والمنسوخ" مطبوع بمصر، مع مراتب المدلسين لابن حجر العسقلاني، وكذا صنف ابن حزم، وكتابه "معرفة الناسخ والمنسوخ" مطبوع على هامش تفسير الجلالين؛ وصنف الشيخ صديق بن حسن خان البوفالى رسالة بالفارسي، أسماها: إفادة الشيوخ بمقدار الناسخ والمنسوخ، وهى مطبوعة بالهند؛ وكذا صنف ابن العربى المالكي والعلامة السيوطى وغيرهم، وأخيراً بذل الدكتور مصطفى زيد جهده، فصنف: النسخ فى القرآن الكريم (دراسة تشريعية تاريخية نقدية) فى مجلدين.

(٢) استقرأ الأمور: تتبعها لمعرفة أحوالها وخواصها.

يستعملون "النسخ" فى معناه اللغوى، الذى هو "إزالة شئ بشئ" (١)، لا بمعنى مصطلح الأصوليين (٢) فمعنى النسخ عندهم: "إزالة بعض أوصاف الآية بآية أخرى" (٣) سواء كان ذلك:

(١) النسخ لغة يُطلق على معنيين:

أحدهما: "الإزالة"، ومنه قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ، إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ، فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ، ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ (سورة الحج ٥٢ وراجع تفسيره من حجة الله ٢: ٥٦٩) ومنه قولهم: نَسَخَتِ الشَّمْسُ الظِّلَّ، ومنه "النسخة" للطبيب، سُمى بها تفاؤلاً؛ أى الأدوية التى تُزيل المرض.
والآخر: "النقل" و"التحويل" ومنه نَسَخْتُ الكتابَ أى: نقلته، والمناسَخات: لانتقال الملك من وارث إلى وارث.

وهل هو حقيقة فى الإزالة، مجاز فى النقل، أو بالعكس، أو مشترك بينهما؟ فيه مذاهب، حكاهما ابن الحاجب من غير ترجيح، ورجح الإمام الرازى الأول، قال: لأن النقل أخص من الزوال، فإن النقل إعدام صفة وإحداث أخرى، وأما الزوال فمطلق الإعدام، وكون اللفظ حقيقة فى العام، مجازاً فى الخاص أولى من العكس، لتكثير الفائدة اهـ (نهاية السؤل فى شرح منهاج الأصول ٢: ٢٣ بهامش التقرير والتحجير لابن أمير الحاج)

(٢) النسخ عند الأصوليين: بيان انتهاء حكم شرعى، بطريق شرعى، متراخ عنه حتى لايجوز امتثاله، ولك أن تقول: إنه الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم، على وجه لولاه لكان ثابتاً، مع تراخيه عنه. ومغزى الحديثين الصحيحين: أن المنسوخ يكون بحيث لايبقى حكمه فى وجه من الوجوه، ولا يكون له محمل من المحامل.

(راجع مقدمة الإمام الراغب ص ٦٠٠ والإتقان النوع ٤٧ ونهاية السؤل ٢:

٢٣ ويتممة البيان ص ٧٩ وكتاب الاعتبار للحازمى ص ٦)

(٣) يعنى: عند المتقدمين (الصحابة والتابعون من بعدهم) فإنهم كانوا يرون أن النسخ هو مطلق التغير الذى يطرأ على بعض الأحكام فيرفعها ليحلَّ غيرها محلها.

• بيان انتهاء مدة العمل^(١).

• أو بصرف الكلام عن المعنى المتبادر إلى غير المتبادر^(٢).

• أو بيان كون القيد إتفاقيا^(٣).

(١) وذلك كما قيل (في الآية ١٠٩ من سورة البقرة) ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ الآية منسوخة، وناسخها قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (إلى قوله) حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿(التوبة ٢٩) وقال مكى: ذكر جماعة أنها محكم غير منسوخ، لأنه مؤجل بأجل، والمؤجل بأجل لا نسخ فيه اه (معرفة الناسخ والمنسوخ لابن حزم والإتقان)

ومن هذا القبيل: ما أمر به لسبب ثم يزول السبب، كالأمر حين الضعف والقلة بالصبر والصفح، ثم نسخ بإيجاب القتال، وهذا في الحقيقة ليس نسخاً بل هو من قسم المنسأ كما قال الله تعالى: أو ننسأها (سورة البقرة ١٠٦ كما في قراءة ابن كثير) والمنسأ: هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون، وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى، وبهذا يضعف هالهج به كثيرون من أن الآيات في ذلك منسوخة، بآية السيف، وليس كذلك بل هي من المنسأ، بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما، لعلة يقتضى ذلك الحكم، ثم ينقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، وليس بنسخ، إنما النسخ الإزالة للحكم حتى لا يجوز امتثاله اه (الإتقان نوع ٤٧)

(٢) وذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ (النساء ١٠) وذلك: أنه لما نزلت هذه الآية امتنعوا من أموال اليتامى وعزلوهم، فدخل الضرر على الأيتام، ثم أنزل الله تعالى: ﴿وَيْسًا لَّوْنَكَ عَنِ الْيَتَامَى؟ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ (البقرة ٢٢٠) فرخص في المخالطة، ولم يرخص في أكل الأموال بالظلم، وأدخلوه في المنسوخ (معرفة الناسخ والمنسوخ ص ١٥٤) وليس نسخاً، بل هو من قسم صرف الكلام عن المعنى المفهوم إلى المعنى الحقيقي الغير المتبادر.

(٣) كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ، إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية (سورة النساء ١٠١) (==)

• أو بتخصيص عام^(١).

• أو ببيان الفارق بين المنصوص وبين ما قيس عليه ظاهراً^(٢).

• أو بإزالة عادة من العادات الجاهلية^(٣).

(==) قال أبو جعفر النحاس: أما الذين قالوا: إن الآية منسوخة فقد قالوا إن المراد بها المنع من قصر الصلاة إلا في الخوف، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك أنه قصر في غير الخوف، آمن ما كان في السفر، ففعله إذن ناسخ للآية اهـ (النسخ في القرآن ٢: ٧٠٦)

(١) قال السيوطي، وقسم هو من قسم المخصوص، لا من قسم المنسوخ، وقد اعتنى ابن العربي بتحريره فأجاد كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُنُ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ وغير ذلك من الآيات التي خصت باستثناء، أو غاية، وقد أخطأ من أدخلها في المنسوخ (الاتقان نوع ٤٧)

(٢) كقياس أهل الجاهلية جواز الربوا على البيع قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ (سورة البقرة ٢٧٥) وقياسهم هذا باطل قال الله تعالى بيانا للفارق بين المقيس والمقيس عليه: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ وكقياس أهل الجاهلية جواز البحائر والسوائب على الضحايا والقرايين فرد الله تعالى عليهم في قوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ﴾ الآية

قال الإمام المصنف في الخير الكثير (ص ١٢٦): النسخ كان في اصطلاح الصدر الاول بإزاء معنى الإزالة فقط، أعم من أن يكون زوالا لزوال العلماء كنسخ النجوم والخط، أو رفعا لقياس باطل كنسخ البحائر والسوائب، أو بيانا لانتهاؤ مدة الحكم اهـ.

(٣) قال السيوطي: وقسم (هو) رفع ما كان عليه الأمر في الجاهلية، أو في شرائع من قبلنا: أوفى أول الإسلام، ولم ينزل في القرآن، كإبطال نكاح نساء الآباء، ومشروعية القصاص والدية، وحصر الطلاق في الثلاث، وهذا إدخاله في قسم الناسخ قريب، ولكن عدم إدخاله أقرب، وهو الذي رجحه مكى وغيره، ووجهه بان ذلك لوعد في الناسخ لعد جميع القرآن منه، إذ كله أو أكثره رافع لما كان عليه الكفار وأهل الكتاب الخ (الاتقان نوع ٤٧)

عدد الآيات المنسوخة عند المتقدمين:

فأتسع باب النسخ عندهم، وكثر جَولان العقل فيه، واتسعت دائرة الاختلاف لديهم، ولذلك بلغت الآيات المنسوخة عندهم إلى خمس مائة آية؛ بل إذا حققت النظر تجدها غير محصورة؛^(٢) وأما المنسوخ حسب اصطلاح المتأخرين فلا يتجاوز العدد القليل، لاسيما حسب ما اخترناه من التوجيه^(٣).

(١) الشريعة: القانون والحكم من الأحكام.

(٢) إذ لو عُدَّ مثل ذلك في الناسخ والمنسوخ لعدَّ جميع القرآن منه؛ إذ كُله أو أكثره تغيير لما كان عليه المشركون وأهل الكتاب من قبل.

(٣) اعلم أن في النسخ مسائل:

الأولى: نسخ شرائع الأنبياء بعضها ببعض، وهذا النسخ جائز عقلاً وواقع سمعاً خلافاً لليهود، وهم — لعنهم الله — تَوَسَّلُوا بذلك إلى إبقاء دين اليهودية. والثانية: وقوع النسخ في جزئيات الشريعة الغراء، وهذا أيضاً جائز عقلاً، وواقع سمعاً، واتفقت الأمة عليهما.

والثالثة: وجود الآيات المنسوخة في هذا القرآن الذى هو بأيدينا، فذهب الجمهور إلى وجودها، واختلفوا فى إحصاء مانسخ منه، فأكثر منه القدماء لتوسعهم فى إطلاق النسخ، وما زال المتأخرون يَسْعَوْنَ فى تقليله حتى جعله الشيخ السيوطى نحو عشرين، وزاد عليه فى التقليل صاحبنا الإمام حجة الهند ونابعثها فى كتابه هذا حتى حصره فى خمسة، وذهب جماعة فى القديم والحديث إلى إنكار وجود الآيات المنسوخة فى القرآن، حتى قال الشيخ عبيد الله بن الإسلام السندى (تلميذ شيخ الهند) فى كتابه: شاه ولي الله اوران كا فلسفہ بالأردية ماعريه: ظنى: أن أصل مقصود الإمام ولى الله أن لا وجود للآيات المنسوخة بالكلية فى القرآن الكريم؛ ولكنه رحمه الله لم يصرح بذلك للمصلحة، لأن صراحته يشبه قوله بقول المعتزلة، فيطرح عامة أهل العلم قوله، ويفوت الغرض الأصلي الذى يروم، فاختر (=)

الآيات المنسوخة عند المتأخرين:

وقد ذكر الشيخ جلال الدين السيوطي في "الإتقان" عن بعض العلماء ما ذكرناه آنفاً، بتقرير مبسوط كما ينبغي؛ ثم حرّر^(١) المنسوخ طبق رأي

(=) أسلوباً حكيمياً فبين توجيه الآيات المشككة، وسلم النسخ في الآيات السهلة اه (ص ٧٥) ويؤيد مقاله ابن الإسلام صنيع الإمام في هذا الكتاب فإنه أشار إلى أن هذا الاختلاف ليس اختلافاً حقيقياً؛ بل هو اختلاف لفظي، راجع إلى اختلاف اصطلاح القوم في معنى النسخ، وكتب المصنف في التفهيمات الإلهية (١٧٣: ٢): للمفسرين فيما بينهم اختلاف كثير، ولما فتشنا أقاويلهم، وحذقنا النظر فيها وجدناها على صنوف ومنها: اختلافهم في النسخ، والحق عندي: أن ذلك باجتهاد واستنباط، ولذلك قال أئمة الأصول: لا يعرض بالنواجز على قولهم بالنسخ حتى يُكشَفوا جليلة الحال، وبينوا أن الآية الأولى نزلت يوم كذا، والثانية يوم كذا، بشيء يسكن إليه القلب اه فيميل القلب إلى قول الإمام المحدث الكبير الشيخ محمد أنور شاه الكشميري: لا يكاد يوجد شيء في القرآن المتلو منسوخاً في الحكم، بحيث لا يبقى حكمه في وجه من الوجوه، أو محمل من المحامل، بل لا جرم يوجد حكمه مشروغاً في مرتبة من المراتب، وحال من الأحوال وزمان من الأزمان اه (حكاية تلميذه العلامة محمد يوسف البنوري في يتيمة البيان مقدمة مشكلات القرآن ص ٧٩) وادعى في أماليه: أن النسخ لم يرد في القرآن رأساً، أعني بالنسخ: كون الآية منسوخة في جميع ماحوته، بحيث لا تبقى معمولة في جزئ من جزئياتها، فذلك عندي غير واقع، وما من آية منسوخة إلا وهي معمولة بوجه من الوجوه، وجهة من الجهات اه (فيض الباري بشرح صحيح البخاري ١٤٧: ٣) وراجع البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي (٤٢: ٢ - ٤٣)

(١) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضير،

السيوطي جلال الدين: إمام، حافظ، مؤرخ، فقيه، أديب، محدث، مفسر ولد سنة

٨٤٩ هـ وتوفي سنة ٩١١ هـ.

(١) حرّر الكتاب: حسنه وأصلحه.

المتأخرين. موافقا لرأى الشيخ ابن العربي "العهدة لربها من مشهورين الآية" ، المقصود
في أكثرها نظر. فلنورد كلامه مع التعليق^(١).

فمن البقرة

١- قوله تعالى: ﴿لَكُمْ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ﴾ الآية^(٢) منسوخة.
قيل: بآية المواريث^(٣) وقيل: بحديث: لا وصية لوارث^(٤) وقيل بالإجماع.
حكاه ابن العربي.

قلت: بل هي منسوخة بآية: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ وحديث "لا وصية"
مبين للنسخ^(٥).

(١) هو أبو بكر محمد بن عبد الله القاضي المالكي. المعروف بابن العربي المعافري
الأندلسي ولد سنة ٤٦٨ هـ وتوفي سنة ٥٤٣ هـ: وصنف أحكام القرآن في أربع
مجلدات كبار (مطبوع بمصر) وغارضة الأحكام على سنن الترمذي (مطبوع)
وغيرهما من الكتب المفيدة: وهو غير الشيخ ابن عربي الصوفي.

(٢) عُقب على كلامه تعقيبا: أى علق عليه. فلما أن ينقضه أو يرد عليه أو يفنده.
وعُقب على فلان: بين عيوبه وأغلاطه: وعُقب الشيء: أتى بشئ بعده.

(٣) رقم الآية ١٨٠ وتام الآية: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْأُولَئِينَ وَالْأَقْرَبِينَ
بِالْمَعْرُوفِ. حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾

(٤) المراد بآية المواريث قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ الآية
١١-١٤ من سورة النساء.

(٥) رواه عشرة من الصحابة. وخُرجه أصحاب السنن غير النسائي عن أبي أمامة
وغير أبي داود عن عمرو بن خارجة وقال الترمذي: حديث حسن صحيح اه
وتلقته الأئمة بالقبول. واحتج به من ذهب إلى جواز نسخ القرآن بالسنة. ولو
أحاذوا وراجع لتخريج الحديث نصب الراية للزيلعي (٤: ٤٠٣ - ٤٠٥)

(٦) لعل المصنف لا يجوز نسخ القرآن بالأحاد. فقال: بل منسوخة الخ وقال لقادة
وطاوس وحسن البصري وغيرهم: ليس بمنسوخ. بل يمكن الجمع بين الوصية
والميراث، وقال الشوكاني: الآية وإن كانت عامة. لكنها خاصة معنى. والمراد (بـ)

٢- قوله تعالى ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَ فَدْيَةً طَعَامٌ مَسْكِينٍ﴾ "١" قيل: مسوخة بقوله تعالى ﴿لَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرُ فَلْيَصُمْهُ﴾ "٢" وقيل: محكمة. ولا مقترنة "٣"

قلت: عندي وجه آخر: وهو أن المعنى: وعلى الذين يطيقون الطعام "١"، فدية، هي طعام مسكين؛ فاضمر قبل الذكر لأنه متقدم رتبة "٢"؛ وذكر الضمير، لأن المراد من الفدية هو الطعام "٣"؛ والمراد منه صدقة الفطر؛ عطف الله تعالى الأمر (ـ) بالوالدين: الذين ليسوا بوارث لكفرهم أوقفهم، وبالأقربين سوى الورثة؛ وروى عن الشعبي والنخعي ومالك أن الوجوب منسوخ والندية باقية.

قلت: عندي وجه آخر: وهو أن الآية معمولة في بعض الوجوه، أي إذا خاف المورث أن أولاده لا يقسمون الميراث حسب ما أمر الله تعالى سبحانه، ويظن أن بعضهم يظلمون بعضاً بعد موته، فحجب عليه الوصية لجميع الورثة حسب ما قدر الله أنصابتهم، ويشهد على وصيته ذلك، بل يستعمله في محكمة القضاء لنلا يظلم بعضهم بعضاً بعد موته، وعلى هذا فلا تعارض بين هذه الآية وآية الموارث؛ وأما حديث: "لا وصية" فهو معقول عن هذا المبحث؛ وهذا التوجيه ظاهر من سياق الآية، وح تكون للآية مناسبة بما قبلها أيضاً، فإن قبلها آية القصاص فلما ذكر سبحانه القصاص ذكر بعده أن على الناس أن يستدوا مواضع الفساد ويغلقوا أبواب القتال بتدابير صحيحة كالوصية مثلاً إذا خاف المورث وترك ماله عظيماً وخيراً كثيراً والله أعلم بأسرار كتابه

(١) سورة البقرة رقم الآية ١٨٤ (٢) سورة البقرة رقم الآية ١٨٥

(٣) وتكون الآية للشبح القاسي. وضمير يطيقونه يرجع إلى الصوم.

(٤) أي: يطيقون الإطعام. لكونهم أصحاب نضب بقدرة ممكنة.

(٥) أي: أتى بالضمير في قوله: يطيقونه قبل ذكر المرجع، وهو الطعام، لكونه متقدماً رتبة، لأن قوله: فدية هي طعام مسكين مبتدأ مؤخر، وقوله: وعلى الذين يطيقونه خبر مقدم.

(٦) فإن قيل: كيف أرجع الضمير المذكور إلى الفدية؟ فقال: هي في تأويل الطعام، فيجوز تذكير الضمير.

بالصيام في هذه الآية بصدقة الفطر، كما عُقب الآية الثانية بتكبيرات العيد^(١).

(١) أى: أمر الله تعالى أولاً فى الآية ١٨٣ بالصيام، ثم فى الآية ١٨٤ بصدقة الفطر، ثم فى الآية ١٨٥ بصلاة العيد بقوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَذَاكُمْ﴾ وهكذا الترتيب فى نفس الأمر، فإننا نصوم أولاً، ثم نؤدى صدقة الفطر قبل الرواح إلى صلاة العيد، ثم نؤدى الصلاة، وقال الشيخ عبيد الله السندى رحمه الله، شارح فلسفة الإمام المصنف فى تفسيره: "إلهام الرحمن" (١: ٢٣٤) الصائم يترك الطعام والشراب، فلربما يكون هذا سبباً لحدوث الشح والبخل فى الطبيعة، لا يأكل ليجمع، ولذلك أوجب عليهم أن يتصدقوا بالطعام تميماً للصوم، وإلى ذلك يشير قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينَ﴾ وقد تخطب المفسرون فى تفسيره من قديم الزمان إلا الإمام ولى الله الدهلوى فإنه فسّره وأزال الإشكال، هو يقول: إن أصل التركيب هكذا فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينَ عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ والضمير راجع إلى الطعام وإنما آخر المبتدأ لكونه نكرة؛ وقد ذكر ذلك الإمام الفراء فى معانى القرآن وقال: إنه لا يرجع الضمير إلى الصيام، فصار المعنى أن من كان يطيق الإطعام يجب عليه ذلك لىتم صيامه ولئلا يعود على البخل والشح، فإن زاد على طعام مسكين فهو خير له. هذا هو أصل المصلحة اهـ.

وأنت ترى أن توجيه المصنف فى غاية من البعد، وإن اختاره الشيخ الإمام أبو مسعود رشيد أحمد الجنجوى فى لطائف رشيدية (ص ٣) بل الحق ما قاله الجمهور واختاره المحققون، قال العلامة أبو الحسن على الندوى فى الأركان الأربعة (ص ١٩٠-١٩٣):

يعرف المستقرئ للغة العرب، ومناهج كلامهم، أن لهم تعبيرات مختلفة عن معنى "القدرة على الشئ" والإتيان بفعله، تتصاعد وترتقى باعتبار التعسر. أولها: الاستطاعة وآخرها: الإطاقة، فلا تلجئ إلى هذا الأخير إلا إذا كان الفعل شاقاً مجهداً يستنفذ القوة ويستفرغ الجهد، فلا يقول أحد: إنى أطيق أن أرفع اللقمة إلى فمى، أو هذا القلم إلى أذنى أو نحو ذلك مما لا عسر فيه، بل يقول: إنى أطيق أن أحمل هذا الحجر الثقيل، أو أن أسرد فى الصيام أو أن أصلى الليلة كلها — مثلاً — فكان معنى الآية: الذين يطيقونه مع شدة وتعب، ومشقة عظيمة، وهما الشيخ الكبير، والمرأة الكبيرة، لا يطيقان الصيام إلا مع جهد وإرهاق، وتعريض للنفس للهلاك والمرض الشديد.

(=)

٣ - قوله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَاءِكُمْ﴾^(١) ناسخة لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾^(٢) لأن مقتضاها^(٣) الموافقة فيما كان عليهم من تحريم الأكل والوطء بعد النوم^(٤)؛ ذكره ابن العربي؛ وحكى^(٥) قولاً آخر: أنه نسخ لما كان بالسنة^(٦)

(=) وعلى هذا فهم ابن عباس رضى الله عنه، فقال: إن الآية نزلت فى الشيخ الكبير الهرم، والعجوز الكبيرة الهرمة فهما يطعمان كل يوم مسكينا، ولا يقضيان، فمن تطوع خيراً، قال: زاد مسكينا آخر فهو خير له. فكان الذين توجه إليهم الخطاب فى قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ على أقسام ثلاثة.

الأول: المقيم الصحيح، فيتحتم عليه الصوم.

والثانى: المريض والمسافر فيباح لهما الإفطار مع وجوب القضاء.

والثالث: من يشق عليه الصوم بسبب لا يرجى زواله، كالهرم والمرضى المزمن،

فيفطران ويطعمان لكل يوم مسكينا، وكذلك الحامل والمرضع، فتفطران وتقضيان.

وهكذا تبقى الآية محكمة لانسخ فيها، ولا تقدير لكلمة زائدة أو حذف أو

تكلف شديد، وقد ذهب إلى ذلك بعض كبار الصحابة من الراشدين فى العلم،

وآثر هذا القول واختاره بعض كبار العلماء فى عصرنا، والمتضلعين من علوم الدين،

كالعلامة المحقق الشيخ محمد أنور شاه الكشميرى، والعلامة الشيخ شمس

الحق الديانوى والأستاذ العلامة السيد سليمان الندوى رحمهم الله تعالى اهـ

(وراجع فيض البارى ٣: ١٤٦ و ١٦٦)

(١) رقم الآية ١٨٧ (٢) سورة البقرة ١٨٣

(٣) أى: مقتضى الآية الثانية.

(٤) أخرج أحمد وجماعة عن كعب بن مالك قال: كان الناس فى رمضان، إذا صام

الرجل فنام، حرّم عليه الطعام والشراب والنساء حتى يُفطّر من الغد — الحديث

وقوله: فيما كان عليهم أى على الذين من قبلكم..

(٥) أى: حكى ابن العربي.

(٦) أى: نسخ لما كان معمولاً به وثابتاً عندهم بالسنة.

قلت: معنى "كما كتب" التشبيه فى نفس الوجوب^(١) فلا نسخ ، إنما هو^(٢) تغيير لما كان عندهم قبل الشرع^(٣)؛ ولم نجد دليلاً على أن النبى صلى الله عليه وسلم شرع لهم ذلك^(٤)؛ ولو سلم فإنما كان ذلك بالسنة^(٥)

٤- قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ الآية^(٦) منسوخة بقوله تعالى:

(١) أنت تعلم أن التشبيه لا يجب أن يكون من كل وجه، وإذن فالتشبيه فى الآية الأولى لا يقتضى بما ذكره من وجوب موافقة أهل الكتاب فيما كانوا عليه فى صومهم، استدلالاً بالتشبيه، بل المعنى: كتب وفرض عليكم الصيام كما فرض على الذين من قبلكم من الأنبياء والأمم، من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا، كما هو ظاهر عموم الموصول؛ فالتشبيه والمماثلة فى نفس الفرضية والوجوب، وليست المماثلة فى طريق الأداء وتحديد الأوقات.

(٢) يعنى قوله تعالى: "أَحِلُّ لَكُمْ" الآية

(٣) أى: كانت العرب قبل الإسلام يصومون، لأن الصوم كان فى أصل الملة، وكان ابتداء صيامهم بعد النوم، فلما جاء الإسلام وأمرُوا بالصيام صاموا حسب ما تعرف عندهم، ثم لما وقعت الخيانات منهم، غير الشرع هذا الطريق، وجعل ابتداء الصوم من الفجر المستنير، فالآية مغيرة لعادة الجاهلية، وليس نسخاً لقوله: ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ الآية.

(٤) أى: ما حكى ابن العربى من أنه نسخ لما كان معمولاً به وثابتاً عندهم بالسنة النبوية، فهو ليس بصحيح فإننا لم نجد دليلاً الخ.

(٥) أى: وإن سلمنا أن النبى صلى الله عليه وسلم شرع لهم هذا الطريق، فإنما كان ذلك ثابتاً بالسنة النبوية، فقوله تعالى: ﴿أَحِلُّ لَكُمْ﴾ ناسخ للحكم الذى كان ثابتاً بالسنة، وليس بناسخ لقوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ﴾

قال السيد الآلوسى: وفى هذه الأوامر دليل على جواز نسخ السنة بالكتاب بل على وقوعه بناءً على القول بأن الحكم المنسوخ من حرمة الوقاع، والأكل والشرب كانت ثابتة بالسنة، وليس فى القرآن ما يدل عليها هـ (روح المعانى ٢: ٦٧)

(٦) سورة البقرة ٢١٧ وتامم الآية: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ: قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ؛ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ؛ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ، وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا" الآية.

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ الآية^(١) أخرجه ابن جرير عن عطاء بن ميسرة^(٢)، قلت: هذه الآية لا تدل على تحريم القتال، بل تدل على تجويزه، وهى من قبيل تسليم العلة وإظهار المانع؛ فالمعنى: أن القتال فى الشهر الحرام كبير شديد، ولكن الفتنة أشد منه، فجاز فى مقابلتها؛ وهذا التوجيه ظاهر من سياقها، كما لا يخفى^(٣).

هـ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ إِلَى قَوْلِهِ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾ الآية^(٤) منسوخة بآية: (أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا)^(٥) والوصية منسوخة بالميراث؛ والسكنى (١) سورة التوبة ٣٦ والآية بتمامها: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ، وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

(٢) أى: أخرجه ابن جرير فى تفسيره "جامع البيان"

(٣) وسياق الآية: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أى سلمنا أن القتال فى الأشهر الحرم ذنب كبير ولكن ﴿صَدٌّ﴾ أى صرف ومنع ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى الإسلام ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ أى بالله ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أى صد عن المسجد الحرام ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ﴾ وهم النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ﴿مِنْهُ﴾ أى من المسجد الحرام باضطرارهم إلى الهجرة ﴿أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ذنبان القتال فى الأشهر الحرم ﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ أى الشرك ﴿أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أى القتال، ودفع الأشد لازم، فيجوز القتال لقمع الفتنة فى الأشهر الحرم، وإن كان ذنبا فى نفسه.

(٤) سورة البقرة ٢٤٠ والآية بتمامها: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ؛ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ؛ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(٥) سورة البقرة ٢٣٤ والآية بتمامها: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا؛ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

ثابتة عند قوم، منسوخة عند آخرين^(١) بحديث: "ولاسكنى"^(٢).

قلت: هي كما قال منسوخة عند جمهور المفسرين؛ ويمكن أن يقال: يستحب أو يجوز للميت الوصية^(٣)، ولا يجب على المرأة أن تسكن في وصيته؛ وعليه ابن عباس^(٤)؛ وهذا التوجيه ظاهر من الآية^(٥).

(١) قال الآلوسی: والمعنى يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل أن يحتضروا لأزواجهم بأن يمتنع بعدهم حولا بالنفقة والسكنى، وكان ذلك على الصحيح في أول الإسلام، ثم نسخت المدة بقوله تعالى: ﴿أَبْعَةً أَشْهُرَ وَعَشْرًا﴾ وهو وإن كان متقدما في التلاوة فهو متأخر في النزول، وكذا النفقة بتوريثهن الربع أو الثمن؛ واختلف في سقوط السكنى وعدمه، والذي عليه ساداتنا الحنفية الأول، وحجتهم أن مال الزوج صار ميراثا للوارث وانقطع ملكه بالموت، وذهب الشافعية إلى الثاني، لقوله صلى الله عليه وسلم: امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله (روح المعاني ٢: ١٥٩)

(٢) لعله أشار إلى قول عطاء فإنه قال: ثم جاء الميراث، فنسخ السكنى فتعتد حيث شاءت، ولاسكنى لها (الصحيح للإمام البخارى ٢: ٨٠٤) ولم أظفر في حديث مرفوع بهذا اللفظ.

(٣) يعنى الوصية بالسكنى والنفقة إلى الحول.

(٤) قال عطاء: قال ابن عباس: نسخت هذه الآية (يعنى فإن خرجن) عدتها عند أهلها، فتعتد حيث شاءت (الصحيح للبخارى ٢: ٨٠٤)

(٥) قلت: يمكن أن تكون الآية معمولة بها، إماسة موسعة وإما وجوبا في حال من الأحوال حينما تكون المرأة بانسة لأموى لها ولاقربة ولا ميراث، والنكاح بزواج آخر ربما لا يتيسر على فور انقضاء العدة، ففي مثل هذه الحالة أوجب الشرع على الزوج الإيصاء لها إلى تمام الحول، فهي تتربص بأربعة أشهر وعشرا ثم تنهى للزواج، فهي مخيرة في الأشهر الباقية، إن شاءت سكنت في هذا البيت، وإن شاءت خرجت؛ ثم إن اختارت أن تمكث في البيت حتى تتم حولا كاملا، فلا يجوز للورثة أن يخرجوها إلى مدتها.

(=)

٦ - قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْذَرُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ الآية^(١) منسوخة بقوله بعده: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٢)

قلت: هو من باب تخصيص العام: بينت الآية المتأخرة أن المراد ما في أنفسكم من الإخلاص والنفاق، لا من أحاديث النفس التي لا اختيار فيها^(٣)،

(=) وبالجمله فالنسخ ليس بمتعين، ونظيره حكم المؤلفه قلوبهم فقد ذهب بعض الفقهاء إلى جواز التأليف إن احتيج إليه، قال القاضي أبوبكر بن العربي: والذي عندي: إن قوى الإسلام زالوا، وإن احتيج إليه أعطوا سهمهم، كما يعطيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن الصحيح قد روى فيه: بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأه (أحكام القرآن ٢: ٣٨٥)

وراجع لمذهب مجاهد الصحيح للبخارى (٢: ٨٠٤) ولشرح مذهبه فيض الباري

للإمام الكشميري (٤: ١٦٤) والأركان الأربعة لحكم المؤلفه قلوبهم (ص ١١٠)

(١) رقم الآية ٢٨٤.

(٢) رقم الآية ٢٨٦، ويدل على النسخ ما روى عن أبي هريرة قال: لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَإِنْ تُبْذَرُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم بركوا على الركب، فقالوا: أى رسول الله! كلّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلوة والصيام والجهاد، والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية، ولا نطيقها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا! بل قولوا: سمعنا وأطعنا! غفرانك ربنا وإليك المصير! فلما اقترأها القوم، وذلت بها ألسنتهم، أنزل الله تعالى فى أثرها: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾ الآية فلما فعلوا ذلك نسخها الله عز وجل، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ﴾ الآية أخرجه الإمام مسلم اه (لباب التأويل للخازن ١: ٤٤٧)

(٣) أى الخواطر الفاسدة والوساوس الباطلة التى ترُد وتَهْجُم على القلب، ولا يتمكن الإنسان من دفعها.

فإن التكليف لا يكون إلا فيما هو في وسع الإنسان^(١).

ومن آل عمران:

٧ - قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾^(٢) قيل: إنه منسوخة بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾^(٣) وقيل: لا، بل هو محكم.

وليس فيها^(٤) آية يصح فيها دعوى النسخ غير هذه الآية.

قلت: ﴿حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ في الشرك والكفر وما يرجع إلى الاعتقاد، ﴿وَمَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ في الأعمال: من لم يستطع الوضوء يتيمم، ومن لم يستطع القيام يصلي قاعداً؛ وهذا التوجيه ظاهر من سياق الآية، وهو قوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٥).

ومن النساء

٨ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَاتُوهُمْ نَصِيْبَهُمْ﴾ الآية^(٦) منسوخة بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾^(٧).

(١) وليس في وسع الإنسان دفع الخواطر الفاسدة، فكيف يؤاخذ بها! قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله تجاوز عن أمتي ما وسوست به صدورُها، ما لم تعمل به أو تتكلم (رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة).

(٢) رقم الآية ١٠٢ (٣) سورة التغابن ١٦

(٤) أى في سورة آل عمران .

(٥) أى : مخلصون نفوسكم لله عز وجل لاتجعلون فيها شركة لسواه أصلاً، وذكر بعض المحققين: أن " الإسلام " فى مثل هذا الموضع لا يراد به الأعمال، بل الإيمان القلبي لأن الأعمال حال الموت مما لا تكاد تتأتى اه (روح المعانى ٤: ١٨)

وحكى الزركشى فى البرهان (٢: ٥٢) هذا التوجيه عن الشيخ العارف أبى الحسن الشاذلى، فإنه جمع بينهما، فحمل الآية الأولى على التوحيد، والثانية على الأعمال، والمقام يقتضى ذلك: لأنه قال بعد الأولى: ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون اه.

(٦) رقم الآية ٣٣

(٧) سورة الأنفال ٧٥ وسورة الأحزاب ٦

قلت: ظاهر الآية^(١) أن الميراث للموالى^(٢) والبر والصلة لمولى الموالاة^(٣) فلا نسخ^(٤).

٩ - قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ الآية^(٥) قيل منسوخة^(٦) وقيل لا^(٧) ولكن تهاون الناس في العمل بها.

قلت: قال ابن عباس: هي محكمة، والأمر للاستحباب^(٨) وهذا أظهر.

(١) أى: ظاهر آية سورة النساء.

(٢) جمع المولى بمعنى القريب أى الميراث للأقرباء.

(٣) إذا أسلم الرجل على يد آخر ووالاه أى تعاقدنا على أن يرثه ويعقل عنه، فهو مولى الموالاة. ومعنى قوله تعالى: ﴿فَأَتَوْهُمْ نَصِيَّهُمْ﴾ أى: من البر والصلة والنصر والنصيحة والوصية.

(٣) قلت: الظاهر من النصيب هو الميراث؛ ولكن لانسخ فى جميع الأحوال، بل فى بعض الأحوال أى الآية منسوخة عند وجود الأقرباء لقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ الآية، وأما فى صورة عدم الأقرباء فالحكم باق عند أبى حنيفة رحمه الله، فإنه قال: إذا أسلم الرجل على يد رجل، وتعاقدنا على أن يرثه ويعقل عنه، صح وعليه عقله، وله إرثه إن لم يكن له وارث من ذوى الفروض والعصبات وذوى الأرحام.

(٥) رقم الآية ٨ وحاصل الآية: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ أى قسمة التركة بين أربابها ﴿أُولُوا الْقُرْبَى﴾ ممن لا يرث ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ فَارْزُقُوهُمْ﴾ أى أعطوهم شيئاً من المال، تطيباً لقلوبهم، وتصدقا عليهم ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

(٦) أى: بآية المواريث، يعنى كان هذا الحكم قبل نزول آيات المواريث، فلما نزلت وجُعِلَت المال لأهله، صارت هذه الآية منسوخة.

(٧) والأمر للوجوب.

(٨) قال ابن عباس: هي محكمة وليست بمنسوخة اه رواه عكرمة عنه (الصحيح للبخارى ص ٦٥٨) وروى سعيد بن جبير عنه، أنه قال: إن ناسا يزعمون أن هذا الآية نُسخَت، ولا، والله! ما نسخت، ولكنها مما تهاون الناس الخ (الصحيح للبخارى ص ٣٨٦) فعلم أن كون الأمر للاستحباب ليس من قول ابن عباس بل هو من (==)

١٠ - قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ﴾ الآية^(١) منسوخة بآية النور^(٢)

قلت: لانسخ في ذلك، بل هو ممتد إلى الغاية، فلما جاءت الغاية بين النبي صلى الله عليه وسلم أن السبيل الموعود كذا وكذا، فلانسخ^(٣).

(=) اختيار المصنف، وما اختاره المصنف هو الأصح، الذي عليه العمل اليوم، قال الخازن: واحتجوا لهذا القول بأنه لو كان لهؤلاء حق معين، لبينه الله تعالى، كما بين سائر الحقوق، فحيث لم يبين علمنا أن ذلك غير واجب اهـ (لباب التأويل للخازن) (١) سورة النساء ١٥ والآية بتمامها: ﴿وَالَّتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ، فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّهِنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾

(٢) أى بآية الجلد، وهى قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ الآية (سورة النور ٢)

(٣) قال الخطابي: لم يحصل النسخ فى هذه الآية، لأن قوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّهِنَّ الْمَوْتُ، أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ يدل على إمساكهن فى البيوت ممدوداً إلى غاية أن يجعل الله لهن سبيلاً؛ وأن ذلك السبيل كان مجملًا، فلما قال صلى الله عليه وسلم "خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً الحديث صار هذا الحديث بيانا لتلك الآية المجملة لئلا نسخا لها اهـ (معالم السنن)

والحديث رواه مسلم، مشكوة كتاب الحدود الفصل الأول، رقم الحديث ٣٥٥٨.

ولكن المصنف لم يفصل الأمر، هل يعمل بآية النساء؟ وكيف العمل بها؟ فأقول:

يجب العمل بآية النساء حيث لا يستطيع المسلمون بإجراء الحدود لعدم شوكتهم، والدليل على ذلك أن آية النساء أنزلت أولاً حينما كان الإسلام غريباً، فلما حصل للإسلام شوكة أنزلت آيات الحدود، فما قال الزمخشري معارض للحديث المذكور، فإنه قال: من الجائز أن لا تكون الآية منسوخة، بأن يترك ذكر الحد لكونه معلوماً بالكتاب والسنة، ويوصى بإمساكهن فى البيوت، بعد أن يحددن صيانة لهن عن مثل ما جرى عليهن بسبب الخروج من البيوت، والتعرض للرجال، ويكون السبيل على هذا: النكاح المغنى عن السفاح (روح المعانى ٤: ٢٣٥)

ومن المائدة

- ١١- قوله تعالى: ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ الآية (١) منسوخة بإباحة القتال فيه (٢).
- قلت: لانجد في القرآن ناسخا له ، ولا في السنة الصحيحة؛ ولكن المعنى: أن القتال المحرم يكون في الشهر الحرام أشد تغليظا ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الخطبة: " إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا" (٣).
- ١٢- قوله تعالى: ﴿فَإِنْ جَاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ، أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ الآية (٤) منسوخة بقوله: ﴿وَأَنْ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ (٥).

(١) رقم الآية ٢ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ أى لاتحلوه بأن تقاتلوا فيه أعداءكم من المشركين.

(٢) أى بقوله تعالى: ﴿أَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ وبقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُوكُمْ كَافَّةً﴾

(٣) روى الإمام البخارى فى صحيحه (٢٣٤: ١) وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس يوم النحر، فقال: يا أيها الناس! أى يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام، فقال: أى بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام، قال: فأى شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام، قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، فى بلدكم هذا، فى شهركم هذا، فأعادها مرارا ثم رفع رأسه ، فقال: اللهم هل بلغت؟! اللهم هل بلغت؟! الحديث .

- (٤) سورة المائدة ٤٢ وتمام الآية: ﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾
- (٥) سورة المائدة ٤٩ وتمام الآية: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ ، وَاحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾

قلت: معناه: (١) إِنْ اخْتَرْتَ الْحُكْمَ فَاحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ؛
فالحاصل: (٢) أنه لنا أن نترك أهل الذمة أن يرفعوا القضية إلى زعمائهم،
فيحكموا بما عندهم (٣)، ولنا أن نحكم بما أنزل الله علينا (٤).

١٣ - قوله تعالى: ﴿أَوْ آخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ (٥) منسوخ بقوله: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ (٦).

قلت: قال أحمد بظاهر الآية (٧) ومعناها عند غيره: أو آخران من غير أقاربكم،
فيكونان من سائر المسلمين (٨).

(١) أى: معنى الآية الثانية.

(٢) أى حاصل الآيتين والضمير فى " أنه " للشان.

(٣) أى: وفقا لدينهم.

(٤) أى: نحن مخيرون بين أن نحكم بينهم بالحق أو نعرض عنهم ونتركهم
ليرفعوا القضية إلى زعمائهم.

(٥) سورة المائدة ١٠٦ والآية بتمامها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ، أَوْ آخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ، إِنْ أَنتُم ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُوهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمُنِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ، وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ، إِنْ إِذَا لَمِنَ الْإِثْمِينَ﴾

(٦) سورة الطلاق ٢ والآية بتمامها: ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَاَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ، وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ، وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ، ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ. وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾

(٧) قال أحمد: إذا لم يجد مسلمين يشهدان على وصيته، وهو فى أرض غربة،
فليشهد كافرين أو ذميين، أو من أى دين كانا، لأن هذا موضع ضرورة.

(٨) أى: معنى الآية عند غير أحمد: غير الأقربين من الأجانب، لأنهم قالوا: لا تجوز
شهادة كافر فى شىء من الأحكام على المسلم.

وقال الآلوسى واختار الأول (أى ماذهب إليه أحمد رحمه الله) جماعة (==)

ومن الأنفال:

١٤- قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ﴾ الآية^(١) منسوخة بالآية بعدها^(٢).

قلت: هي كما قال منسوخة^(٣).

ومن البراءة

١٥- قوله تعالى: ﴿إِنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً﴾^(٤) منسوخة بآيات العذر، وهي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ الآية^(٥) وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ﴾

(=) من المتأخرين حتى قال الجصاص: إن التفسير الثاني لا وجه له لأن الخطاب ترجمه أولاً إلى أهل الإيمان فالمغايرة تعتبر فيه ولم يجر للقرابة ذكر، ويدل لذلك أيضاً سبب النزول اهـ (روح المعاني ٧: ٤٨)

(١) سورة الأنفال ٦٥ وتام الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾

(٢) وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ، وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة الأنفال ٦٦)

(٣) قلت: كان المطلوب من المسلمين في أول الأمر أن يقفوا في وجه عدوهم، وهم أكثر منهم عشر مرات، ثم كان التيسير والمسامحة، فطلب منهم أن يقاوموهم في وجوههم، وهم ضعفهم، فإن عاد حال الإسلام — لا قدر الله له ذلك — إلى الغربة كما كان في أول الأمر يكون المطلوب من المسلمين حين ذاك أن يقفوا في وجه عدوهم، وهم أكثر منهم عشر مرات، فالحاصل أن النسخ ليس بمتعين.

(٤) سورة البراءة ١٤ وتام الآية: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(٥) سورة الفتح ١٧

الآيتين،^(١) وبقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾^(٢)

قلت: خفافا أى مع أقل مايتأتى به الجهاد من مركوب وعبد للخدمة ، ونفقة يقنع بها؛ وثقالاً أى مع الخدم الكثيرين، والمراكب الكثيرة، فلا نسخ؛ أو نقول: ليس النسخ متعيناً^(٣)

ومن النور

١٦- قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ الآية^(٤) منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾^(٥).

قلت: قال أحمد بظاهر الآية^(٦) ومعناها عند غيره: أن مرتكب الكبيرة^(٧) ليس بكفءٍ إلا للزانية؛ أو لا يستحب له^(٨) اختيار الزانية؛ وقوله: ﴿وَحُرْمَ

(٢) سورة التوبة ١٢٢

(١) سورة التوبة ٩١ و ٩٢

(٣) وحاصل التوجيه الأول: أن الآية ليس فيها حكم عام للمعذورين وغيرهم، بل فيه حكم للقادرين بقدرة ممكنة أو ميسرة فلانسخ بآيات العذر.

وحاصل التوجيه الثانى: أن النسخ ليس بمتعين، بل حينما يكون هجوم العدو شديداً، وكان النفير عاماً، فعلى كل واحد أن ينفر على أى حال كان من يسر أو عسر، حاصلين بأى سبب كان، من الصحة والمرض أو الغنى والفقر، أو قلة العيال وكثرتهم، أو الكبر والحدأة، أو السمن والهزال، أو غير ذلك مما ينتظم فى مساعدة الأسباب وعدمها، بعد الإمكان والقدرة فى الجملة.

(٤) سورة النور ٣ والآية بتمامها: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً، وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ، وَحُرْمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

(٥) سورة النور ٣٢ والآية بتمامها: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ، إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

(٦) قال أحمد: لايجوز نكاح الزانى ولا الزانية حتى يتوبا، فإذا تابا فلا يسميان زانين، وعند الأئمة الثلاثة: نكاح الزانى والزانية صحيح (تفسير المظهرى ٦: ٤٤٢)

(٧) يعنى الوقاح والزنا. (٨) أى للمسلم العفيف.

ذَلِكَ ﴿إِشَارَةٌ إِلَى الزَّنا وَالشُّرْكِ، فَلَا نَسْخَ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى﴾ فَعَامٌّ لَا يَنْسَخُ الْخَاصَّ.

١٧- قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَتْ أَذِنُكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ الْآيَةُ ^(١) قِيلَ: مَنْسُوخَةٌ، وَقِيلَ: لَا، وَلَكِنْ تَهَاوَنَ النَّاسُ فِي الْعَمَلِ بِهَا ^(٢).

قُلْتُ: مَذْهَبُ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهَا لَيْسَتْ بِمَنْسُوخَةٍ؛ وَهَذَا أَوْجَهُ وَأَوَّلَى بِالْاعْتِمَادِ ^(٣).

وَمِنَ الْأَحْزَابِ

١٨- قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ الْآيَةُ ^(٤) مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

(١) سُورَةُ النُّورِ ٥٨ وَالْآيَةُ بِتَمَامِهَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَتْ أَذِنُكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ، وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ، ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ، طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

(٢) قَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِنْ نَاسَا يَقُولُونَ: نُسَخَتْ؛ وَاللَّهُ! مَا نُسَخَتْ، وَلَكِنَّهَا مَمَاتَهَاوَنَ بِهِ النَّاسُ (الْمُظْهَرِي ٦: ٥٥٧)

(٣) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمْ يَكُنْ لِلْقَوْمِ سِتُورٌ وَلَا حِجَابٌ، وَكَانَ الْوَلَانْدُ وَالْخَدَمُ، يَدْخُلُونَ، فَرُبَّمَا يَرُونَ مَا لَا يَحِبُّونَ، فَأَمَرُوا بِالِاسْتِثْنَانِ، ثُمَّ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ، وَاتَّخَذُوا السُّتُورَ، فَرَأَى أَنَّ ذَلِكَ أَغْنَى عَنِ الْاسْتِثْنَانِ.

وَقَالَ الْعَلَامَةُ الْقَاضِي ثَنَاءُ اللَّهِ الْفَانِي فَتَى فِي تَفْسِيرِهِ: قُلْتُ: وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ، لَكِنِ الْحَكْمُ بِالِاسْتِثْنَانِ مَعْلُولٌ بِاخْتِلَالِ التَّسْتَرِ فِي تِلْكَ الْأَوْقَاتِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ وَهُوَ الْفَارَقُ بَيْنَ تِلْكَ الْأَوْقَاتِ وَغَيْرِهَا، وَعَدَمُ الْحَكْمِ عِنْدَ عَدَمِ الْعِلَّةِ لَا يَكُونُ نَسْخًا فَعَلِمَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مِنْ شَأْنِ النَّاسِ عَدَمُ اخْتِلَالِ التَّسْتَرِ فِي تِلْكَ الْأَوْقَاتِ لَا يَسْتَلْزِمُهُمُ الْاسْتِثْنَانُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ (الْمُظْهَرِي ٦: ٥٥٧)

(٤) سُورَةُ الْأَحْزَابِ ٥٢ وَتَمَامُ الْآيَةِ: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ، وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ، إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾

﴿إِنَّا أَخْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ الآية (١).

قلت: يحتمل أن يكون الناسخ مقدما في التلاوة، وهو الأظهر عندى (٢).

ومن المجادلة

١٩- قوله تعالى: ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدُمُوا﴾ الآية (٣) منسوخة بالآية بعدها (٤).

قلت: هذا كما قال (٥).

ومن الممتحنة

٢٠- قوله تعالى: ﴿فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا

(١) سورة الأحزاب ٥٠ وتعام الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَخْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ، وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكِ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ، وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ كَيْلًا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ؛ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

(٢) أقول: لانسح، فقد قال ابن عباس ومجاهد: لا يحل لك النساء من بعد ما بينت لك من هذه الأصناف: بنات عمك ألع فاحل له من هذه الأصناف ماشاء وتفصيل الكلام طويل، فراجع بيان القرآن للعلامة محمد أشرف على التهانوى (٩-٥٨-٦٢).

(٣) سورة المجادلة ١٢ والآية بتمامها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ؛ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَظْهَرُ؛ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

(٤) وهى قوله تعالى: ﴿أَمْ شَقَقْتُمُ أَنْ تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقْتُمْ؛ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المجادلة ١٣).

(٥) قلت: كان تقديم الصدقة واجبا بمقتضى أولى الآيتين، ثم خير بين تقديم الصدقة وعدمه فصار الأمر للندب، ففيه تغير للوصف فقط فلا نسح.

أَنْفَقُوا^(١) قيل: منسوخ بآية السيف^(٢)، وقيل: بآية الغنime^(٣) وقيل: محكم.
قلت: الأظهر أنها محكمة، ولكن الحكم فى المهادنة^(٤) وعند قوة الكفار.
ومن المزمّل:

٢١- قوله تعالى ﴿فَمِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٥) منسوخ باخر السورة^(٦)، ثم نسخ
(١) سورة الممتحنة ١١ وتمام الآية: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ
فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾
(٢) يعنى بآية السيف قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾
(التوبة ٣٦)

وبيان ذلك: أن الحكم الأصلى كان: ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ ، وَلَيْسَ لَكُمْ مَا
أَنْفَقُوا﴾ أى واسألوا الكفار مهور نسائكم اللاحقات بهم، ويسالكم الكفار مهور
نسائهم المهاجرات إليكم، فإن فاتكم شئ من أزواجكم إلى الكفار، ولم يؤدوا
مهور نسائكم، فاتوا الذين ذهب أزواجهم مثل ما أنفقوا من مهر المهاجرة التى
تزوجتموها ولا تؤتوه زوجها الكافر، ليكون قصاصا، فلما نزلت آية القتال نسخ
ذلك الحكم ، بل نأخذ منهم مهور نسائنا بقوة السيف.

(٣) يعنى بآية الغنime قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ
وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (الأنفال ٤١)

وبيان ذلك: أن الآية الأولى تُفيد أن زوجات المسلمين اللاحقات بالكفار
يجب أن يدفع إلى أزواجهن مثل مهورهن، من الغنائم التى يغنمها المسلمون،
ويعاقبون العدو بأخذها، والآية الثانية تُفيد أن الغنائم تخمس أخماسا، ثم تصرف
كما رسم الشارع.

(٤) المهادنة: المصالحة، هَادَنَهُ مهادنة: صالحه وَوَادَعَهُ . (٥) سورة المزمّل ٢

(٦) أى بقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُخْصَوْهُ فَتَأَبَّ عَلَيْهِمْ فَائِرَةٌ وَآمَاتِيسَرٌ مِنَ
الْقُرْآنِ﴾ (المزمّل ٢٠)

وبيان ذلك: أن الآية الأولى أفادت وجوب قيامه صلى الله عليه وسلم من
الليل: نصفه، أو أنقص منه قليلاً أو أزيد عليه، والآية الثانية أفادت أن الله تاب (==)

الآخر بالصلوات الخمس.

قلت: دعوى النسخ بالصلوات الخمس غير مُتَّجِهَةٌ^(١) بل الحق: أن أول السورة في تأكيد النَّدب إلى قيام الليل، وآخرها في نسخ التأكيد إلى مجرد الندب.

قال السيوطي موافقا لابن العربي: فهذه إحدى وعشرون آية منسوخة، على خلاف في بعضها؛ ولا يصح دعوى النسخ في غيرها؛ والأصح في آيتي الاستئذان والقسمة الإحكام وعدم النسخ،^(٢) فصارت تسع عشرة آية؛ وعلى ما حررنا لا يتعين النسخ إلا في خمس آيات^(٣).

الفصل الثالث

في

معرفة أسباب النزول^(٤)

ومن المواضع الصَّعبة أيضًا معرفة أسباب النزول؛ ووجه الصَّعوبة أيضًا
(=) على النبي وأصحابه في هذا، بأن رخص لهم في ترك هذا القيام المقدور ورفع عنهم كل تبعة في ذلك.

(١) غير متجهة: غير موجَّهٍ أى ليس له وجه الصحة.

(٢) قوله: والأصح مبتدأ وقوله: الإحكام الخ خبر، وآية القسمة هي الآية التاسعة، وآية الاستئذان هي الآية السابعة عشر.

(٣) وهي: الآية الأولى والخامسة، والرابعة عشر، والثامنة عشر والتاسعة عشر.

(٤) لمعرفة أسباب النزول فوائد:

منها: الوقوف على المعنى، أو إزالة الإشكال، قال ابن دقيق العيد: بيان سبب النزول طريق قوى في فهم معانى القرآن. وقال ابن تيمية: معرفة سبب النزول يُعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب.

ومنها: معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم، ولهذا الغرض كانت الآيات تُنزل بعد الأسباب والواقعات، وظهور الحوادث والاتفاقات، وما إلى (=)

(==) ذلك من الفوائد راجع لمزيد البيان (البرهان للزركشى ١: ٢٢ من النوع الأول فى معرفة أسباب النزول)

وقد اعتنى المفسرون بذكر أسباب النزول فى كتبهم، وأفردوا فيه تصانيف فمن أشهرها: تصنيف الواحدى وقد طبع بمصر سنة ١٣١٥هـ وللإمام جلال الدين السيوطى كتاب سمّاه: "باب النقول فى أسباب النزول" وهو مطبوع بهامش تفسير الجلالين.

(١) قال الإمام ولى الله فى التفهيمات (٢: ١٧٣) للمفسرين فيما بينهم اختلاف كثير، ولما فَتَشْنَا أَقَاوِيلَهُمْ، وَحَدَقْنَا النَّظَرَ فِيهَا، وَجَدْنَاهَا عَلَى صُنُوفٍ: منها: شرح غريب القرآن؛ واختلافهم فى ذلك يرجع إلى تتبع لغة العرب واستعمالاتهم، فكل رجل فسر الكلمة بمعنى ثبت عنده من قبل محاوراتهم، ودلالة السياق والسباق .

ومنها: القراءة واختلافهم فيها قبل أن يجمع القرآن فى زمن عثمان رضى الله عنه يرجع إلى جواز الأحرف السبعة، والمختار أن الأحرف السبعة تعبيرات عن معنى واحد بجمل متقاربة، مثل: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ؛ وَقُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا؛ وَقُلْ لِلْكَافِرِينَ؛ ومثل: قل هو الله أحد، وأنا الأحد الصمد، الذى لم ألد، وبعد أن جُمع القرآن واتفق على إسقاط باقى الأحرف، صونا للدين عن الاختلاف الفاحش المخرج عن الملة، يرجع إلى اختلاف التلفظ تفخيما، وإمالة وروما وإشماما، أو إلى اختلاف التلفظ بما كتب فى المصحف العثمانى.

ومنها: اختلافهم فى شأن النزول، والحق عندى: أن ذلك بالاجتهاد والاستنباط، وذلك كما أنا لما رأينا اليهود قديما وحديثا ينكرون على النسخ، والآية مسوقة فى تضاعيف قصصهم، جزمنا بأنها نزلت دفعا لشرهم، وكبحا للمسلمين عن إصغاء ما يلقون فى أسماعهم من الشكوك، وكل من استظهر إليه أمكن له أن يوجه الآية بتوجيه ويذكر لها شأنا بعد ملاحظة السياق والسباق، بل عسى أن يكون رأى المتأخرين الذين نشأوا بعد أن يتأسس الأصول والسير والحديث أو كدّ وأوثق من رأى المتقدمين الذين كانوا من قبل أن يتأسس العلوم والصناعات اهـ.

معنى: "نَزَلَتْ فِي كَذَا" عند المتقدمين

والذى يظهر من استقراء كلام الصحابة والتابعين رضى الله عنهم: أنهم كانوا لا يستعملون: "نَزَلَتْ فِي كَذَا" لمجرد بيان الحادث الذى وقع فى زمنه صلى الله عليه وسلم، وكان سببا لنزول الآية؛ بل:

• ربما يذكرون بعض ما صدقت عليه الآية، مما حدث فى زمنه صلى الله عليه وسلم، أو حدث بعده صلى الله عليه وسلم، فيقولون: "نَزَلَتْ فِي كَذَا"؛ ولا يلزم فى هذه الصورة انطباق جميع القيود المذكورة فى الآية، بل يكفى انطباق أصل الحكم فحسب^(١).

(١) قال السيوطى رحمه الله تعالى: معرفة سبب النزول أمر يحصل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا، وربما لم يجزم بعضهم، فقال: أحسب هذه الآية نزلت فى كذا وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى: قولهم — يعنى الصحابة —: نزلت الآية فى كذا يُراد به تارة أنها سبب النزول، ويراد به تارة أن ذلك داخل فى الآية وإن لم يكن السبب، كما تقول: عنى بهذه الآية كذا.

وقال الزركشى فى البرهان: قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية فى كذا، فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب فى نزولها، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا من جنس النقل لما وقع اهـ (لباب النقول ص ٤٠٣)

وخذلك مثالا: قال عامر بن ربيعة رضى الله عنه: كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر، فى ليلة مظلمة، فلم ندر أين القبلة؟ فصلى كل رجل منا على حياله، فلما أصبحنا ذكرنا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثُمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ رواه الترمذى فى سننه فى أبواب التفسير، وروى أيضا عن ابن عمر، قال كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى على راحلته تطوعا حيثما توجهت به، وهو جاء من مكة إلى المدينة، ثم قرأ ابن عمر هذه الآية ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ وقال ابن عمر: فى هذا أنزلت هذه الآية (السنن للترمذى ٢: ١٢٠)

وهذا مع أن الآية فى تضاعيف قصص بنى إسرائيل جوابا عن إلقاءهم الشكوك فى قلوب المؤمنين فى أمر تحويل القبلة.

• وقد يُبينون سؤالاً سُئل عنه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، أو حادثة حدثت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، واستنبط صلى الله عليه وسلم حكمها من الآية، وتلاها عليهم في ذلك الباب، فيقولون: "نزلت في كذا"؛ وربما يقولون في هذه الصُّورِ "فأنزل الله تعالى قوله كذا" أو "فنزلت". وكأنه إشارة إلى أن استنباطه صلى الله عليه وسلم ذلك الحكم من الآية، وإلقاؤها في تلك الساعة في خاطره المبارك أيضًا نوعٌ من الوحي والنَّفث في الرُّوع، فلذلك يمكن أن يقال: "فأنزلت"؛ ولو عبَّر أحد عن ذلك بتكرار نزول الآية لكان له مساعٍ أيضًا^(١).

روايات المحدثين التي لا علاقة لها بأسباب النزول:

ويذكر المحدثون تحت آيات القرآن الكريم كثيرًا من الأشياء، ليست هي في الحقيقة من قسم سبب النزول، مثل: استشهاد الصحابة رضي الله عنهم في مناظراتهم^(٢) بآية، أو تمثيلهم بها^(٣)، أو تلاوته صلى الله عليه وسلم آيةً للاستشهاد في كلامه الشريف، أو رواية حديث يوافق الآية في أصل الغرض، أو تعيين موضع النزول، أو تعيين أسماء المذكورين في الآية بطريق الإبهام، أو بيان طريق التلفظ بكلمة قرآنية، أو فضل سور وآيات من القرآن، أو بيان طريقة امتثاله صلى الله عليه وسلم بأمر من أوامر القرآن الكريم؛ فليس شيء من هذا في الحقيقة من أسباب النزول، وليس من شروط المفسر الإحاطة بها.

شرط المفسر في باب أسباب النزول:

إنما شرط المفسر معرفة أمرين:

(١) وراجع للتفصيل الإتقان من النوع التاسع فإنه قد أبدع وأسهب.

(٢) المناظرة: المباحثة العلمية.

(٣) تمثل بالشيء: ضربه مثلاً.

الأول : معرفة تلك القصص التي تعرّض^(١) الآيات لها؛ فإنه لا يتيسر فهم إيماء الآيات إلا بمعرفتها.

والثاني : معرفة تلك القصة التي تخصّص العام، أو نحو ذلك من وجوه صرف الكلام عن الظاهر؛ فإنه لا يتأتى فهم المقصود من الآيات بدونها.

قِصَصُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ رَوَايَاتِ أَهْلِ الْكِتَابِ

ومما ينبغي أن يُعلم هنا: أن قصص الأنبياء السابقين لم تُذكر في الأحاديث إلا قليلاً؛ فالقِصَص الطويلة العريضة التي يتجشم^(٢) المفسرون روايتها، كلّها منقولة عن علماء أهل الكتاب إلا ما شاء الله تعالى^(٣)، وقد جاء في صحيح البخاري مرفوعاً: "لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تَكْذِّبُوهُمْ"^(٤).

(١) عرّض له بالقول: قال قولا وهو يعنيه ويريده، ولكن لم يصرّح به ولم يبينه.
(٢) تَجَشَّم الأمر: تكلفه على مشقة.

(٣) كقصة موسى والخضر عليهما السلام المروية في صحيح البخاري.

(٤) روى الإمام البخاري في كتاب التفسير، في باب قول الله تعالى: ﴿قُولُوا: آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ (ص ٦٤٤ و ١٠٩٣) عن أبي هريرة، قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تَكْذِّبُوهُمْ، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل.

قلت: لكن يعارضه ما جاء في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ عَلَى مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ أَخْرَجَهُ فِي كِتَابِ الْعِلْمِ ص ٢١ وفي كتاب الأنبياء ص ٤٩١

فقال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره (١: ٤) الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد، لا للاعتضاد، فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا، مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه. (=)

معنى آخر لقولهم: "نزلت في كذا"

ولْيَعْلَمَ أَيْضًا أَنَّ الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَانُوا يَذْكُرُونَ قِصَصًا جَزْئِيَّةً لِبَيَانِ مَذَاهِبِ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ ، وَعَادَاتِهِمُ الْجَاهِلِيَّةَ ، لِتَضَحَّ بِهَا عِقَائِدُهُمْ وَتَقَالِيدُهُمْ وَيَقُولُونَ: " نَزَلَتْ الْآيَةُ فِي كَذَا " وَيُرِيدُونَ بِذَلِكَ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي مِثْلِ هَذِهِ سَوَاءٌ كَانَتْ تِلْكَ بَعِينَهَا ، أَوْ مَا شَابَهَهَا ، أَوْ مَا قَارَبَهَا ، وَيَقْصِدُونَ إِظْهَارَ تِلْكَ الصُّورَةِ ، لِاخْتِصَاصِ الْقِصَصِ ، بَلْ يَذْكُرُونَهَا لِأَجْلِ أَنَّ هَذِهِ صُورَةٌ صَادِقَةٌ لِتِلْكَ الْأُمُورِ الْكُلِّيَّةِ ؛ وَلِهَذَا تَخْتَلِفُ أَقْوَالُهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَوَاضِعِ ، وَكُلٌّ يَجُرُّ الْكَلَامَ إِلَى جَانِبِهِ ، وَقَصْدُهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ وَاحِدٌ ؛ وَإِلَى هَذِهِ النِّكَّةِ أَشَارَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَيْثُ قَالَ: " لَا يَكُونُ الرَّجُلُ فَقِيهًا حَتَّى

(==) وَالثَّالِثُ: مَا هُوَ مُسْكُوتٌ عَنْهُ ، لَأَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ ، وَلَأَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ ، فَلَا نُؤْمِنُ بِهِ وَلَا نَكْذِبُهُ ، وَيَجُوزُ حِكَايَتُهُ لِمَا تَقْدَمُ ، وَغَالِبُ ذَلِكَ مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِيهِ تَعُودُ إِلَى إِمْرِ دِينِي هـ .

وَقَالَ شَيْخُ مَشَايَخِنَا الْعَلَامَةُ الْمُحَدِّثُ الْكَبِيرُ إِمَامُ الْعَصْرِ مُحَمَّدٌ أَنْوَرُ شَاهِ الْكُشْمِيرِيِّ: وَالحَالُ فِيهِ مُخْتَلِفٌ ، فَإِنْ مَا يُنْقَلُ عَنْهُمْ إِنْ صَحَّ وَوَافَقَ شَرْعَنَا نَصَدَّقُهُ وَنَعْمَلُ بِهِ أَيْضًا ؛ وَإِنْ صَحَّ وَلَكِنْ لَمْ يُوَافِقْهُ شَرْعَنَا نَصَدِّقُ بِهِ ، وَلَا نَعْمَلُ بِهِ وَنَحْمَلُهُ عَلَى النِّسْخِ أَوْ التَّحْرِيفِ ؛ وَإِنْ لَمْ يَصَحَّ ، أَوْ لَمْ يَنْكُشِفْ أَصْلُهُ فَإِذَنْ لَا نَصَدِّقُهُ وَلَا نَكْذِبُهُ ، وَنُؤْمِنُ إِجْمَالًا بِمَا هُوَ الْحَقُّ عِنْدَ اللَّهِ الْعَظِيمِ هـ (فيض الباري ٤ : ٤٨)

وَقَالَ الْإِمَامُ الْمُصَنِّفُ فِي حُجَّةِ اللَّهِ الْبَالِغَةِ (١ : ٤١١) : أَقُولُ : الرَّوَايَةُ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ تَجُوزُ فِيمَا سَبِيلُهُ سَبِيلُ الْإِعْتِبَارِ ، وَحَيْثُ يَكُونُ الْأَمْنُ عَنِ الْإِخْتِلَافِ فِي شَرَائِعِ الدِّينِ ، وَلَا تَجُوزُ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ ، وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ : أَنَّ غَالِبَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الْمَدْسُوسَةِ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَالْأَخْبَارِ ، مَنْقُولَةٌ عَنْ أَحْبَارِ أَهْلِ الْكِتَابِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُبْنَى عَلَيْهَا حُكْمٌ وَاعْتِقَادٌ ، فَتَدْبَرُ .

وَسَيَتَكَلَّمُ الْإِمَامُ الْمُصَنِّفُ عَلَى هَذَا فِي الْبَابِ الرَّابِعِ فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ .

يُحْمِلُ الْآيَةَ الْوَاحِدَةَ عَلَى مُحَامِلٍ مُتَعَدِّدَةٍ“^(١)

صُورَةٌ قِصَّةٌ وَلَا قِصَّةٌ لَهَا

وعلى هذا الأسلوب كثيراً ما يُذكر في القرآن العظيم صورتان: صورةٌ سعيدٍ، ويُذكر فيها بعض أوصاف السعادة؛ وصورةٌ شقيٍّ، ويُذكر فيها بعض أوصاف الشقاوة؛ ويكون الغرض من ذلك: بيان أحكام تلك الأوصاف والأعمال، لا التعريض بشخص معين، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾^(٢) ثم ذكر صورتين: صورةً سعيدٍ وصورةً شقيٍّ؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا: مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرًا﴾^(٤).

وعلى مثل هذا يُحمل قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا: قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾^(٥) وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ الآية^(٦) وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ

(١) قال الزركشي في البرهان (١: ١٠٢) وقد جعل بعضهم ذلك من أنواع معجزات القرآن؛ حيث كانت الكلمة الواحدة تُنصرف إلى عشرين وجهاً أو أكثر أو أقل، ولا يوجد ذلك في كلام البشر، وذكر مقاتل في صدر كتابه حديثاً مرفوعاً: “لا يكون الرجل فقيهاً كل الفقه، حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة”.

وقال السيوطي: أخرجه ابن سعد وغيره عن أبي الدرداء موقوفاً، ولفظه: “لا يفقه الرجل كل الفقه” وقد فسره بعضهم بأن المراد: أن يرى اللفظ الواحد يحتمل معاني متعددة، فيحمله عليها، إذا كانت غير متضادة، ولا يقتصر به على معنى واحد اهـ

(٢) سورة الأحقاف ١٥ (٣) سورة النحل ٢٤

(٤) سورة النحل ٣٠ (٥) سورة النحل ١١٢

(٦) سورة الأعراف ١٨٩ فلا تصغ إلى ما ذكره المفسرون من قصة آدم عليه السلام، وتسميته ابنه بعبد الحارث في تفسير هذه الآية .

فِي صَلَواتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿١﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَافٍ مِّمَّهِينَ﴾ ﴿٢﴾.

ولا يلزم في هذه الصور أن تتوفر تلك الخصوصيات بعينها في شخص، كما لا يلزم في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ، فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ ﴿٣﴾ أن توجد حبة بهذه الصفة؛ إنما المقصود: تصوير زيادة الأجر لا غير ﴿٤﴾؛ فإن وجدت صورة توافق ذلك في أكثر الخصوصيات، أو في كلها، كان ذلك من قبيل: "لزوم مالم يلتزم" ﴿٥﴾.

قد يفرضون السؤال والجواب في التفسير:

وفي بعض الأحيان يُردُّ في القرآن على شبهة ظاهرة الورود، أو يجاب عن سؤال مطوّي مفهوم بسهولة، لقصد إيضاح الكلام السابق، لا لأجل أن أحدا وجه هذا السؤال بعينه، أو أورد هذه الشبهة بعينها؛ وكثيرا ما يفترض ﴿٦﴾ الصحابة رضي الله عنهم في تقرير ذلك المقام سؤالا ويشرحون الكلام في صورة السؤال والجواب؛ ولكن لونها بامعان النظر فالكل كلام واحد منسّق ﴿٧﴾، لا يحتمل نزول بعض عقيب بعض، وجملة واحدة منتظمة ﴿٨﴾ لا تُفكّ

(١) سورة المؤمنون ١ و ٢ (٢) سورة القلم ١٠ (٣) سورة البقرة ٢٦١

(٤) أي في التمثيل تصوير للأضعاف، ويدل عليه ما روى عن غير واحد من الصحابة مرفوعا: من أرسل بنفقة في سبيل الله وأقام في بيته، فله بكل درهم سبعمائة درهم، ومن غزا بنفسه في سبيل الله وأنفق في وجهه ذلك، فله بكل درهم يوم القيمة سبعمائة ألف درهم؛ ثم تلا هذه الآية.

(٥) التزم الشيء: أوجبه على نفسه ولزم الشيء: ثبت ودام فمعنى قوله: "لزوم مالم يلتزم": ثبت وتحقق مالم يعتنق به.

(٦) افترض الباحث: اتخذ فرضا ليصل إلى حل مسألة.

(٧) منسّق: منظم، نسق الشيء: نظمه، يقال: نسق الدرّ، ونسق الكلام: عطف بعضه على بعض.

(٨) انتظم الشيء: تألف واتسق.

قيودها على أصل من الأصول^(١).

قد يريدون التقدم والتأخر الرتبي لا الزماني

وقد يذكر الصحابة رضى الله عنهم التقدم والتأخر، ويريدون بذلك: التقدم والتأخر الرتبي، لا الزماني، كما قال ابن عمر رضى الله عنه فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾^(٢): "إنما كان هذا قبل أن تُنزل الزكاة، فلما أنزلت جعلها الله طهراً للأموال"^(٣)؛ ومن المعلوم أن سورة البراءة آخر سورة نزلت، وهذه الآية فى تضاعيف^(٤)، القِصص المتأخرة، وقد كانت فرضية الزكاة متقدمة عليها بأعوام؛ ولكن مراد ابن عمر رضى الله عنه: تقدم الإجمال على التفصيل بالرتبة^(٥).

شرط المفسر أمران:

وبالجملة: فالذى يشترط على المفسر فى هذا الباب لا يزيد على أمرين:
الأول: معرفة قصص الغزوات وغيرها، مما وقع فى الآيات الإيماء إلى

(١) خذ مثلاً: روى البخارى (فى كتاب التفسير ص ٦٤٧) عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال: أنزلت: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ ولم تُنزل ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم فى رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعده "من الفجر" فعلموا أنما يعنى الليل والنهار.

(٢) سورة التوبة ٣٤

(٣) رواه البخارى فى كتاب الزكاة، وفى كتاب التفسير، رقم الحديث ١٤٠٤ و٤٦٦١

(٤) فى تضاعيف أى: فى ضمن؛ وتضاعيف الكتاب: حواشيه ومابين سطوره (المعجم الوسيط)

(٥) أى: فُتفسر الآية المجملة بالآية المفصلة فح معنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى: لا يؤدون الزكاة على وجهها ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

خصوصياتها، فمالم تُعلم تلك القصص لايتأتى فهم حقيقتها^(١).
والثانى: الاطلاع على فوائد بعض القيود؛ وكذا أسباب التشديد فى بعض
المواضع^(٢)، تتوقف معرفتها على أسباب النزول.
فن التوجيه:

وهذا المبحث الأخير^(٣) فى الحقيقة فن من فنون التوجيه؛ ومعنى التوجيه:
بيان وجه الكلام؛ وحاصل هذه الكلمة: أنه:
• قد تقع فى الآية شبهة ظاهرة، لاستبعاد الصورة التى هى مدلول الآية، أو
للتناقض بين الآيتين.

• أو يصعب فهم مدلول الآية على ذهن المبتدئ.

• أو لا تستقر فى ذهنه فائدة قيد من القيود.

فإذا قام المفسر بحل هذه الإشكالات سُمى ذلك توجيهها^(٤).

(١) قوله: لايتأتى أى: لايسهل ولايجوز، من تأتى الأمر: تَهَيَّأ وتَسَهَّل.

(٢) وراجع لأمثلته: المائدة ١٠١ و ١٠٢ والتوبة ٣٨ و ٣٩ و ٦١ وغير ذلك.

(٣) يعنى مبحث ما يحتاج إليه المفسر.

(٤) وذكر الزركشى فى البرهان (٣١٤: ٢) للتوجيه معنى آخر فقال: وأما التوجيه

وهو ما احتمل معنيين ويؤتى به عند فطنة المخاطب، كقوله تعالى حكاية عن أخت

موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ، وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾

(سورة القصص ١٢) فإن الضمير فى ”له“ يحتمل أن يكون لموسى، وأن يكون

لفرعون، قال ابن جريج: وبهذا تخلصت أخت موسى من قولهم: ”إنك عرفته“

فقلت: أردت: ”ناصرحون للملك“ واعترض عليه بأن هذا فى لغة العرب، لافى

كلامها المحكى، وهذا مردود، فإن الحكاية مطابقة لما قالته؛ وإن كانت بلغة أخرى.

ونظيره: جواب ابن الجوزى لمن قال له: من كان أفضل عند النبى صلى الله

عليه وسلم؟ أبوبكر أم على؟ فقال: من كانت ابنته تحته اه. فالإشكال فى ضمير:

”ابنته“ وضمير: تحته“ فإن فاطمة الزهراء ابنة الرسول كانت زوج على، وعائشة

بنت الصديق كانت زوج الرسول.

قلت: ما ذكره الزركشى فى معنى التوجيه ليس بسديد، بل هو قريب (==)

أمثلة التوجيه:

١- كما فى آية: ﴿يَا خَتَّ هَارُونَ﴾ ^(١) فقد سألوا: أن المدة بين موسى وعيسى عليهما السلام طويلة، فكيف يكون هارون أخو موسى عليهما السلام؟ كان السائل أضمر فى خاطره: أن هارون هذا هو هارون أخو موسى عليهما السلام؛ فأجاب صلى الله عليه وسلم بأن بنى إسرائيل كانوا يسمون بأسماء الصالحين قبلهم ^(٢).

٢- وكما سألوا: ^(٣) كيف يمشى الإنسان يوم الحشر على وجهه؟ فقال: "إن الذى أمشاه فى الدنيا على رجليه لقادر على أن يمشيه على وجهه" ^(٤).

٣- وكما سألوا (٥) ابن عباس رضى الله عنهما عن وجه التطبيق بين قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٦) وبين آية أخرى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٧) فقال رضى الله عنه: عدم

(=) من معنى "التورية" وأما التوجيه فالصحيح في معناها ما ذكره الإمام المصنف، وسيذكر المصنف مثل ما ذكره الزركشى في الفصل الأخير من هذا الباب في ذكر "المتشابه" فراجعه .

(١) سورة مريم ٢٨ وهذا مثال لإشكال تصور مصداق الآية على ذهن المبتدئ:
(٢) روى الإمام الترمذى وغيره عن المغيرة بن شعبة قال: بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى نجران (موضع باليمن) فقالوا لى: ألسنم تقرون: ﴿يَا خَتَّ هُرُونَ﴾؟ وكان بين موسى وعيسى ما كان؟ فلم أدر ما أجيبهم، فرجعت إلى النبی صلى الله عليه وسلم، فأخبرته، فقال: الا أخبرتهم، أنهم كانوا یسمون بأنبياء هم والصالحين قبلهم. (سنن الترمذى ٢: ١٤٤ فى أبواب التفسير فى تفسير سورة مريم)
(٣) مثال لاستبعاد صورة، هى مدلول الآية.

(٤) روى الشيخان عن أنس، قال: قيل يا رسول الله! كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال: الذى أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم (روح المعاني ١٥: ١٧٥ مشكوة حديث ٥٥٣٧)

(۵) مثال للتناقض بين الآيتين.

(۷) سورة الضُّفَّت ۲۷.

(٦) سورة المؤمنون ١٠١.

التساؤل يوم الحشر، والتساؤل بعد دخول الجنة^(١).

٤- وكما سألوا^(٢) عائشة رضى الله عنها، فقالوا: إن كان السعى بين الصفا والمروة واجبا، فلما ذا قال الله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ الآية^(٣)؟ فأجابت رضى الله عنها: بأن قوما كانوا يتجنبونه ويتخرجون منه، فلذلك قال الله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ﴾^(٤)

٥- وكما سأل عمر رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما معنى قيد^(٥)؟ فقال صلى الله عليه وسلم: صدقة تصدق الله بها عليكم،

(١) رواه الحاكم وابن جرير كما فى الدر المنثور وراجع روح المعانى (١٨: ٦٦) وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْلُمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ مع قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فالمنفى كلام التلطف والإكرام، والمثبت: سؤال التوبيخ والإهانة، فلا تنافى.

(٢) مثال لخفاء فائدة قيد من القيود على المبتدى.

(٣) سورة البقرة ١٥٨.

(٤) روى مسلم وغيره عن عروة بن الزبير قال: قلت لعائشة: إني لأظن رجلاً لو لم يطف بين الصفا والمروة ماضره؛ قالت: لِمَ؟ قلت: لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية فقالت: ما أتم الله حج امرأ، ولا عمرته لم يطف بين الصفا والمروة، ولو كان كما تقول، لكان: فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، وهل تدرى فيما كان ذاك؟ إنما كان ذاك أن الأنصار كانوا يهلون فى الجاهلية لصنمين على شط البحر، يقال لهما إساف ونائلة، ثم يجيئون فيطوفون بين الصفا والمروة، ثم يحلقون، فلما جاء الإسلام كرهوا أن يطوفوا بينهما للذى كانوا يصنعون فى الجاهلية قالت: فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ إلى آخرها قالت: فطافوا (فتح الملهم ٣: ٢٢٤)

(٥) فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (سورة النساء ١٠١) وهذا مثال ثانٍ لخفاء فائدة قيد من القيود.

فاقبلوا صدقته“^(١) أى أن الكرماء لا يضايقون فى الصدقة، فكذلك لم يذكر الله سبحانه وتعالى هذا القيد للتضييق، بل القيد إتفاقي.
وأمثلة التوجيه كثيرة، والغرض هنا التنبيه على معناه^(٢).

يذكر أسباب النزول وتوجيه

المشكل فى فتح الخبير لفائدتين

وأرى من المناسب أن أذكر فى الباب الخامس ما نقل البخارى والترمذى والحاكم فى تفاسيرهم^(٣) من أسباب النزول وتوجيه المشكل، بسند جيد إلى الصحابة رضى الله عنهم، أو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع التنقيح والاختصار لفائدتين:

الأولى: أن استحضار هذا القدر من الآثار لا بد منه للمفسر، كما لا بد له من حفظ القدر الذى ذكرناه فى ذلك الباب^(٤) من شرح غريب القرآن.
والثانية: أن يعلم أنه لا دخل لأكثر ما يروى من أسباب النزول فى فهم معانى الآيات الكريمة، اللهم إلا شئ قليل من القصص التى ذكرت فى هذه التفاسير الثلاثة التى هى أصح التفاسير عند المحدثين^(٥).

(١) روى الإمام مسلم عن يعلى بن أمية قال: قلت لعمر بن الخطاب: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقد أمن الناس؟ فقال: عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال: ”صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته“ (فتح الملهم ٢ : ٢٥٠)

(٢) وستكلم الإمام المصنف حول ” التوجيه “ فى الباب الرابع فى الفصل الثانى فراجع.

(٣) أى نقل البخارى فى كتاب التفسير من صحيحه، وكذا الترمذى فى أبواب التفسير من سننه، وكذا الحاكم فى كتاب التفسير من مستدركه.

(٤) أى: فى فتح الخبير.

(٥) أى فى تفاسير البخارى والترمذى والحاكم.

إفراط ابن إسحاق والواقدي والكلبي^(١)

وأما إفراط محمد بن إسحاق^(٢) والواقدي^(٣) والكلبي^(٤) وما ذكروا تحت كل آية من قصة، فأكثره غير صحيح عند المحدثين، وفي إسناده نظر^(٥)؛ ومن الخطأ البين: أن يُعدَّ ذلك من شروط التفسير؛ ومن يرى^(٦) أن تدبر كتاب الله يتوقف على الإحاطة بها،^(٧) فقد فات حظه من كتاب الله^(٨)، وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

(١) ليس ذكر الواقدي في أصل المصنف.

(٢) هو محمد بن إسحاق بن يسار، المطلبى بالولاء، المدني: من أقدم مؤرخي العرب، توفي سنة ١٥١هـ.

له "السيرة النبوية" رواها عنه ابن هشام، قال الذهبي في الميزان: ماله عندي ذنب إلا ما قد حشا في السيرة من الأشياء المنكرة المنقطعة والأشياء المكذوبة اهـ.

(٣) هو محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني: من أقدم المؤرخين في الإسلام ومن أشهرهم، ومن حفاظ الحديث، ولد بالمدينة سنة ١٣٠هـ، وانتقل إلى العراق، فكان قاضيا بها، وتوفي ببغداد سنة ٢٠٧هـ.

له "المغازي النبوية" وأشهر من روى عنه كاتبه محمد بن سعد (صاحب الطبقات الكبرى) وله "كتاب التفسير" قال البخاري: متروك وقال أحمد بن حنبل: هو كذاب.

(٤) هو محمد بن السائب بن بشر بن عمرو الكلبي: نَسَابة راوية، عالم بالتفسير والأخبار وأيام العرب، من أهل الكوفة، مولده ووفاته فيها، صنف كتباً في تفسير القرآن، وهو ضعيف الحديث، وقال أبو حاتم: أجمعوا على ترك حديثه، واتهمه جماعة بالوضع وقال النسائي: حدَّث عنه ثقات من الناس ورضوه في التفسير، وأما في الحديث ففيه مناكير، توفي سنة ١٤٦هـ.

(٥) الضمير في قوله: "أكثره" وكذا في: "إسناده" يرجعان إلى كلمة "ما" في قوله: "ما ذكروا".

(٦) يرى أى يعتقد (٧) أى على حفظ ما ذكروا تحت كل آية من القصص.

(٨) واشتغل بما لا يعنى به في تدبر القرآن.

الفصل الرابع

في

بقية مباحث هذا الباب

مما يوجب الخفاء: حذف بعض الأجزاء، أو أدوات الكلام^(١)؛ وإبدال شيء بشيء، وتقديم ماحقه التأخير، وتأخير ماحقه التقديم، واستعمال المتشابهات والتعريضات والكنيات، لاسيما تصوير المعنى المراد بالصورة المحسوسة التي تكون من لوازم ذلك المعنى عادة^(٢) واستعمال الاستعارة المكنية^(٣)، والمجاز العقلي؛ فلنذكر شيئا من الأمثلة لهذه الأشياء باختصار، لتكون على بصيرة.

بيان الحذف^(٤)

أما الحذف فعلى أقسام: حذف المضاف والموصوف والمتعلق وغير ذلك، مثل:

(١) الأدوات جمع أداة: الحروف، كاحرف الجر والجزم وأحرف الناصب وغيرها عطف على قوله: "الأجزاء" وقوله: بعض الأجزاء أى بعض أجزاء الجملة.
(٢) وهذا أيضا من باب الكنيات لأن فى الكناية يُطلق اللفظ، ويُراد به لازم معناه، مع جواز إرادة المعنى الحقيقى؛ فلما كانت الصورة المحسوسة من لوازم المعنى المراد، صار ذلك التصوير من قبيل الكناية.

(٣) الاستعارة المكنية: هى ما حذف فيه المشبه به، ورمز له بشئ من لوازمه، كقوله تعالى: ﴿وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْئًا﴾ (سورة مريم ٤) شئ الرأس بالوقود، ثم حذف المشبه به، ورمز له بشئ من لوازمه، وهو "اشتغل" — ولم يحرر للاستعارة المكنية ذكر فيما بعد فى التفصيل؛ فإما دهل عنه أو اكتفى عنها بالكناية، لأن فيها أيضا يفتقر اللفظ، ويُراد به لازم معناه: والتلويح، والرمز، والإيماء، والإشارة، والتعريض كلها من باب الكناية، فلعل المصنف عد الاستعارة المكنية أيضا من بابها، والله أعلم.

(٤) الحذف لغة: الإسقاط، واصطلاحا إسقاط جزء الكلام أو كله لدليل: ثم تنكلم على أمور مهمة:

(—)

(=) الأول: من فوائد الحذف: التفخيم والإعظام؛ لما فيه من الإبهام لذهاب،
الذهن في كل مذهب، وتشوُّفه إلى ما هو المراد؛
ومنها: زيادة لذة بسبب استنباط الذهن للمحذوف، وكلما كان الشعور
بالمحذوف أعسر، كان الالتذاذله أشد وأحسن.

ومنها: طلب الإيجاز والاختصار، وما إلى ذلك من الفوائد.
الثاني: ومن أسباب الحذف مجرد الاختصار والاحتراز عن العبث ببناءً على
الظاهر، نحو: الهلال والله! أي هذا، فحذف المبتدأ استغناءً عنه بقرينة شهادة الحال.
ومنها: التنبيه على أن الزمان يتقاصر عن الإيتان بالمحذوف؛ وهذه هي
فائدة باب التحذير؛

ومنها: التفخيم والإعظام.
ومنها: التخفيف لكثرة دورانه في كلامهم، كما حذف حرف النداء في
نحو: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾؛
ومنها: رعاية الفاصلة؛ وما إلى ذلك من الأسباب.
الثالث: الحذف لا يجوز إلا لدليل؛ والدليل تارة يدل على محذوف مطلق
وتارة على محذوف معين.

فمنها: أن يدل عليه العقل، حيث يستحيل صحة الكلام عقلاً إلا بتقدير
محذوف. كقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ فإنه يستحيل عقلاً تكلم الأمكنة، إلا معجزة.
ومنها: أن يدل عليه العادة الشرعية، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾
فإن الذات لا تتصف بالحل والحرمة شرعاً، إنما هي من صفات الأفعال الواقعة على
الذات، فعلم أن المحذوف "التناول" ولكنه لما حذف وأقيمت الميتة مقامه أسند
إليه الفعل. وقُطع النظر عنه، فلذلك أنث الفعل في بعض الصور، كقوله تعالى:
﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾

ومنها: أن يدل اللفظ على الحذف، والشروع في الفعل على تعيين
المحذوف، كقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ فإن اللفظ يدل على أن فيه حذفاً؛ لأن حرف
الجر لا بد له من متعلق، ودل الشروع على تعيينه؛ وهو الفعل الذي جعلت التسمية
في مبدئه: من قراءة أو أكل أو شرب ونحوه، ويقدر في كل موضع ما يليق به، (=)

(==) ففي القراءة: أقرأ، وفي الأكل: آكل، ونحوه.

ومنها: تقدم ما يدل على المحذوف، وما في سياقه.

ومنها: اعتضاده بسبب النزول، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ فإنه لا بد فيه من تقدير، فقليل: قمتم من المضاجع يعني النوم وقيل: إذا قمتم محدثين الرابع: من شروط المحذوف أن تكون في المذكور دلالة على المحذوف، إما من لفظه أو سياقه، وإلا لم يتمكن من معرفته، فيصير اللفظ مُحِلاً بالفهم، وهو معنى قولهم: لا بد أن يكون فيما أبقي دليل على ما أُلقي.

الخامس: من أقسام المحذوف.

الإقطاء: وهو ذكر حرف من الكلمة وإسقاط الباقي كما في الحديث: "كفى بالسيف شأ" أى شاهدًا، وأنكر صاحب "المثل السائر" وزود هذا النوع في القرآن العظيم. ومنها: الاكتفاء، وهو أن يقتضى المقام ذكر شيئين؛ بينهما تلازم وارتباط؛ فيكتفى بأحدهما عن الآخر؛ ثم ليس المراد الاكتفاء بأحدهما كيف ما اتفق؛ بل لأن فيه نكتة تقتضى الاقتصار عليه، كقوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ (سورة آل عمران ٢٦) تقديره "والشر" إذ مصادر الأمور كلها بيده جل جلاله؛ وإنما أثر ذكر الخير لأنه مطلوب العباد ومرغوبهم إليه أولاً لأنه يجب في باب الأدب ألا يضاف إلى الله تعالى، كما قال صلى الله عليه وسلم: "والشر ليس إليك" وأمثلة هذا القسم كثيرة؛ ومنها: قسم يسمى الضمير والتمثيل؛ وأعنى بالضمير أن يضم من القول المجاور لبيان أحد جزئيه كقول الفقيه: النيذ مسكر فهو حرام. فإنه أضمّر "وكل مسكر حرام" كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران ١٥٩) وقد شهد الحس والعيان أنهم ما انفضوا من حوله؛ وهى المضمره؛ فانتفى عنه صلى الله عليه وسلم كونه فظاً غليظ القلب.

ومنها: أن يستدل بالفعل لشيئين وهو في الحقيقة لأحدهما، فيضمّر للآخر فعل يناسبه، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ (سورة الحشر ٩) أى: واعتقدوا الإيمان ومنها: أن يقتضى الكلام شيئين فيقتصر على أحدهما؛ لأنه المقصود، كقوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ (سورة طه ٤٩) ولم يقل "وهرون" لأن موسى المقصود المتحمل أعباء الرسالة.

(==)

(=) ومنها: الاختزال، وهو الافتعال، من خزله: قطع وسطه ونقل في الاصطلاح إلى حذف كلمة أو أكثر؛ وهى إما أسم أو فعل أو حرف.

حذف الاسم: فمنه: المبتدأ كقوله تعالى: ﴿بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ (الأحقاف ٣٥) أى: هذا بلاغ؛ وكقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا﴾ (النور ١) أى: هذه سورة. ومنه حذف الخبر، كقوله تعالى: ﴿أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ (الرعد ٣) أى ظلها دائم. ومنه حذف الفاعل: كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ﴾ (النمل ٣٦) تقديره: فلما جاء الرسول سليمان.

ومنه حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه، وهو كثير، قال ابن جنى: وفي القرآن منه زهاء ألف موضع، وشرط المبرد لجوازه وجود دليل على المحذوف من عقل أو قرينة؛ وقال الزمخشري: لا يستقيم تقدير المضاف فى كل موضع، ولا يقدم عليه إلا بدليل واضح غير مُلبس؛ كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ (الأنبياء ٩٦) أى: سد يأجوج ومأجوج، وكقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ (البقرة ١٧٧) أى: بر من آمن بالله.

ومنه: حذف المضاف إليه: هو أقل استعمالاً؛ كقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ (الروم ٤) أى: من قبل ذلك ومن بعده؛ وكذا كل ما قطع عن الإضافة مما وجبت إضافته معنى، لالفظاً.

ومنه حذف المضاف والمضاف إليه معاً: وذلك حيث يضاف المضاف إليه إلى مضاف؛ فيحذف الأول والثاني ويبقى الثالث، كقوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ (الواقعة ٨٢) أى بدل شكر رزقكم وكقوله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ (الحشر ٥) أى: من أموال كفار أهل القرى.

ومنه حذف الجار والمجرور، كقوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (العنكبوت ٤٥) أى: من كل شيء.

ومنه حذف الموصوف، ويشترط فى حذفه أمران: أحدهما: كون الصفة خاصة بالموصوف حتى يحصل العلم بالموصوف، فمتى كانت الصفة عامة امتنع حذف الموصوف، والثاني: أن يعتمد على مجرد الصفة من حيث هى لتعلق غرض السياق؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبا ١٣) أى: العبد الشكور. (=)

(=) ومنه حذف الصفة؛ وأكثر ما يرد للتفخيم والتعظيم في النكرات، وكان التنكير حينئذ علم عليه، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ (الكهف ١٠٥) أى: وزناً نافعا.

ومنه حذف المعطوف كقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ (الأعراف ١٨٥) أى: اعموا ولم ينظروا.

وقد يحذف المعطوف مع حرف العطف؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ (الإسراء ١٦) أى: أمرنا مترفيها فخالقوا الأمر ففسقوا. ومنه حذف المعطوف عليه، كقوله تعالى: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ (آل عمران ٩١) أى: لو ملكه ولو افتدى به؛ ويجوز حذفه مع حرف العطف كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة ١٨٤) أى فافطر فعدة.

ومنه حذف الموصول، كقوله تعالى: ﴿آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ﴾ (العنكبوت ٤٦) أى: وبالذي أنزل إليكم.

ومنه حذف المخصوص في باب نعم، إذا علم من سياق الكلام، كقوله تعالى: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (سورة ص ٣٠) والتقدير: نعم العبد أيوب، أو نعم العبد هو.

ومنه حذف المفعول، وهو ضربان: أحدهما: أن يكون مقصودا مع الحذف فينبى لدليل كقوله تعالى: ﴿فَعَالٌ لِمِائِرٍ﴾ (البروج ١٦) أى: يريد، والثاني: أن لا يكون المفعول مقصودا أصلاً، ويُنزل الفعل المتعدى منزلة القاصر، وذلك عند إرادة وقوع نفس الفعل فقط، وجعل المحذوف نسياً منسياً، كما يُنسى الفاعل عند بناء الفعل؛ فلا يذكر المفعول ولا يقدر؛ غير أنه لازم الثبوت عقلاً لموضوع كل فعل متعد كقوله تعالى: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ (البقرة ٢٥٨) وكقوله تعالى: ﴿لَمْ تَعْبُدْ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ (مريم ٤٢).

ومنه حذف المنادى، ومنه: حذف الشرط، كقوله تعالى: ﴿قَالَهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ (الشورى ٩) تقديره: إن أرادوا أولياء، فالله هو الولي بالحق، لا ولي سواه.

ومنه حذف جواب الشرط: ويكثر ذلك في جواب لو، ولولا.

ومنه حذف جواب القسم: لعلم السامع المراد منه.

ومنه حذف القول: وقد كثر في القرآن العظيم حتى أنه في الإضمار بمنزلة

الإظهار. كقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ، كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ (=)

• قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ﴾^(١) أى برٌّ من آمن.

• وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا ثُمُودَ النَّافَّةَ مُبْصِرَةً﴾^(٢) أى آية مبصرة، لأنها مبصرة، غير عمياء.

• وقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾^(٣) أى حب العجل.

(=) (البقرة ٦٠) أى: قلنا.

حذف الفعل: وينقسم إلى عام وخاص:

فالخاص: نحو "أعنى" مضمراً وينتصب المفعول به فى المدح:

نحو: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ (البقرة ١٧٧) أى: أمدح.

والعام: كل منصوب دل عليه الفعل لفظاً أو معنى أو تقديرًا، ويحذف لأسباب:

١- أن يكون مفسراً، كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ (الرحمن ٧)

٢- أن يكون هناك حرف جر، نحو: بسم الله؛ فإنه يفيد أن المراد: بسم الله أقرأ

٣- أن يكون جواباً لسؤال واقع أو مقدر، نحو: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (لقمان ٢٥)

٤- أن يدل عليه معنى الفعل الظاهر.

٥- أن يدل عليه العقل.

٦- أن يدل عليه ذكره فى موضع آخر.

٧- أن يكون بدلاً من مصدره، نحو: ﴿فَضْرَبَ الرَّقَابَ﴾ (القتال ٤).

حذف الحرف: قال أبو بكر بن السراج: حذف الحرف ليس يقاس، وذلك لأن

الحرف نائب عن الفعل بفاعله، ألا ترى أنك إذا قلت: ما قام زيد، فقد نابت "ما" عن

"أنفى" كما نابت "إلا" عن "أستثنى" وكما نابت الهمزة وهل عن "أستفهم" وكما

نابت حروف العطف عن "أعطف" ونحو ذلك، فلو ذهبت تحذف الحرف، لكان ذلك

اختصاراً، واختصار المختصر إحجاف به، إلا إذا صح التوجه إليه، وقد جاز فى بعض

الأحوال حذفه لقوة الدلالة عليها اهـ (اجتنبت التعليق كله من البرهان (٣: ١٠٢ - ٢١٠)

(١) البقرة ١١٧ وفيه حذف المضاف.

(٢) سورة بنى إسرائيل ٥٩ وفيه حذف الموصوف.

(٣) سورة البقرة ٩٣ وفيه حذف المضاف؛ وقال الراغب: إنه على بابه، فإن فى

ذكر العجل تنبيهاً على أنه لفرط محبتهم صار صورة العجل فى قلوبهم لا تمحى.

- وقوله تعالى: ﴿أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾^(١) أى بغير قتل نفس.
- وقوله تعالى: ﴿أَوْ فَسَادٍ﴾^(٢) أى بغير فساد.
- وقوله تعالى: ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣) أى من فى السماوات ومن فى الارض ؛ لا أن شيئا واحدا هو فى السماوات والارض.
- وقوله تعالى: ﴿ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾^(٤) أى ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات.
- وقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾^(٥) أى أهل القرية.
- وقوله تعالى: ﴿بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾^(٦) أى فعلوا مكان شكر نعمة الله كفرا.
- وقوله تعالى: ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(٧) أى للخصلة التى هى أقوم.
- وقوله تعالى: ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٨) أى بالخصلة التى هى أحسن.

(١) سورة الكهف ٧٤ وفيه حذف المضاف.

(٢) سورة المائدة ٣٢ وفيه حذف المضاف، وهو الجار والمجرور.

(٣) جاء فى التنزيل فى تسعة مواضع كما فى سورة الرحمن ٢٩ وكما فى الأنبياء ١٩ وجاء قوله: ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ فى أربع مواضع، أولها فى سورة يونس ٦٦ وقال بعضهم: وتأملت هذه المواضع فوجدت أنه حيث قصد التنصيب على الأفراد ذكر الموصول والظرف، ألا ترى إلى المقصود فى سورة يونس من نفى الشركاء الذين اتخذوهم فى الأرض وإلى المقصود فى آية الكرسي من إحاطة الملك؛ وحيث قصد أمر آخر لم يذكر الموصول إلا مرة واحدة إشارة إلى قصد الجنس، وللاهتمام بما هو المقصود فى تلك الآية، ألا ترى إلى سورة الرحمن، المقصود منها علو قدرة الله تعالى، وعلمه وشأنه وكونه مسئولا، ولم يقصد أفراد السائلين فتأمل هذه المواضع (البرهان ٤: ٧٣)

(٤) سورة الإسراء ٧٥ وفيه حذف المضاف.

(٥) سورة يوسف ٨٢ وفيه حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه.

(٦) سورة إبراهيم ٢٨ وفيه: حذف المضاف والمضاف إليه معاً.

(٧) سورة الإسراء ٩ وفيه: حذف الموصوف.

(٨) سورة فصلت ٣٤ وفيه أيضا حذف الموصوف.

• وقوله تعالى: ﴿سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾^(١) أى الكلمة الحسنى والعِدَّة الحسنى^(٢)

• وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ﴾^(٣) أى على عهد ملك سليمان.

• وقوله تعالى: ﴿وَعَدْنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾^(٤) أى على السنة رسلك.

• وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^(٥) أى أنزلنا القرآن، وإن لم يسبق له ذكر

• وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾^(٦) أى توارت الشمس.

• وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا﴾^(٧) أى خصلة الصبر.

• وقوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾^(٨) — فيمن قرأ بالنصب — أى جعل

منهم من عبد الطاغوت.

• وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾^(٩) أى جعل له نسبا وصهرا.

(١) سورة الأنبياء ١٠١ وفيه أيضا حذف الموصوف

(٢) قوله: العدة مصدر وعد بمعنى الوعد.

(٣) سورة البقرة ١٠٢ وفيه حذف المضاف الأول.

(٤) سورة آل عمران ١٩٤ وفيه أيضا حذف المضاف الأول.

(٥) سورة القدر وفيه حذف مرجع الضمير قال الزركشى: أضمّر القرآن لأن

الإنزال يدل عليه (البرهان ٤: ٢٧)

(٦) سورة ص ٣٢ وفيه حذف الفاعل وقيل: فاعل تورات ضمير "الصفافات" ذكره

ابن مالك وابن عربى فى الفتوحات، ويرجّحه أن اتفاق الضمائر أولى من تخالفها

(البرهان ٤: ٢٦)

(٧) سورة فصلت ٣٥ وفيه حذف مرجع الضمير.

(٨) سورة المائدة ٦٠ وفيه حذف الموصول؛ قرأ الجمهور بفتح الباء ونصب التاء.

على أنه فعل ماض معلوم، وفيه ضمير يعود إلى "من" وفى قراءة حمزة بضم باء

عبد، وإضافته إلى ما بعده؛ اسم جمع لعبد.

(٩) سورة الفرقان ٥٤ وفيه: حذف الجار ثم إيصال الفعل إلى المجرور؛ قال

الزركشى: كثر فى القرآن حذف الجار ثم إيصال الفعل إلى المجرور به كقوله

تعالى ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ أى من قومه (البرهان ٣: ٢١٥)

• وقوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾^(١) أى من قومه.

• وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾^(٢) أى كفروا نعمة ربهم، أو: كفروا بربهم، بنزع الخافض.

• وقوله تعالى: ﴿تَفْتُوا﴾^(٣) أى لا تفتؤ، ومعناه: لاتزال.

• وقوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^(٤) أى يقولون: ما نعبدهم.

• وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾^(٥) أى الذين اتخذوا العجل إلها.

(١) سورة الأعراف ١٥٥ وفيه أيضًا حذف الجار ثم الإيصال.

(٢) سورة هود ٦٠ وفيه إما حذف المضاف الأول وإما حذف الجار ثم الإيصال.

(٣) سورة يوسف ٨٥ وفيه: حذف الحرف لأنها ملازمة للنفي، ومعناها لاتزال ولا تبرح (البرهان ٣: ٢١٥)

(٤) سورة الزمر ٣ وفيه حذف القول؛ وقال شيخ مشايخنا العلامة المحدث الكبير محمد أنور شاه الكشميري فى تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ (البقرة ١٢٧): وقد قدّر المفسرون ههنا "يقولان" ربنا الخ قلت: وهذا إعدام لغرض القرآن فاعلم أن طريق المؤرخ الحكاية عن الغائبات، على طور نقل الغائب عن الغائب، وطريق القرآن أنه قد يأتى لإحضار مافى الخارج عند المتكلم، وتصويره فى ذهنه، كأنه واقع الآن، وقد فصلناه من قبل، ومن يخلط بين الطريقتين يعجز عن إدراك بعض معانى الأشعار أيضا كقوله:

خيال خواب راحت ہے، علاج اس بدگمانی کا وہ کافر قبر میں، مؤمن میرا شانہ ہلاتا ہے
فقوله علاج اس بدگمانی کا ليس خبرا عن قوله: خيال خواب راحت ہے بل هو جملة مستقلة يظهر معناها عند التغيير فى اللهجة؛ وحاصل البيت: أن حببتي يتهمنى بعد الموت أيضًا فيظن أنى فى المنام، فما أصنع بسوء ظنه ذلك؟ حتى إنه يحرك كاهلى لأستيقظ من نومي، وما بى من نوم، ولكنى قد متُّ اهـ (فيض البارى ٤: ١٥٧)

فعلم أن حذف القول فى القرآن ربما يعدم غرض الكلام.

(٥) سورة الأعراف ١٥٢ وفيه حذف المفعول الثانى.

• وقوله تعالى: ﴿تَأْتُونَنَا غِيبُ الْيَمِينِ﴾^(١) أى وعن الشمال.

• وقوله تعالى: ﴿فَظَلُّتُمْ تَفْكَهُونَ، إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾^(٢) أى تقولون: إنا لمغرمون.

• وقوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً﴾^(٣) أى بدلا منكم.

• وقوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾^(٤) أى امض.

حذف خبر إنَّ والجزاء والمفعول

والمبتدأ وما شابهها مَطْرَد.

وليُعلم أن حذف خبر "إن" أو حذف جزاء الشرط، أو مفعول الفعل، أو مبتدأ الجملة، وما أشبه ذلك مَطْرَد^(٥) فى القرآن الكريم إذا كان فيما بعده دلالة على حذفه، نحو:

• قوله تعالى: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٦) أى لو شاء هدايتكم لهداكم.

• وقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾^(٧) أى هذا الحق من ربك.

• وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ، أُولَئِكَ أَغْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا﴾^(٨) أى لا يستوى من أنفق من قبل الفتح

(١) سورة الصَّفَّت ٢٨ وفيه حذف بعض أجزاء الجملة؛ وهذا الحذف يسمى حذف الاكتفاء كما تقدم.

(٢) سورة الواقعة ٦٥ و ٦٦ وفيه حذف القول.

(٣) سورة الزخرف ٦٠ وفيه حذف المضاف.

(٤) سورة الأنفال ٥ وفيه حذف الفعل.

(٥) قوله: مَطْرَد: أى عام لاشذوذ فيه، ومنه: القاعدة المطردة أى: لاشذوذ فيها.

(٦) سورة الأنعام ١٤٩ وفيه حذف المفعول.

(٧) سورة البقرة ١٤٧ وفيه حذف المبتدأ.

(٨) سورة الحديد ١٠ وفيه حذف بعض الجملة وهو المعطوف ويسمى هذا الحذف حذف الاكتفاء.

ومن أنفق من بعد الفتح. فحذف الثانى^(١) لدلالة قوله: ﴿أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ﴾

• وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ: وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾^(٢) أى إذا قيل لهم: اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم أعرضوا.

لا حاجة إلى تفتيش العامل فى كلمة ” إذ “

وليعلم أيضا: أن الأصل فى مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾^(٣) وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾^(٤) أن تكون كلمة ” إذ “ ظرفا لفعل من الأفعال، ولكنها نُقلت ههنا إلى معنى التخويف والتهويل، كمثّل الذى يذكر المواضع الهائلة أو الوقائع العظيمة على سبيل التعداد، من دون تركيب للجمل، ومن غير وقوع الكلمات فى حيز الإعراب؛ بل المقصود ذكرها بأعينها، حتى ترسم صورتها فى ذهن المخاطب، ويستولى الخوف منها على قلبه.

فالتحقيق: أنه لا يلزم فى أمثال هذه المواضع تفتيش العامل، والله أعلم.

حذف الجار من ” أن “ مطرد

وليعلم أيضًا: أن حذف الجار من ” أن “ المصدرية مطرد فى كلام العرب؛ والمعنى: لأن، أو: بأن^(٥).

حذف جواب ” لو “ الشرطية

وليعلم أيضًا: أن الأصل فى مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي

(١) لأن الاستواء يطلب الاثنين.

(٢) سورة يس ٤٥ و ٤٦ وفيه حذف جزاء الشرط للاكتفاء بالآية الثانية.

(٣) سورة البقرة ٣٠ (٤) سورة البقرة ٤٥

(٥) قال المفسر أبو السعود فى إرشاد العقل السليم (١٩٦: ٥) ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا

إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ ﴾ أى بأن أنذرهم، على أن ” أن “ مصدرية حذف منها

الجار وأوصل إليها الفعل، فإن حذفه مع ” أن “ و ” إن “ مطرد اهـ.

غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴿١﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ (٢).
أن يكون جواب الشرط محذوفاً (٣)، إلا أنهم نقلوا هذا التركيب إلى معنى
التعجب، فلا حاجة إلى تفتيش المحذوف والله أعلم.

بيان الإبدال

أما الإبدال فإنه تصرف كثير الفنون:

إبدال فعل بفعل:

قد يذكر سبحانه وتعالى فعلاً مكان فعل، لأغراض شتى، وليس
استقصاء (٤) تلك الأغراض من وظيفة هذا الكتاب، نحو:
• قوله تعالى: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ (٥) أى يَسُبُّ آلِهَتَكُمْ؛ وكان أصل
الكلام: أهذا الذى يسب، ولكن كره ذكر السب، فأبدل بالذكر.
ومن هذا القبيل ما يقال فى العرف (٦): "أصيب أعداء فلان بمرض" أو:

(٢) سورة البقرة ١٦٥

(١) سورة الأنعام ٩٣

(٣) أى الأصل فى لوولولا أن يحذف الجواب؛ وتقديره فى هذه المواضع:
"لرأيت عجباً" أو: "أمرًا عظيمًا" أو: "لرأيت سوء منقلبهم" أو: "لرأيت سوء
حالهم" والسرُّ فى حذفه فى هذه المواضع: أنها لما رُبِطت إحدى الجملتين
بالأخرى حتى صار جملة واحدة، أوجب ذلك فصلاً وطولاً، فخفف بالحذف؛
خصوصاً مع الدلالة على ذلك (البرهان ٣: ١٨٣)

(٤) استقصى المسئلة: بلغ الغاية فى البحث عنها.

(٥) سورة الأنبياء ٣٦ والاستفهام للإنكار والتعجب، ويفيدان أن المراد يذكر
آلهتكم بسوء؛ وقد يكتفى بدلالة الحال عليه كما فى قوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا قُتِي
يَذْكُرُهُمْ﴾ فإن ذكر العدو لا يكون إلا بسوء؛ وقد تحاشوا عن التصريح أدباً مع
آلهتهم (روح المعانى ١٧: ٤١٤) وحينئذ يكون المثال من باب حذف الجار
والمجرور — وهما بسوء — لامن باب الإبدال.

(٦) عند مخاطبتهم سادتهم أو مكرميهم أى ينسبون الأمر إلى ما يلا بسهم أو إلى متعلقهم.

- ”شَرَّفْنَا بِالْمَجِيِّ عَيْدُ الْحَضْرَةِ“ أو: ”عبيد الجناح العالى مطلعون على هذه المقدمة“^(١)؛ والمراد: قد مرض فلان، وقدم سعادة فلان، واطلع سُمُو فلان.
- وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُضْحَبُونَ﴾^(٢) أى منا لا ينصرون ؛ لما كانت النصره لا تتصور بدون الاجتماع والصحبة أبدل ينصرون بيصحبون .
- وقوله تعالى: ﴿ثَقُلْتُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣) أى خفيت ؛ لأن الشئ إذا خفى علمه، ثقل على أهل السماوات والأرض^(٤).
- وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾^(٥) أى عفون لكم عن شئ من طيبة أنفسهن^(٦).

إبدال اسم باسم

- وقد يذكر سبحانه وتعالى اسما مكان اسم، نحو:
- قوله تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾^(٧) أى خاضعة.
- وقوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾^(٨) أى من القانتات.

(١) هذه كلها تعبيرات فارسية، كانوا يتكلمون بها أو بمثلها عند سادتهم وكبرائهم
(٢) سورة الأنبياء ٤٣ (٣) سورة الأعراف ١٨٧.

(٤) كما روى عن السدى: أن من خفى عليه علم شئ كان ثقيلا عليه (روح المعاني ١٣٣: ٩) فمعنى الآية: كبرت وعظمت على أهلها حيث لم يعلموا وقت وقوعها.
(٥) سورة النساء ٤

(٦) وإنما أوتر مافى النظم الكريم دُون ” عفون “ أو ” وهبن “ إيذانا بأن العمدة فى الأمر طيب النفس .

(٧) سورة الشعراء ٤ .

(٨) سورة التحريم ١٢ وإنما أوتر ما فى التنزيل إيماءً إلى أن طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال الكاملين اهـ (الصاوى) وكذا فى البرهان (٣: ٣٠٢) ومثله فى قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ والأصل: الغابرات.

- وقوله تعالى: ﴿وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾^(١) أى من ناصر.
- وقوله تعالى: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾^(٢) أى حاجزاً.
- وقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾^(٣) أى أفراد بنى آدم؛ أفراد اللفظ لأنه اسم جنس.
- وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا﴾^(٤) المعنى: "يا بنى آدم إنكم"؛ أفراد اللفظ لأنه اسم جنس.
- وقوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾^(٥) يعنى أفراد الإنسان.
- وقوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٦) أى نوحاً وحده.
- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾^(٧) أى إني فتحت لك.
- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾^(٨) أى إني لقادر.
- وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ﴾^(٩) أى يسلِّط محمداً صلى الله عليه وسلم.
- وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾^(١٠) أى عروة الثقفى وحده.
- وقوله تعالى: ﴿فَإَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ﴾^(١١) أى طعم الجوع؛ أبدل الطعم

(١) سورة آل عمران ٢٢ وإنما جمع الناصر لرعاية ما وقع فى مقابلته ، لالنفى تعدد الأنصار لكل واحد منهم.

(٢) سورة الحاقة ٤٧

(٣) سورة العصر ١ و ٢ وإنما أراد الأفراد لدلالة الاستثناء.

(٤) سورة الانشقاق ٦ وأراد الأفراد لدلالة "إنك"

(٥) سورة الأحزاب ٧٢

(٦) سورة الشعراء ١٠٥ ولما كان تكذيبه صلى الله عليه وسلم تكديبا لجميع الرسل ، لا اشتراكهم فى المجيئ بالتوحيد، جمّع المرسلين.

(٧) سورة الفتح ١ (٨) سورة المعارج ٤٠

(٩) سورة الحشر ٦ (١٠) سورة آل عمران ١٧٣

(١١) سورة النحل ١١٢

باللباس إيدانا بأن الجوع له أثر من التحول والذبول ما يعم البدن كله ويشمله كاللباس.

● وقوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾^(١) أى دين الله؛ أبدل بالصبغة إيدانا بأنه كالصبغ تتلون به النفس؛ أو مشاكلة^(٢) بقول النصارى فى المعمودية^(٣).

● وقوله تعالى: ﴿وَطُورٍ سَيْنِينَ﴾^(٤) أى طور سيناء.

● وقوله تعالى: ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ إِيَّاسِينَ﴾^(٥) أى على إيلياس؛ قلب الاسمان^(٦) للازدواج.

إبدال حرف بحرف

وقد يذكر سبحانه وتعالى حرفاً مكان حرف، نحو:

● قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾^(٧) أى على الجبل، كما تجلى فى المرة الأولى على الشجرة.

● وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾^(٨) أى إليها سابقون.

(١) سورة البقرة ١٣٨ (٢) أى مماثلة وموافقة بقولهم.

(٣) قال فى المنجد: المعمودية: أول أسرار الدين المسيحى وباب النصرانية، وهى غسل الصبى وغيره بالماء باسم الأب والابن والروح القدس؛ واللفظ سريانى الأصل، أو مولدة مأخوذة من العمد أى البلل اه وقال السيد الآلوسى: وقيل: للمشاكلة التقديرية، فإن النصارى كانوا يصبغون أولادهم بماء أصفر، يسمونه "المعمودية" يزعمون أنه الماء الذى ولد فيه عيسى عليه الصلاة والسلام، يعتقدون أنه تطهير للمولود، كالختان لغيرهم (روح المعانى ١: ٣٩٧)

(٤) سورة التين ٢ (٥) سورة الصافات ١٣٠

(٦) يعنى سينين وإل ياسين. والازدواج من ازدوج الكلام: أشبه بعضه بعضاً فى السجع أو الوزن.

(٧) سورة الأعراف ١٤٣ (٨) سورة المؤمنون ٦١

• وقوله تعالى: ﴿لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾^(١) أى لكن من ظلم؛ فهو استيناف.

• وقوله تعالى: ﴿لَا صَلْبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾^(٢) أى على جذوع النخل.

• وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾^(٣) أى يستمعون عليه.

• وقوله تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾^(٤) أى منفطر فيه.

• وقوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾^(٥) أى عنه.

• وقوله تعالى: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾^(٦) أى حملته العزة على الإثم.

• وقوله تعالى: ﴿فَسُئِلَ بِهِ خَبِيرًا﴾^(٧) أى فاسأل عنه.

• وقوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾^(٨) أى مع أموالكم.

• وقوله تعالى: ﴿إِلَى الْمَرَافِقِ﴾^(٩) أى مع المرافق.

• وقوله تعالى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾^(١٠) أى يشرب منها.

• وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا: مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾^(١١) أى أن قالوا.

إبدال جملة بجملة

وقد يورد جملة مكان جملة، مثلاً: إذا دلت جملة على حاصل مضمون

جملة أخرى، وسبب وجودها، فتبدل بتلك الجملة؛ نحو:

(١) سورة النمل ١٠ و ١١ وقوله: إلا من ظلم استثناء منقطع؛ ليس باستثناء من المرسلين، لأنه لا يجوز منهم الظلم، والمعنى: لكن من ظلم من سائر الناس فإنه يخاف فإن تاب فأغفرله، ولستم أيها المرسلون من الظالمين، فلا خوف عليكم، فقوله: استيناف أى هذه الجملة مستأنفة وليست باستثناء من ما قبلها.

(٢) سورة طه ٧١ (٣) سورة الطور ٣٨ (٤) سورة المزمل ١٨

(٥) سورة المؤمنون ٦٧ (٦) سورة البقرة ٢٠٦ (٧) سورة الفرقان ٥٩

(٨) سورة النساء ٢ (٩) سورة المائدة ٦ (١٠) سورة الدهر ٦

(١١) سورة الأنعام ٩١

• قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ﴾^(١) أى إن تخالطوهم فلا بأس بذلك، لأنهم أخوانكم؛ وشأن الأخ أن يخالط أخاه.

• وقوله تعالى: ﴿لَمْثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾^(٢) أى لو جدوا ثوابا؛ ومثوبة من عند الله خير.

• وقوله تعالى: ﴿إِنْ يُسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾^(٣) أى إن سرق فلا عجب، لأنه قد سرق أخ له من قبل.

• وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ، فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٤) أى من كان عدوا لجبريل فإن الله عدوله، فإنه نزل على قلبك بإذنه؛ فعدوه يستحق أن يعاديه الله تعالى؛ فحذف: "فإن الله عدو له" بدليل الآية التالية، وأبدل منه: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾.

إبدال التنكير بالتعريف

وقد يقتضى أصل الكلام التنكير، فيتصرف فيه بإدخال اللام والإضافة، ويبقى المعنى على التنكير الأول، نحو:

(١) سورة البقرة ٢٢٠ وخالطه: عاشره.

(٢) سورة البقرة ١٠٣ وتمامها: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ﴾ الآية.

(٣) سورة يوسف ٧٧ قال الآلوسى: والمعنى: إن كان سرق "فليس ببذع" لسبق مثله من أخيه؛ وكأنهم أرادوا بذلك دفع المعرفة عنهم، واختصاصها بالشقيقين؛ وتنكير "أخ" لأن الحاضرين لا علم لهم به (الروح ١٣: ٣٢).

(٤) سورة البقرة ٩٧ وقيل المعنى: من كان عدوا لله فليمت غيظا، لأنه نزل على قلبك بإذن الله؛ والقرينة على الحذف الجملة المعترضة المذكورة بعده فى وعيدهم، وهى: من كان عدوا لله وملئكته الآية، والأصح ما قال المفسر العالم الربانى، الإمام التهانوى: من كان عدوا لجبريل "فلامس لعداوته بمدعاه من تكذيب القرآن" فإنه نزل الخ فإن قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية، دالة على الجملة المحذوفة (بيان القرآن ١: ٥٨).

• قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا رَبِّ﴾^(١) أى قيل له^(٢): يارب، فأبدل بقيله، لأنه أخصر فى اللفظ.

• وقوله تعالى: ﴿حَقُّ الْيَقِينِ﴾^(٣) أى حق يقين، أضيف ليكون أيسر فى اللفظ.

إبدال التذكير والتأنيث والإفراد بأضدادها

وقد يقتضى سَنَنُ الكلام الطبيعى^(٤) تذكير الضمير، أو تأنيثه، أو إفراده، فيخرجه سبحانه وتعالى عن ذلك السنن الطبيعى، ويذكر المؤنث مقام المذكر^(٥)، وبالعكس^(٦)، ويأتى بالجمع مكان المفرد، رعاية للمعنى، نحو:

• قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً، قَالَ: هَذَا رَبِّى، هَذَا أَكْبَرُ﴾^(٧).

• وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٨).

(١) سورة الزخرف ٨٨ بالجر عطف على "الساعة" أى عنده علم الساعة، وعلم قوله عليه السلام: يارب! إن هؤلاء قوم لا يؤمنون؛ فالله تعالى يعلم وقت الساعة، الذى هو وقت المجازاة، ويعلم شكوى الرسول أيضاً، فقوله تعالى: يارب الآية تفسير لقيله؛ والقول والقليل والقال والمقالة كلها مصادر بمعنى واحد (جَمَلَ)

(٢) قيل له: أى لله تعالى والقائل هو الرسول، وأضيف إلى الضمير لأنه أخصر فى اللفظ.

(٣) سورة الواقعة ٩٥ وفيه إضافة الموصوف إلى صفته أى حق الخبر اليقين، وقيل: الحق الثابت من اليقين؛ واليقين هو العلم الثابت المتيقن الذى لا شك فيه.

(٤) قوله: الطبيعى صفة لقوله: سنن بمعنى الطريق.

(٥) أى: يذكر الضمير المؤنث مقام المذكر.

(٦) أى: يذكر الضمير المذكر مكان الضمير المؤنث.

(٧) سورة الأنعام ٧٨ وهذا مثال لذكر المذكر مقام المؤنث قال السيد الألوسى: هذا ربه إشارة إلى الجرم المشاهد من حيث هو، لا من حيث هو مسمى باسم من الأسماء، فضلاً عن حيثية تسميه بالشمس، ولذا ذكر اسم الإشارة اهـ (روح المعانى ٧: ٢٠١).

(٨) سورة المؤمنون ٢٨ وهذا مثال لذكر الجمع مكان المفرد، فإن "القوم" مفرد فاللائق فى صفته أن تكون مفردة، ولكن جمّع الصفة فقال: "الظالمين" نظراً إلى معنى القوم فإنه جمع.

● وقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾^(١)

إبدال التثنية بالمفرد

وقد يورد المفرد مكان التثنية، نحو:

● قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٢).
● وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي، وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ، فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾^(٣) والأصل: "فعميّت" فأفرد، لأنهما كشيء واحد؛ ومثله: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ^(٤).

إبدال الجزاء وجواب القسم بجملة مستقلة

وقد تقتضى طبيعة الكلام أن يذكر الجزاء فى صورة الجزاء، والشرط فى صورة الشرط، وجواب القسم فى صورة جواب القسم، فيتصرف سبحانه وتعالى فى الكلام، ويجعل ذلك الجزء من الكلام جملة مستقلة مستأنفة، لتنظم^(٥) بالمعنى، ويقيم شيئاً يدل عليه بوجه من الوجوه، نحو:

● قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا، وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا، وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا، فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا، فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا، يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾^(٦) المعنى: البعث والحشر

(١) سورة البقرة ١٧ أفرد الضمير فى "استوقد" مراعاة للفظ الموصول، وجمع فى قوله: "بِنُورِهِمْ" مراعاة لمعنى "الذى"

(٢) سورة التوبة ٧٤ أفرد الضمير، فى قوله: من فضله، لأن الفضل هنا بمعنى الرزق، وهو لا يكون إلا من الله.

(٣) سورة هود ٢٨

(٤) والأصل: أَعْلَمَان؛ فأفرد لأن الرسول عِلْمُهُ هُوَ مَا عِلْمُهُ اللَّهُ تعالى، فهما كشيء واحد.

(٥) انتظم الشيء: تألف واتسق.

(٦) سورة النازعات ١-٦ وقيل: التقدير: "لتبعثن ولتحاسبن" بدليل إنكارهم البعث فى قولهم ﴿أَنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ (البرهان ٣: ١٩٢)

يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾.

• وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ، وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ، قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾^(١) المعنى: المجازاة على الأعمال حق.

• وقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ، وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ، وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ، وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ، وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ، يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾^(٢) المعنى: الحساب والجزاء كائن.

إبدال الخطاب بالغيبة

وقد يقلب الله تعالى أسلوب الكلام ، بأن يقتضى الأسلوب الخطاب فيأتى بالغائب^(٣)، نحو قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ ، وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾^(٤).

(١) سورة البروج ١-٤ وقيل: التقدير: "أنهم ملعونون" يدل عليه قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾

(٢) سورة الانشقاق ١-٦ وقال الزمخشري في الكشاف (٤: ٥٧٩): حذف جواب إذا ليذهب المقدر كل مذهب؛ أو اكتفاء بما علم في مثلها من سورتي التكويد والانفطار، وهو قوله: علمت نفس اه وقال الفراء: أى: فيومئذ يلاقى حسابه (البرهان ٣: ١٩٤).

(٣) ويسمى "التفاتاً" وهو نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر تطرية واستدراة للسامع وتجديداً لنشاطه وصيانة لخاطره من الملل والضجر، بدوام الأسلوب الواحد على سمعه، قال حازم في منهاج البلغاء: وهم يسأمون من الاستمرار على ضمير متكلم أو ضمير مخاطب فينتقلون من الخطاب إلى الغيبة.

واعلم أن للتكلم والخطاب والغيبة مقامات، والمشهور أن الالتفات هو الانتقال من أحدها إلى الآخر بعد التعبير بالأول: وأقسامه كثيرة فراجع لها البرهان (٣: ٣١٤-٣٢٥ والإتقان)

(٤) سورة يونس ٢٢ وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة فقد التفت عن "كنتم" إلى "بهم"

إبدال الإخبار بالإنشاء وبالعكس

وقد يذكر سبحانه وتعالى الإنشاء مكان الإخبار، والإخبار مكان الإنشاء نحو:

• قوله تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾^(١) أى لتمشوا.

• وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢) أى إيمانكم يقتضى هذا.

• وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(٣) المعنى: على قياس

حال ابن آدم كتبنا، أو: على مثال حال ابن آدم؛ فأبدل منه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾

لأن القياس لا يكون إلا بملاحظة العلة؛ فكأن القياس نوع من التعليل.

• وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ﴾^(٤) هو فى الأصل بمعنى الاستفهام، من الرؤية، ولكن

نقل هنا ليكون تنبيها على استماع الكلام الآتى بعده كما يقال فى العرف:

ترى شيئا؟ تسمع شيئا؟

التقديم والتأخير^(٥) والتعلق بالبعيد وما شابَهُمَا

وقد يوجب التقديم والتأخير أيضا صعوبة فى فهم المراد^(٦)، كما فى

(١) سورة الملك ١٥ وامشوا صيغة أمر وتمشوا فعل مضارع فأبدل الإخبار بالإنشاء

(٢) سورة البقرة ٩٣ (٣) سورة المائدة ٣٢

(٤) فى غير موضع، كما فى أول سورة الماعون، وكما فى سورة العلق ١٠

و ١٢ و ١٣ وكما فى سورة الفرقان ٤٣

(٥) قال الجرجاني فى دلائل الإعجاز (ص ٧٧): هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن،

واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتلك عن بديعة، ويفضى بك إلى لطيفة، ولا تزال

ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك

ولطفك عندك أن قدم فيه شئ وحول اللفظ عن مكان إلى مكان هـ.

(٦) كقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ (سورة طه ٦٧) لأن أصل

الكلام أن يتصل الفعل بفاعله ويؤخر المفعول، لكن أخر الفاعل، وهو "موسى"

لأجل رعاية الفاصلة، ولأن النفس تتشوق لفاعل "أَوْجَسَ" فإذا جاء بعد أن أخر

لوقع بموقع، وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ ۖ﴾

الشعر المشهور^(١):

بُثِينَةُ شَأْنُهَا سَلَبَتْ فَوَادِي بِلَا جَرَمٍ أَتَيْتُ بِهِ سَلَامًا^(٢)

والتعلق بالبعيد أيضًا مما يوجب الصعوبة في الكلام، وكذلك ما يكون

من هذا القبيل^(٣)، نحو:

• قوله تعالى: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ، إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا أَمْرًا تَهُ﴾^(٤) أدخل الاستثناء على الاستثناء فصعب.

• وقوله تعالى: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدُ بِالْدِّينِ﴾^(٥) متصل بقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^(٦)

• وقوله تعالى: ﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾^(٧) أى يدعو من ضره .

• وقوله تعالى: ﴿لَتَنُوْا بِالْعُسْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾^(٨) أى لتنوا العصابة بها.

(=) مُسَمًّى (سورة طه ١٢٩) فإن قوله ﴿وَأَجَلَ مُسَمًّى﴾ معطوف على " كلمة " ولهذا رفع، والمعنى: ولولا كلمة سبقت من ربك (فى التأخير) وأجل مسمى لكان العذاب لزامًا؛ ولكنه قدم وأخر، لتشتبك رؤس الآى.

(١) والشعر لجميل بن عبد الله بن معمر، وبشينة — كجهينة — العذرية صاحبتة، معروفة، وهى: بشينة بنت حباب بن ثعلبة؛ وقد كانا فى زمن الصحابة رضى الله عنهم (راجع تاج العروس مادة بشن) وهى المرادة فى هذا الشعر:

وما كلُّ مخضوبِ البنانِ بُشِينَةٌ ولا كلُّ مصقولِ الحديدِ يمانى

(٢) أى: سلبت بشينة فوادى، بلا جرم أتيت به، شأنها يكون سلامًا! فقدم فاعل سلبت وهو بشينة؛ وأتى بالفصل بين شأنها وخبره: يكون سلامًا، وقوله: بلا جرم مبتدأ يتعلق بمحذوف؛ وخبره أتيت به.

(٣) أى من قبيل التعلق بالبعيد فى إیراث الصعوبة فى الكلام .

(٤) سورة الحجر ٥٩ و ٦٠ (٥) سورة التين ٧ (٦) سورة التين ٤

(٧) سورة الحج ١٣ واللام زائدة، ومن مفعول يدعوا، وضره مبتدأ وأقرب خبره والجملة صلة من (صاوى)

(٨) سورة القصص ٦٧ قال أبو زيد: تنوء من نوءت بالحمل: إذا نهضت به اه (=)

- وقوله تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا بُرْءُ وِسْكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾^(١) أى اغسلوا أرجلكم .
- وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾^(٢) أى ولولا كلمة سبقت وأجل مسمى لكان لزاماً^(٣) .
- وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ﴾^(٤) متصل بقوله: ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾^(٥) .
- وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ متصل بقوله ﴿لَقَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾^(٦) .
- وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾^(٧) أى يسئلونك عنها كأنك حفي،

الزيادة فى الكلام^(٨)

والزيادة على السنن الطبيعى أيضا على أقسام:

(==) فى الآية على هذا قلب ، والأصل: تنوء العصبه بها، أى: تنهض ، وقيل يجوز أن لا يكون هناك قلب لأن المفاتيح تنهض ملابسة للعصبه إذا نهضت العصبه بها والصحيح: أن تنوء من ناء به الحمل: إذا أثقله حتى أماله، فالباء للتعدية، كما فى "ذهبت به" والعصبه: الجماعة الكثيرة من غير تعيين لعدد خاص على ما ذكره الراغب .

(٢) سورة طه ١٢٩

(١) سورة المائدة ٦

(٣) ولولا هذا التقدير لكان "أجل" منصوبا كـ "لزاماً" ففيه تقديم وتأخير .

(٥) سورة الأنفال ٧٢

(٤) سورة الأنفال ٧٣

(٦) سورة الممتحنة ٤

(٧) سورة الأعراف ١٨٧ وفيه تقديم وتأخير، وقوله: حفى أى مبالغ فى السؤال، من قولهم: أحفيت فى المسئلة: إذا بالغت فى السؤال عنها حتى علمتها .

(٨) قد اختلف فى وقوع الزائد فى القرآن، فمنهم من أنكره، قال الطرطوسى فى "العمدة": زعم المبرد أن لاصلة فى القرآن؛ والدهماء من العلماء والفقهاء والمفسرين على إثباب الصلات فى القرآن اه وقال ابن خباز فى "التوجيه": (==)

الزيادة بالصفة:

قد تكون الزيادة فى الكلام بالصفة، نحو:

• قوله تعالى: ﴿وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾^(١).

• وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا: إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ

(=) وعند ابن السراج أنه ليس فى كلام العرب زائد، لأنه تكلم بغير فائدة. وما جاء منه حملة على التوكيد اه وقال ابن جنى: كل حرف زيد فى كلام العرب فهو قائم مقام إعادة الجملة مرة أخرى اه.

والأكثرون يُنكرون إطلاق هذه العبارة فى كلام الله، ويسمونه " التأكيد " ومنهم من يُسمّيه بالصلة، ومنهم من يسميه " بالمقحم ".

والحاصل: أن معنى كونه: زائدًا أن أصل المعنى حاصل بدونه، دون التأكيد فوجوده حصل فائدة التأكيد؛ والواضع الحكيم لا يضع الشئ إلا لفائدة.

(١) سورة الأنعام ٣٨ فقله: يطير ، لتأكيد أن المراد بالطائر حقيقة، فقد يطلق مجازًا على غيره؛ وقوله بجناحيه لتأكيد حقيقة الطيران، لأنه يطلق مجازًا على الإسراع فى المشى، ونظيره: يقولون بالسنتهم؛ لأن القول يطلق مجازًا على غير اللسان، بدليل: يقولون فى أنفسهم، وكذا: تعمى القلوب التى فى الصدور، لأن القلب قد يطلق مجازًا على العين.

ثم اعلم أن زيادة الصفة ترد لأسباب:

أحدها: التخصيص فى النكرة نحو: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾

والثانى: التوضيح فى المعرفة أى زيادة البيان، نحو: رسوله النبى الأمى .

والثالث: المدح والثناء، ومنه صفات الله تعالى، نحو ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

والرابع: الذم، نحو ﴿أعوذ بالله من الشيطان الرجيم﴾

والخامس: التأكيد لرفع الإبهام، نحو ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْهَيْنَ اثْنَيْنِ﴾ (الاتقان من

النوع السادس والخمسين من الفصل الثالث)

الْخَيْرُ مَنْوَعًا^(١).

الزيادة بالإبدال

وقد تكون بالإبدال، نحو قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ اسْتُزْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾^(٢)

الزيادة بالعطف التفسيري

وقد تكون بالعطف التفسيري، نحو قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ،

وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾^(٣)

الزيادة بالتكرار^(٤)

وقد تكون بالتكرار، نحو:

(١) سورة المعارج ١٩- ٢١ الهَلْع: سرعة الجزع عند مس المكروه، وسرعة المنع

عند مس الخير، من قولهم: ناقة هَلُوعٌ: سريعة السير؛ وسئل ابن عباس عن الهلوع؟

فقال: هو كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ الآيتين، ونظير ذلك قوله:

الألمعى: الذى يظن بك الظن - من كأن قد رأى وقد سمعا

وقوله: جزوعاً أى: مبالغاً فى الجزع أكثر منه، وقوله: منوعاً: أى مبالغاً فى

المنع والإمساك، والوصفان صفتان كاشفتان لهلوعاً، الواقع حالاً (الروح ٢٩: ٦٢)

(٢) سورة الأعراف ٧٥ معناه: لمن آمن من الذين استضعفوا، ففيه زيادة بالبدل،

والقصد بها الإيضاح بعد الإبهام، وفائدته: البيان والتأكيد، قال الألوسى: وقوله

تعالى: ﴿لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل من الموصول بإعادة العامل، بدل الكل من الكل،

كقولك: مررت بزيد بأخيك؛ والضمير المجرور راجع إلى قومه اهـ (الروح ٨: ١٦٤)

(٣) سورة الأحقاف ١٥ قوله: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ الظاهر أنه بلوغ الأشد والعطف

للتأكيد، لأن الإنسان إذا بلغ هذا القدر يتقوى جداً خلقه الذى هو عليه فلا يكاد

يزايله بعد. وفى الحديث: "إن الشيطان يجريده على وجه من زاد على الأربعين

ولم يتب، ويقول: بأبى! وجه لا يفلح!" (الروح ٢٦: ١٨)

(٤) قال السيوطى رحمه الله: النوع الرابع: التكرير، وهو أبلغ من التأكيد، وهو من

محاسن الفصاحة، وله فوائد:

(=)

- قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾^(١) أصل الكلام: وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إلا الظن.
- وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ — وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا — فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾^(٢)
- وقوله تعالى: ﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾^(٣).

● وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ؟ قُلْ: هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾^(٤) أى

(=) منها: التقرير، وقد قيل: الكلام إذا تكرر تقرر.

ومنها: زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة، ليكمل تلقى الكلام بالقبول.

ومنها: إذا طال الكلام وخشى تناسى الأول أعيد ثانياً تطرية له وتجديداً بعهد

ومنها: التعظيم والتهويل نحو: وأصحاب اليمين، ما أصحاب اليمين وما إلى

ذلك من الفوائد (الإتقان مختصراً)

(١) سورة يونس ٦٦ وأعيد الفعل ثانياً تجديداً بعهد.

(٢) سورة البقرة ٨٩ كنى عن الكتاب المتقدم بـ "ما عرفوا"، والتكرار لبيان كمال

مكابرتهم، لأن الآية مساقاة على بيان حد قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا

أَنفُسُهُمْ﴾ أى: جحدوا مع علمهم به، وهذا أبلغ فى ذمهم فحينئذ قوله تعالى:

﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ جواب لما الأولى، ولما الثانية تكرير لها لطول العهد.

(٣) سورة النساء ٩ وفيه تكرار من غير لفظه.

(٤) سورة البقرة ١٨٩ وقوله: والحج عطف على الناس فهذا تخصيص بعد تعميم،

ففيه تكرار لدخول الخاص تحت العام؛ والمواقيت جمع ميقات صيغة آلة، أى:

ما يعرف به الوقت، فالأهلة تكون معالم للناس؛ يوقتون بها أمورهم الدنيوية،

ويعلمون بها أوقات زروعهم ومتاجرهم، ومعالم للعبادات الموقته يعرف بها

أوقاتها كالصيام والإفطار وخصوصاً الحج، فإن الوقت مراعى فيه أداء وقضاء، ولو

كان الهلال مدوراً كالشمس أو ملازماً حالة واحدة، لم يكدر يتيسر التوقيت به (من

الروح ملخصاً ٢: ٧١)

هي مواقيت للناس باعتبار أن الله تعالى شرع لهم التوقيت بها، وللحج باعتبار أن التوقيت بها حاصل للحج، ولوقيل: "هي مواقيت للناس في حجهم" لكان أخصر؛ ولكن أطنب. (١)

• وقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا، وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ﴾ (٢) أى تنذروا أم القرى يوم الجمعة.

• وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ (٣) أى ترى الجبال جامدة؛ أدخل "الحسبان" لأن "الرؤية" تجيء لمعان، والمراد بها ههنا معنى "الحسبان".

• وقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ — وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ — فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤) أدخل: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ فى تضاعيف الكلام

(١) قلت: ليس فيه تكرار ولا إطناب، بل تخصيص الحج لأمر مهم، فمعنى الآية قل: إن الأهلة يعرف بها الناس أوقاتهم فى أمورهم الدنيوية والدينية: كالصلوة والصوم، وتكون أوقاتهم مختلفة حسب تباين بلدانهم واختلاف مطالعهم ويعرف بها أيضًا وقت الحج باعتبار أفق أم القرى، ويجب على الناس أن يتركوا أوقاتهم المحلية ويؤدوا الحج بحسب التاريخ المكي، ففى الآية رد على من ذهب إلى "توحيد الأهلة" فى الصيام والأعياد فى جميع أقطار العالم؛ بل "توحيد الأهلة" — إن كان التعبير مناسباً — يكون فى الحج فحسب، وأما ماسواه من العبادات، فكما لاتؤخذ أوقات الصلاة فى جميع العالم، كذا لاتؤخذ أوقات الصيام والأعياد أيضًا.

(٢) سورة الشورى ٧ ويوم الجمعة: يوم القيامة، والإنذار يتعدى إلى مفعولين، وقد يستعمل ثانيهما بالباء، فههنا المفعول الأول: أم القرى ومن حولها، والثانى: يوم الجمعة.

المنتظم بعضه ببعض، بيانا لضمير: "اختلفوا" وأيدانا بأن المراد من "الاختلاف" ههنا: هو الاختلاف الواقع في أمة الدعوة بعد نزول الكتاب: بأن آمن بعض وكفر بعض^(١).

زيادة حرف الجر

وقد يزيد سبحانه وتعالى حرف الجر على الفاعل، أو المفعول به، ويجعله معمولا للفعل بواسطة حرف الجر، لتأكيد الاتصال، نحو:
● قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا﴾^(٢) أى تُحمى هي.

(١) فحينئذ معنى قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى: متفقة على الكفر، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى: مجتمعة على الكفر (فاختلفوا) أى بعد بعث الأنبياء فبعضهم آمنوا وبعضهم أصروا على الكفر، وإصرارهم هذا يقتضى الهلاك ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (يونس ١٩) أى: ولكن سبقت كلمة ربك إلى أجل مسمى، فلذا أمهلهم إلى أجلهم، فإذا جاء أجلهم فيذوقون وبال أمرهم. والدليل على هذا المعنى أن الآية مسوقة في تضاعيف أحوال المشركين.

تنبيه: وأما معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مِنْ يَشَاءَ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (الشورى ٨) أى لو شاء الله لجعل الناس أمة متفقة على الكفر أو الإيمان بحيث لا يستطيعون خلافه ولكنهم حينئذ لا يستحقون رحمة الله لكونهم غير مختارين فيما يفعلون والله يريد أن يَدْخُلَ مِنْ يَشَاءَ فِي رَحْمَتِهِ، فألهمهم فجورهم وتقواهم، ثم أرسل رسوله لينذر أم القرى ومن حولها يوم الجمع، فمن آمن به فهو في الجنة، ومن ظلم نفسه فهو في السعير وليس له من ولي ولا نصير، والدليل على هذا المعنى قول ابن عباس رضي الله عنهما، فإنه قال: أمة واحدة أى على دين واحد أى مهتدين أو ضالين.

وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (المائدة ٤٨)

(٢) سورة التوبة ٣٥ وأحمى إحماء الحديد: أسخنه شديداً؛ والضمير لكنوز (==)

• وقوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾^(١) أى قفينا هم بعيسى ابن مريم .

واو الاتصال

وينبغي أن يُعلم هنا نكتة، وهى أن ” الواو “ تستعمل فى مواضع كثيرة لتوكيد الاتصال، لاللعطف، نحو:

• قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ - إلى قوله تعالى - وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾^(٢)

• وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ وَهَّاءٌ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾^(٣) .

• وقوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٤) .

(=) الأموال المفهومة من الكلام، وأصله: تحمى هى بالنار، ثم حذفت النار فانتقل من صيغة التانيث إلى التذكير، كما تقول: رُفِعَتِ القِصَّةُ إلى الأمير: فإذا طرحت القصة قلت: رُفِعَ إلى الأمير.

(١) سورة المائدة ٦٤ والتقفية: الاتباع، ويقال: قفا فلان إثر فلان: إذا تبعه، وضمير الجمع المجرور للنبيين الذين أسلموا، والفعل كما قيل متعد لمفعولين أحدهما بنفسه والآخر بالباء؛ فالتقدير: قفيناهم بعيسى ابن مريم.

(٢) سورة الواقعة ١-٧

(٣) سورة الزمر ٧٣ والمشهور أن الواو للحال، والجملة حالية بتقدير ” قد “ أى: جاء وهَّاءٌ وقد فتحت لهم أبوابها، كقوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ مُّفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ ويشعر ذلك بتقديم الفتح، كأن خزنة الجنات فتحو أبوابها، ووقفوا منتظرين لهم؛ وهذا كما تفتح الخدم باب المنزل للمدعو للضيافة قبل قدومه، وتقف منتظرة له، وفى ذلك من الاحترام والإكرام مافيه، وقد قال تعالى فى حق الكفار: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ وَهَّاءٌ فَتُحَّتْ أَبْوَابُهَا﴾ ليدخلوها وكانت قبل مجيئهم غير مفتوحة، فهى كسائر أبواب السجون لاتزال مغلقة حتى يأتى أصحاب الجرائم، الذين يسجون فيها، فتفتح ليدخلوها، فإذا دخلوها أغلقت عليهم (من الروح ٢٤: ٢٤ و ٣٤)

(٤) سورة آل عمران ١٤١

وكذلك تزداد " الفاء " أيضا، قال القسطلاني^(١) في شرح كتاب الحج^(٢)
في باب المعتمر إذا طاف طواف العمرة ثم خرج، هل يجزيه من طواف
الوداع؟: (٣)

ويجوز توسط العاطف بين الصفة والموصوف لتأكيد لصوقها
بالموصوف، نحو: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾^(٤) قال
سيبويه: (٥) هو مثل: " مررت بزيد وصاحبك " إذا أردت بصاحبك زيدا.
وقال الزمخشري^(٦) في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ

(١) هو: أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني، القتيبي، المصري،
من علماء الحديث، ولد سنة ٨٥١ هـ وتوفي سنة ٩٢٣ هـ مولده ووفاته في القاهرة،
من كتبه: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، والمواهب اللدنية في المنح
المحمدية في السيرة النبوية.

(٢) من الجامع الصحيح للإمام البخاري رحمه الله.

(٣) الجزء الثالث ص ٣٢٩ (٤) سورة الأنفال ٤٩

(٥) هو: عمرو بن عثمان بن قنبر، الحارثي بالولاء، أبو بشر، المقلب سيبويه
(بالفارسية رائحة التفاح) ولد سنة ١٤٨ هـ وتوفي سنة ١٨٠ هـ إمام النحاة وأول
من بسط علم النحو، ولد في إحدى قرى شيراز، وقدم البصرة فلزم خليل بن أحمد،
ففاقه، وصنف كتابه المسمى "كتاب سيبويه" في النحو لم يصنع قبله ولا بعده
مثله، وهو مطبوع، ورحل إلى بغداد فناظر الكسائي، وأجازه الرشيد بعشرة آلاف
درهم؛ وعاد إلى الأهواز فتوفي بها.

(٦) هو محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري، جار الله، أبو القاسم: من أئمة
العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب ولد في زمخشر (من قرى خوارزم) سنة
٤٦٧ هـ وسافر إلى مكة فجاور بها زمنا فلقب بجار الله وله الكشف في التفسير
وأساس البلاغة والمفصل وغيرها، توفي سنة ٥٣٨ هـ

مَعْلُومٌ ﴿١﴾: 'جملة' واقعة صفة لقرية؛ والقياس أن لا توسط الواو بينهما، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾^(٢) وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف، كما يقال في الحال: جاءني زيد عليه ثوب، وجاءني زيد وعليه ثوب (انتهى)^(٣)

انتشار الضمائر، وإرادة المعنيين من كلمة واحدة

وربما تكون الصعوبة في فهم المراد لانتشار الضمائر، وإرادة المعنيين من كلمة واحدة، نحو:

● قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^(٤)،
يعنى أن الشياطين ليصدون الناس عن السبيل، ويحسب الناس أنهم مهتدون.
● وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾^(٥) المراد به الشيطان في موضع واحد^(٦)، وفي الموضع الآخر الملك.

● وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ؟ قُلْ: مَا أَنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾^(٧) وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ؟ قُلْ: الْعَفْوَ﴾^(٨) فالأول معناه: أى إنفاق ينفقون؟ وأى نوع من الإنفاق ينفقون؟ وهو صادق بالسؤال عن المصروف،

(١) سورة الحجر ٤ (٢) أى: قوله تعالى: ﴿وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾

(٣) سورة الشعراء ٢٠٨

(٤) أى: انتهى كلام الزمخشري؛ وبه انتهى النقل من القسطلاني أيضاً والنص في الكشاف ١: ٧١٤ (طبع كلكتة)

(٥) سورة الزخرف ٣٧ فهذا مثال لانتشار الضمائر؛ وقوله: إنهم مهتدون أى: يحسب الناس أن الشياطين مهتدون إلى سبيل الحق؛ وإلا لما اتبعوهم.

(٦) فى سورة ق فى موضعين فى آية ٢٣ و ٢٧ وهذا مثال لإرادة المعنيين من كلمة واحدة.

(٧) سورة البقرة ٢١٥

(٨) هذا فى الآية ٢٧

(٩) سورة البقرة ٢١٩ وهذا أيضاً مثال لإرادة المعنيين من كلمة واحدة.

لأن الإنفاق يصير باعتبار المصارف أنواعاً؛ والثاني معناه: أى مال ينفقون؟
ومن هذا القبيل ^(١): مجيء لفظ "جعل" و"شيء" ونحوهما لمعان شتى:
• قديجيء "جعل" بمعنى خلق، كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ ^(٢)
• وقد يكون بمعنى اعتقد، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ ^(٣)
ويجيء "شيء" مكان الفاعل، والمفعول به والمفعول المطلق وغيرها، نحو:
• قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ ^(٤) أى من غير خالق.
• وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ ^(٥) أى عن شئ مما تتوقف
فيه من أمرى.

وقد يريد بالأمر والنبأ والخطب المخبر عنه، نحو:
• قوله تعالى: ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ^(٦) أى قصة عجيبة.
وكذلك: كلمتا الخير والشر وما فى معناهما يختلف المراد منهما
حسب اختلاف المواضع.
ومن هذا القبيل ^(٧): انتشار الآيات: قد يُبادر إلى آية مقامها الأصلي بعد
إيراد القصة، فيذكرها قبل تمام القصة، ثم يعود إلى القصة فيتمها ^(٨)
وقد تكون الآية: مقدمة فى النزول، متأخرة فى التلاوة نحو قوله تعالى:
﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ ^(٩) مقدمة فى النزول وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ
السُّفَهَاءُ﴾ ^(١٠) متأخرة؛ وفى التلاوة بالعكس.
وقد يُدرج الجواب فى تضاعيف أقوال الكفار، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا

(١) أى من قبيل إرادة المعنيين من كلمة واحدة.

(٢) سورة الأنعام ١ (٣) سورة الأنعام ١٣٦ (٤) سورة الطور ٣٥

(٥) سورة الكهف ٧٠ وهذا من قول الخضر لسيدنا موسى عليه السلام.

(٦) سورة ص ٦٧ (٧) أى من قبيل انتشار الضمائر

(٨) كما فى سورة الحجر ٦٠ (٩) سورة البقرة ١٤٣ (١٠) سورة البقرة ١٤٢

إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ - قُلْ: إِنَّ الْهُدَى هَدَى اللَّهِ - أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ ﴿١﴾
وبالجملة: فهذه المباحث تحتاج إلى تفصيل كثير، وفيما ذكرناه كفاية؛
ومن قرأ القرآن الكريم من أهل السعادة، واستحضر هذه الأمور عند تلاوته؛
أدرك بأدنى تأمل غرض الكلام ومغزاه، ويقيس غير المذكور على المذكور،
وينتقل من مثال إلى أمثلة أخرى.

الفصل الخامس

فى

بيان المحكم، والمتشابه، والكناية والتعريض والمجاز العقلى
المحكم: (٢)

لِيَعْلَمَ أَنَّ الْمُحْكَمَ هُوَ مَا لَا يُدْرِكُ الْعَارِفُ بِاللُّغَةِ مِنْ ذَلِكَ الْكَلَامِ إِلَّا مَعْنَى

(١) سورة آل عمران ٧٣ وأتى بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هَدَى اللَّهِ﴾ معترضا
بين الفعل ومتعلقه؛ وفائدة الاعتراض: الإشارة إلى أن كيدهم غير ضار لمن لطف
الله تعالى به بالدخول فى الإسلام، أو زيادة التصلب فيه، ويفيد أيضا أن الهدى
هداه فهو الذى يتولى ظهوره (الروح ٣: ٢٠٠)

(٢) قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ، مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ
الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ (سورة آل عمران ٧) فأما المحكم الأصله لغة: المنع
تقول: أحكمت بمعنى رددت ومنعت؛ والحاكم: لمنعه الظالم من الظلم؛ وحكمة
اللجام: هى التى تمنع الفرس من الاضطراب، فأما فى الاصطلاح فاختلف فى معناه
وذكر السيوطى فى الإتقان فى النوع الثالث والأربعين بضعة عشر أقوالا،
والمختار عند المصنف: أن المحكم: ما لا يحتمل إلا وجهها واحداً والمتشابه:
ما يحتمل أوجهها، فقد قال فى حجة الله البالغة (١: ٤١٦): قوله تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ
مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ (سورة آل عمران ٧) فأما المحكم
فأصله لغة: المنع، تقول: أحكمت بمعنى رددت ومنعت؛ والحاكم: لمنعه الظالم
من الظلم؛ وحكمة اللجام: هى التى تمنع الفرس من الاضطراب.

فأما فى الاصطلاح فاختلف فى معناه، وذكر السيوطى فى الإتقان فى (==)

واحداً؛ والمعتبر فهُم العرب الأولين، لافهم مدققى زماننا الذين يشقون
الشَّعْرَةَ، فإن التدقيق الفارغ داءٌ عُضال يجعل المحكم متشابهاً،
والمعلوم مجهولاً.

المتشابه:

والمتشابه هو ما يحتمل معنيين:

● لا احتمال رجوع الضمير إلى المرجعين، كما قال رجل: "أما إن الأمير أمرنى
أن ألعن فلاناً، لعنه الله!"

● أو لا شراك الكلمة فى معنيين، نحو قوله تعالى ﴿لَا مَسْئَمَةَ﴾^(١) فى
الجماع واللمس باليد.

● أو لا احتمال العطف على القريب والبعيد، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا
بِرءُ وَسِكْمٍ وَأَرْجُلِكُمْ﴾^(٢) فى قراءة الكسر.

● أو لا احتمال العطف والاستيناف، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ،
وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾^(٣).

(=) النوع الثالث والأربعين بضعة عشر أقوالاً، والمختار عند المصنف: أن
المحكم: ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً والمتشابه ما احتمل أوجهها، فقد قال فى
حجة الله البالغة (١: ١٦٤): قوله تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ
وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ أقول: الظاهر أن المحكم مالم يحتمل إلا وجهها واحداً، مثل:
﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ والمتشابه: ما احتمل وجوهاً، وإنما
المراد بعضها كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا
طَعَمُوا﴾ حملها الزائغون على إباحة الخمر مالم يكن بغى أو إفساد فى الأرض،
والصحيح حملها على شاربها قبل التحريم اهـ

(١) سورة النساء ٤٣ وسورة المائدة ٦

(٢) سورة المائدة ٦ وأما فى قراءة النصب فيتعين العطف على البعيد .

(٣) سورة آل عمران ٧ قال الخطابى: المتشابه على ضربين: أحدهما: ما إذا رُدَّ إلى
المحكم، واعتبر به، عُرف معناه، والآخر: ما لا سبيل إلى الوقوف على حقيقته، وهو
الذى تتبعه أهل الزيغ، فيطلبون تأويله، ولا يبلغون كنهه، فيرتابون فيه. (=)

والكناية هي أن يُثبت حكما من الأحكام، ولا يقصد به ثبوت ذلك الأمر

(=) وقال الراغب في مفردات القرآن: الآيات عند اعتبار بعضها ببعض ثلاثة أضرب: محكم على الإطلاق، ومتشابه على الإطلاق، ومحكم من وجه ومتشابه من وجه، ثم جميع المتشابه على ثلاثة أضرب: ضرب لاسيل إلى الوقوف عليه، كوقت الساعة وخروج دابة الأرض ونحو ذلك؛ وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته، كالألفاظ الغريبة والأحكام المغلفة؛ وضرب متردد بين الأمرين، يخص بمعرفته بعض الراسخين في العلم، ويخفى على من دونهم وهو المشار إليه بقوله صلى الله عليه وسلم لابن عباس: "اللهم فقه في الدين، وعلمه التأويل".

وإذا عرفت هذا عرفت أن الوقوف على قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ ووصله بقوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ جائزان، وأن لكل واحد منهما وجه، حسب ما دل عليه التخصيص المتقدم انتهى (الإتقان النوع الثالث والأربعون)

(١) قال الزركشي في البرهان (٢٠٠ ص) علم أن العرب تعد الكناية من البراعة والبلاغة، وهي عندهم أبغ من التصريح، قل نظطوسي: وأكثر أمثاليهم القصيدة على مجازي الكنايات، ومنها قولهم: فلان عفيف لإزار، ظاهر الذيل، وفي الحديث: كان إذا دخل العشر أيقظ أهله وشد المئزر، فكأن عن ترك الوطء بشد المئزر، وكفى عن الجماع بالنعسية، وعن لسان القوارير، تضعف قلوب النساء اهـ

والكناية عن الشيء دلالة عبيه من غير تصريح باسمه، وهي عند أهل البيان أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعنى، ولا يذكره بالنظم لموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيؤمى به إليه، ويجمعه ذنباً عليه، فيدل على المراد من طريق أولى، مثله قولهم: "طويل النجاد" و"كثير الرماد" يعنون طويل القامة وكثير الضخامة، فلم يدكروا المراد بنظمه الخاص به، ولكن توصلوا إليه بذكر معنى آخر، هو رده في الوجود لأن القامة إذا طالت طال النجاد وإذا كثرت القرى كثرت الرماد، وكقولهم في المرأة: "نورة الصبح" يريدون أنها مترفة محدومة، لها من يكفها أمرها، وكذا "بعيدة مهوى القرط" يعنون طول جيلها، وكذا "ليل كموح البحر أرحى سدونه" وكقولهم تعالى: ﴿وَأَشْعَلَ النَّارَ مِنْ شَيْءٍ﴾ (سورة مريم)، وكقولهم تعالى: ﴿وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ (=)

بعينه، بل يقصد أن ينتقل ذهن المخاطب إلى لازمه بلزوم عادي أو عقلي، كما يفهم معنى كثرة الضيافة من قولهم: "عظيم الرماد" ويفهم معنى السخاوة من قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾^(١).

تصوير المعنى المراد بالصورة المحسوسة:

وتصوير المعنى المراد بالصورة المحسوسة من هذا القبيل^(٢)؛ وذلك باب واسع في أشعار العرب وخطبهم؛ والقرآن العظيم وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم مشحون به، نحو:

• قوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾^(٣): شبه الشيطان برئيس قُطَاع الطريق، حيث ينادى أصحابه، فيقول: "تعال من هذه الجهة" و"ادخل من تلك الجهة"^(٤).

• وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾^(٥)؛ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾^(٦) شبه إعراضهم عن تدبر الآيات بمن غُلَّت يداه، أو بُنى حواليه سد من كل جهة فلم يستطع النظر أصلاً.

• وقوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾^(٧) يعنى اجمع خاطرك، ودع الاضطراب وقلق البال^(٨).

(=) (سورة الأسراء ٢٤) وكقوله: "كأنى وأصحابى على قرن أغفرا" يريد أنهم غير مطمئنين (من دلائل الإعجاز ص ٤٥ والبرهان وإعجاز القرآن للباقلاني)

(١) سورة المائدة ٦٤ ففيه كناية عن سعة جوده وكرمه جداً.

(٢) أى من قبيل الكناية. (٣) سورة الإسراء ٦٤

(٤) قال الألوسى: وجوز بعضهم أن يكون استفرازه بصوته وإجلابه بخيله ورجله تمثيلاً لتسلطه على من يغويه، فكان مغواراً وقع على قوم، فصوت بهم صوتاً يُزعجهم من أماكنهم، وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم، ومراده أن يكون فى الكلام استعارة تمثيلية اهـ (الروح ١٥: ١١٢)

(٥) سورة يس ٩ (٦) سورة يس ٨ (٧) سورة القصص ٣٢

(٨) فضم الجناح كناية عن التجلّد والضبط، وفى الكشف: والثانى: أن يراد (=)

ونظير ذلك^(١) في العرف:

● أنه إذا أراد أحد أن يبين شجاعة رجل يشير بالسيف أنه يضرب إلى هذه الجهة، ويضرب إلى تلك الجهة، وليس مقصوده إلا بيان غلبته أهل الآفاق بصفة الشجاعة، ولولم يأخذ السيف بيده مرة من الدهر.

● أو يقولون: فلان يقول: "لأرى أحدا على وجه الأرض يبارزني"^(٢)؛ أو يقولون: "فلان يفعل كذا وكذا" ويشيرون بهيئة أهل المبارزة وقت مغالبة الخصم؛ ولولم يصدر عنه هذا القول قط، ولم يفعل هذا الفعل أصلاً.

● أو يقولون: "فلان خنقني ونزع اللقمة من فمي"^(٣)

التعريض^(٤)

والتعريض أن يذكر الله تعالى حكماً عاماً أو منكرًا، ويكون الغرض منه الإيماء إلى حال رجل خاص، أو التنبيه على حال رجل معين، ويأتي في

(==) بضم جناحه إليه تجلده وضبط نفسه، وتشدده عند انقلاب العصاحية، حتى لا يضطرب ولا يرهب؛ استعارة من فعل الطائر، لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما، وإلا فجناحاه مضمومان إليه، مُشَمَّرَان؛ ومعنى: من الرهب: من أجل الرهب أي: إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك؛ جعل الرهب الذي كان يصيبه سبياً وعلّة فيما أمر به من ضم جناحه إليه اهـ (الروح ٢٠: ٧٥)

(١) أي نظير تصوير المعنى المراد بالصورة المحسوسة.

(٢) بارزه مُبَارَزَةً: خرج إليه فقاتله، فتبارزا.

(٣) هذه التعبيرات وأمثال هذه كلها من قبيل تصوير المعنى المراد بالصورة المحسوسة؛ وخنقه خنقا من باب نصر: شد على حلقه حتى يموت.

(٤) التعريض في الكلام لغة: ما تُفهم به السامع مرادك من غير تصريح، قال الجرجاني: قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأن للاستعارة مزية وفضلاً، وأن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة اهـ (دلائل الإعجاز ص ٤٨)

غُضُونُ^(١) الكلام بعضُ خصوصيات ذلك الرجل التي يعرف المخاطب عليه، فيغرق القارئ في الفكر في مثل هذا الموضوع ، ويحتاج إلى تلك القصة؛ و كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن ينكر على شخص يقول: "مأبال أقوام يفعلون كذا وكذا"^(٢)، وكما:

• في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ الآية^(٣) تعريض لقصة زينب وأخيه.

• وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾^(٤) تعريض بأبي بكر الصديق رضي الله عنه .

ففي هذه الصور الم يطلعوا على تلك القصة لا يدركون فحوى^(٥) الكلام .

المجاز العقلي^(٦)

والمجاز العقلي: هو أن يُسندَ الفعلُ إلى غير فاعله، أو يجعل المفعول به

(١) يقال: جاءني في غُضُونِ كلامك كذا أي في أثناءه وطَيَّاتِهِ.

(٢) لقصد الاسترعليه، ليكون أبلغ في الاستعطاف.

(٣) سورة الأحزاب ٣٦. نزلت في زينب بنت جحش رضي الله عنها ابنة عمته صلى الله عليه وسلم: أُمَيَّة بنت عبد المطلب؛ واسم أخيها عبد الله؛ خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لمولاه زيد بن حارثة، فأبت، ووافقها أخوها عبد الله على ذلك؛ فنزلت الآية، فرضيا وسلما، فأنكحها رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدا وساق إليها عشرة دنانير وستين درهما مهرا، وخمارا وملحفة ودرعا وإزارا وخمسين مدا من طعام وثلاثين صاعا من تمر (الروح ٢٢: ٢٣ ملخصا)

(٤) سورة النور ٢٢ خاطب بذلك أبا بكر لما حرَّم مُسْطَحًا رِفْدَهُ، حين تكلم في حديث الإفك.

(٥) فحوى القول: مضمونه ومرماه الذي يتجه إليه القائل ج فحاور وفحاورى.

(٦) المجاز العقلي وهو: أن تُسند الكلمة إلى غير ما هي له إصالة، بضرب من التأويل كسب زيد أباه: إذا كان سببا فيه، وكقوله تعالى: ﴿يَذْبَحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ والفاعل غيره، وإنما نسب الفعل إليه لكونه الأمر به؛ وكقوله تعالى: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ نسب (=)

ماليس بمفعول به فى الحقيقة ، لعلاقة المشابهة بينهما، ويدعى المتكلم أنه داخل فى عداده، وفرد من أفرادهِ^(١)

• كما يقولون: "بنى الأمير القصر" مع أن البانى بعض البنائين^(٢).

• وكما يقولون: "أنبت الربيع البقل" مع أن المنبت هو الله سبحانه وتعالى فى فصل الربيع^(٣)، والله أعلم بالصواب.

الباب الثالث

فى

بيان لطائف نظم القرآن ، وشرح أسلوبه البديع

الفصل الأول

فى

ترتيب القرآن الكريم، وأسلوب السُّور فيه

لم يجعل القرآن مبوباً مفصلاً على منهج المتون، ليذكر كل مطلب منه

(==) النزغ — الذى هو فعل الله! — إلى إبليس — لعنه الله — لأن سببه أكل الشجر، وسببه وسوسته ومقاسمته إياهما أنه لهما لمن الناصحين؛ وكقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ نُسب الفعل إلى الظرف، لوقوعه فيه؛ وكقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أسند وضع الآلات إلى الحرب، وهو لأهلها، إسناداً مجازياً.

(١) أى: يدعى المتكلم أنه فى عداد الفاعل أو المفعول به.

(٢) أى: أهل العرف قد يحذفون الوسائط فى بعض المواضع، ويسندون الفعل إلى ماليس بفاعل له، كقولهم: بنى الأمير المدينة، وهزم الأمير الجند.

(٣) قد أسند الإنبات إلى الربيع فى الحديث الذى رواه الإمام البخارى فى كتاب الرقاق عن أبى سعيد الخدرى قال: "لا يأتى الخير إلا بالخير، إن هذا المال خَصْرَةٌ حلوة. وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حَبْطًا أو يَلْمُ إلا آكلة الخَصْرَةِ، تأكل حتى إذا امتدت خَصِرَتَاها اسْتَقْبَلَتِ الشمس فاجترت وثلطت، وبالت، ثم عادت فأكلت الحديث (البخارى ص ٩٥١)

فى باب أوفصل؁ بل افترض القرآن الكرىم كمجموعة المكفوفاء؁ فكما فوفه الملوكة إلى رعافاهم حسب مفكفواف الأفوال فرمانا؁ وبعء زمان ففكفون فرمانا آفر؁ وهلم ففرا؁ فففى ففكفمع فرامفن كففرة؁ ففءونفا شفص وففعلفا مفعوما مرابا؁ كذللك أنزل الملك على الإفلاق فل شأنه على نبفه صلى الله علىه وسلم لهءافه عباءه سورة بعء سورة حسب مفكفوفاء الظروف. وفءكانف كل سورة فى عهد النبى صلى الله علىه وسلم مفعوفة مضبوفة على فءة؁ ثم ءونف السور كلفا فى مفل ءاف بفرفب فاف فى عهد أبف بكر وعمر رضى الله عنهما؁ وسمى هءا المفعوف بالمصفف^(١).

(١) روى البخارى فى صففه (ص ٧٤٥): عن زفء بن فابف: قال: أرسل إلى أبف بكر مفل أهل الفمامة؁ فإذا عمر بن الففاب عنءه؁ فقال أبوبكر: إن عمر أفانى فقال: إن الفل فل اسففر (اسفءو كفر) فوم الفمامة بفراء القرآن؛ وإنف آفسى إن اسففر الفل بالفراء بالمواطن ففءهب كفف من القرآن وإنف أرى أن فامر بفمع القرآن؁ فل ف عمر: كفف نفعل شفئا لم ففعله رسول الله صلى الله علىه وسلم؟ فقال عمر: هءا والله ففر! فلم فزل عمر فرافعنى ففى شرح الله صءرى لذللك؛ وفء رأف فى ذلك الذى رأى عمر. قال زفء: وفال أبوبكر: إنك رجل شاب عافل لاففهمك؁ وفء كنف فكفب الوحى لرسول الله صلى الله علىه وسلم؁ ففكفب القرآن واعمعه. قال زفء: فوالله لو كلفونى نقل فل من الفبال ما كان أفقل على مما أمرنى به من فمع القرآن؁ فل: كفف ففعلون شفئا لم ففعله رسول الله صلى الله علىه وسلم؟ فقال: هو والله ففر! فلم فزل أبوبكر فرافعنى ففى شرح الله صءرى للذى شرح له صءر أبف بكر وعمر؁ ففكفب القرآن أفعمه من العسب (فرفء النفل إءافى عنه فوفه) واللخاف (فجارة بفض عرفة رفاق) وصءور الرجال فكانف الصفف عنء أبف بكر ففى فوفاه الله؁ ثم عنء عمر ففى قبض؁ ثم عنء فففة بنف عمراه.

قال الففابى: إنما لم فجمع صلى الله علىه وسلم القرآن فى المصفف لما كان ففرفبه من وروء ناسف لبعض أفاامه أو فلاففه؁ فلما انفضى نزوله بفوففه صلى الله علىه وسلم ألهم الله الفلفاء الراشءفن ذلك؁ وفاء بوعهء الصاءق بضمان ففظه على هءه الأمة؛ فكان ابفءاء ذلك على فء الصءفق بمشورة عمر رضى الله عنهما — وأما ما أفرجه مسلم من فءفث أبف سعفء الفءرى؁ قال: قال رسول الله (==)

تقسيم السور

وقد كانت السور مقسومة عند الصحابة رضى الله عنهم إلى أربعة أقسام:

(==) صلى الله عليه وسلم: لا تكتبوا عنى شيئا غير القرآن — الحديث — فلا ينافى ذلك، لأن الكلام فى كتابة مخصوصة، على صفة مخصوصة. وقد كان القرآن كله كتب فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن غير مجموع فى موضع واحد، ولا مرتب السورة ٥ (الإتقان نوع ١٨)

وحكى المظفرى فى تاريخه، قال: لما جمع أبوبكر القرآن، قال: سموه. فقال بعضهم: سموه إنجيلا، فكرهوه. وقال بعضهم: سموه السفر فكرهوه من يهود؛ فقال ابن مسعود: رأيت بالحبشة كتابا يدعونه المصحف فسموه به (الإتقان نوع ١٧) والمصحف — بالحركات الثلاثة — ما جمع من الصحف بين دفتى الكتاب، المشدود: والجمع: مصاحف.

(١) قال الزركشى فى البرهان (٢٤٤: ١): قال العلماء رضى الله عنهم: القرآن العزيز أربعة أقسام: الطول، والمثون، والمثنى، والمفصل؛ وقد جاء ذلك فى حديث مرفوع: "أعطيت السبع الطول مكان التوراة، وأعطيت المئين مكان الإنجيل، وأعطيت المثنى مكان الزبور، وفضلت بالمفصل" وهو حديث غريب. فالسبع الطول: أولها البقرة، وآخرها براءة؛ لأنهم كانوا يعدون الأنفال والبراءة سورة واحدة، ولذلك لم يفصلوا بينهما لأنهما نزلتا جميعا فى مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم ٥ والطول — بضم الطاء — جمع طولى، كالكبر جمع كبرى؛ وسميت طولا نظولها.

والمثون: ماولى السبع الطول؛ سميت بذلك لأن كل سورة منها تزيد على مائة آية أو تقاربها.

والمثنى: ماولى المئين.

والمفصل: مايلى المثنى من قصار السور، والصحيح عند أهل الأثر أن أوله "ق" ففى رواية أبى داود: أن أوس بن حذيفة سأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف تحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده (السنن لأبى داود باب تحزيب القرآن)

وحينئذ فإذا عددت ثمانيا وأربعين سورة كانت التى بعد هن سورة "ق".

القسم الأول : السبع الطول التي هي أطول السور .
والقسم الثاني : المئوّن : وهي التي تشتمل كل واحدة منها على مائة آية، أو تزيد قليلاً .

والقسم الثالث : المثنى : وهي ما تقلّ آياتها عن المائة .
والقسم الرابع : المفصل .

وقد أدخلت سورتان أو ثلاث هي من عداد المثنى في المئين، لمناسبة سياقها بسياق المئين؛ وهكذا جرى التصرف في بعض الأقسام الأخرى أيضاً^(١)

القرآن في عهد عثمان رضى الله عنه

وقد استنسخ عثمان رضى الله عنه عدّة نسخ من ذلك المصحف، وأرسلها إلى الآفاق، ليستفيد المسلمون منها، ولا يميلون إلى ترتيب آخر^(٢) .

(١) كما أن سورة الرعد (وآياتها ٤٣) وسورة إبراهيم (وآياتها ٥٢) وسورة الحجر (وآياتها ٩٩) وسورة مريم (وآياتها ٩٨) وسورة الحج (وآياتها ٧٨) كلها من المثنى، ووضعت في المئين، وكذا سورة الشعراء (وآياتها ٢٢٧) وسورة الصافات (وآياتها ١٨٢) وضعتا في المثنى، وكما قرئ بين الأنفال وهي من المثنى وبين البراءة وهي من المئين، فوضعتا في السبع الطول .

(٢) قال الزركشى في البرهان (٢٣٥ : ١) : واعلم أنه قد اشتهر أن عثمان هو أول من جمع المصاحف؛ وليس كذلك لما بيناه، بل أول من جمعها في مصحف واحد الصديق، ثم أمر عثمان حين خاف الاختلاف في القراءة بتحويله منها إلى المصاحف، هكذا نقله البيهقي ٥ .

أقول : كان أمر جمع القرآن في عهد أبى بكر خفياً لعامة المسلمين في أقطار العالم، فلما استنسخ عثمان مصاحف، وأرسل بها إلى الآفاق علّم الناس بجمعه وتبادر إلى أذهان العامة أن عثمان رضى الله عنه هو الذى تولى بجمعه وليس كذلك، نعم هو الذى جمع الناس على القرآن فجزاه الله عنا بأحسن الجزاء .

واختلف في عدة المصاحف التى أرسل بها عثمان إلى الآفاق، فالمشهور أنها خمسة وقيل سبعة؛ فأرسل إلى مكة والشام وإلى اليمن وإلى البحرين وإلى البصرة وإلى الكوفة وحبس بالمدينة واحداً .

استهلال السور واختتامها على أسلوب الفرامين

ولما كانت بين أسلوب السور وأسلوب فرامين الملوك مناسبة تامة، رُوعِيَ في البداية والنهاية طريق المكاتيب؛ فكما أنهم يبتدئون بعضها بحمد الله تعالى، وبعضها ببيان غرض الإملاء، وبعضها ببيان اسم المرسل والمرسل إليه؛ وبعضها تكون رُقْعَةً وَشِقَّةً^(١) بغير عنوان، وبعضها تكون طويلة، وأخرى مختصرة، كذلك استهلَّ الله تعالى بعض السور بالحمد والتسبيح، وبعضها ببيان غرض التنزيل، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾^(٣)

وهذا القسم من السور يُشَبِّهُ بما يكتبون: ^(٤) ”هذا ما صالح عليه فلان وفلان“ و”هذا ما أوصى به فلان“ وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية: ”هذا ما قاضى عليه محمد — صلى الله عليه وسلم.“^(٥)

واستهلَّ بعضها بذكر المرسل والمرسل إليه، كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾^(٦) وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ، ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾^(٧).

وهذا القسم يشبه بما يكتبون: ”صدر الحكم من الباب العالي“ أو يكتبون: ”هذا إعلام من حضرة الخلافة إلى سكان البلد الفلاني بأن الخ“؛ وقد كتب

(١) الرقعة ج رُقْع ورُقَاع: القطعة من الورق التي تكتب فيها، والشِقَّة ج شِقَق وشقاق: ما شقَّ من ثوب أو ورق مستطيلاً.

(٢) سورة البقرة ٢ (٣) سورة النور ١

(٤) أى في استهلال الوثائق والمعاهدات.

(٥) كما في الصحيح للإمام البخارى ص ٣٧٢ فى باب كيف يكتب هذا ما صالح فلان بن فلان الخ من كتاب الصلح.

(٦) سورة الجاثية ٢ (٧) سورة هود ١

النبي صلى الله عليه وسلم: "من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم" (١)
 واستهّل بعضها على أسلوب الرّقاع والشّقق بغير عنوان، كما قال تعالى:
 ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي
 زَوْجِهَا﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ (٤).

منهج القصائد في مبتدأ بعض السور

ولما كانت فصاحة العرب تتجلى في القصائد، وكان من عاداتهم القديمة
 في مبدأ القصائد التشبيب (٥) بذكر المواضع العجيبة والوقائع الهائلة، فاختار
 سبحانه وتعالى هذا الأسلوب في بعض السور، كما قال تعالى: ﴿وَالصَّافَاتِ
 صَفًّا، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ (٦) وقال تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا، فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ (٧)
 وقال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ (٨).

خواتم السور على منهج الفرامين

وكما أن الملوك يختمون فرامينهم بجوامع الكلم، ونوادر الوصايا،
 والتأكيد البليغ بتمسك الأوامر المذكورة، والتهديد الشديد لكل من يخالفها،
 كذلك ختم الله تبارك وتعالى أواخر السور بجوامع الكلم، ومنايع الحكم (٩)
 والتأكيد البليغ والتهديد العظيم.

(١) كما في الصحيح للإمام البخارى ص ٥ في الباب الأول.

(٢) سورة المنافقون ١ (٣) سورة المجادلة ١ (٤) سورة التحريم ١
 (٥) شَبَّبَ قصيدته: حَسَّنَهَا وزينها بذكر النساء؛ والعادة أن يكون التشبيب في
 مبدأ قصائد المدح، ثم سمي ابتداء كل أمر تشبيبا، وإن لم يكن فيه ذكر الشباب
 والنساء.

(٦) سورة الصافات ١ و ٢ (٧) سورة الذاريات ١ و ٢ (٨) سورة التكويد ١ و ٢ .
 (٩) الكلام الجامع: ما قلت ألفاظه وكثرت معانيه، والنوادر جمع النادرة مؤنث
 النادر، والمنايع جمع المنيع: مخرج الماء.

تخلل الكلام البليغ في أثناء السور

- وقد يؤتى في أثناء السور بالكلام البليغ العظيم الفائدة البديع الأسلوب، الذي يشتمل على نوع من الحمد والتسبيح، أو على نوع من النعم والامتنان، كما:
- بدأ بيان التباين بين مرتبة الخالق والمخلوق بقوله: ﴿قُلِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى، اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١) ثم بين هذا الموضوع في خمس آيات بأبلغ وجه وأبدع أسلوب.
 - وبدأ مخاصمة بنى إسرائيل في أثناء سورة البقرة بقوله: ﴿يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا﴾^(٢) ثم ختمها بنفس هذا الكلام^(٣)؛ فابتداء المحاجة بهذه الكلمة، وانتهاء هابها يَحْتَلُّ^(٤) مكانا عظيما في البلاغة.
 - وبدأ المخاصمة مع أهل الكتاب في سورة آل عمران بقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٥) لِيَتَّضِحَ محلُّ النزاع، ويدور الحوار^(٦) على ذلك المدعى والله أعلم بحقيقة الحال.

الفصل الثانى

فى

تقسيم السور إلى الآيات، وأسلوبها الفريد

لقد جرت سنة الله تعالى فى أكثر السور^(٧) بتقسيمها إلى الآيات، كما كانوا يقسمون القصائد إلى الأبيات.

(٢) سورة البقرة ٤٧

(١) سورة النمل ٥٩

(٣) راجع سورة البقرة ١٢٢ و ١٢٣.

(٤) احتل مكانا: حلّه ونزله، واحتل مكانا عظيما فى البلاغة أى له مكان عظيم فيها.

(٥) سورة آل عمران ١٩

(٦) الحوار: حديث يجرى بين شخصين أو أكثر فى العمل القصصى.

(٧) ستقف على فائدة التقييد بالأكثر فى آخر الفصل.

الفرق بين الآيات والأبيات

وغاية ما يقال في الفرق بينهما: أن كلا منهما نشائد^(١)، التي تُنشد لالتذاد نفس المتكلم والسامع؛ إلا أن الأبيات مقيدة بالعروض والقوافي^(٢)، التي دونها الخليل بن أحمد^(٣) وتلقاها منه الشعراء، وبناء الآيات على الوزن والقافية الإجماليين، يُشبهان أمرا طبيعيا، لا على أفاعيل العروضيين وتفاعيلهم^(٤)، وقوافيهم المعينة التي هي أمر صناعي واصطلاحي.

(١) النشائد جمع النشيد والنشيدة: ما يرفع فيه الصوت مع التلحين؛ وأنشد الشعر: قرأه رافعا به صوته.

(٢) العروض: ميزان الشعر الذي يظهر به المتزن من المختل، والقافية: آخر كلمة في البيت، أو هي: من آخر ساكن فيه إلى أول ساكن يليه، مع المتحرك الذي قبل الساكن، فلو قلت مثلاً: "ما أطول الليل على من لم يَنَمْ" كانت القافية "لم يَنَمْ" وسيأتي ذكرها بعبارة أخرى في نفس الفصل.

(٣) هو خليل بن أحمد الفراهيدي:، الأزدي، اليحمدي: من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض، أخذه من الموسيقى، وكان عارفا بها، وهو أستاذ سيبويه النحوي ولد ومات بالبصرة (ولد سنة ١٠٠ هـ وتوفي سنة ١٧٠ هـ) وعاش فقيراً صابراً، كان شعث الرأس، شاحب اللون: (متغيره) قَشَفَ الهيئة: (رثها) مُتَمَزَّقَ الثياب، متقطع القدمين (قصيرهما) مغمورافي الناس لا يعرف، قال النضر بن شميل: مارأى الراؤون مثل الخليل، ولا رأى الخليل مثل نفسه اهوفكر في ابتكار طريقة في الحساب، تُسَهِّلُهُ على العامة، فدخل المسجد، وهو يَعْمَلُ فِكْرَهُ، فصدته سارية وهو غافل، فكانت سبب موته، وهو الذي اخترع العروض، وأحدث أنواعا من الشعر، ليست من أوزان العرب، وصنف "كتاب العين" في اللغة ورتبه على الحروف، فرحمه الله تعالى.

(٤) الأفاعيل والتفاعيل: أمثلة الأجزاء التي يتألف منها الشعر، وهي أربعة: فُعولن، مفاعيلن، مفاعلتن، فاعلاتن، وبقيّة الأجزاء مأخوذة منها.

الأمر المشترك بين الآيات والأبيات

وأما تنقيح الأمر المشترك بين الآيات والأبيات — ونعبر ذلك الأمر العام بالنشائد^(١) — ثم ضبط تلك الأمور التي التزم بها في الآيات — وذلك بمنزلة الفصل — فكل ذلك يحتاج إلى تفصيل^(٢)، والله ولي التوفيق.

وتفصيل هذا الإجمال: أن الفطرة السليمة تدرك بذوقها في القصائد الموزونة المقفاة، والأراجيز الرائقة الجميلة،^(٣) وأمثالها، حلاوة وعدوبة؛ وإذا تأمل أحد في سبب إدراك تلك الحلاوة، وجد أن نفس المخاطب تتذوق لذة خاصة في الكلام الذي يوافق بعضه بعضا، ويجعلها منتظرا إلى كلام آخر مثله، فإذا سمعت بعد ذلك البيت الآخر مع ذلك التوافق والانسجام بين أجزائه^(٤)، وتحقق الأمر المنتظر، تضاعفت اللذة عند ذلك؛ ولما كان البيتان مشتركين في قافية واحدة، ازدادت اللذة ثلاثة أضعافها؛ فالتمتع والالتذاذ بالأبيات بهذا السر فطرة قديمة فطر الناس عليها، وأصحاب الأمزجة السليمة من أهل الأقاليم المعتدلة^(٥) متفقون على ذلك.

(١) وهذا بمنزلة الجنس.

(٢) أى: استخراج الأمر المشترك بين الآيات والأبيات، ثم ضبط ما يميز الآيات من الأبيات محتاج إلى بسط وتفصيل وسيذكره المصنف عليه الرحمة. وذلك الأمر العام، المشترك بين الآيات والأبيات، يُعبر بـ "النشائد"؛ وهى جمع النشيد والنشيدة: ما يترنم به من النثر والنظم، مع رفع الصوت؛ والأمور التي تميز الآيات من الأبيات بمنزلة الفصل للآيات، تُميزها من الأبيات.

(٣) قوله: الأراجيز جمع أرجوزة: قصيدة من بحر الرجز؛ والرجز: بحر من أبحر الشعر، معروف، وزنه: "مستفعِلن" ست مرات، وإنما سمي الرجز رجزا لأنه تتوالى فيه حركة وسكون، ويُشبه بالرجز في رجل الناقة ورعدتها، وهو أن تتحرك وتسكن، ويقال لها حينئذ رجزا؛ والرائقة: أعجبها وأحسنها.

(٤) الأجزاء: أركان الوزن.

(٥) تقدم تفسير "الأقاليم المعتدلة" في فاتحة الفصل الثاني من الباب الأول.

ثم حدثت بعد ذلك مذاهب مختلفة ورسوم متباينة فى توافق الأجزاء فى كل بيت من الأبيات، وكذا فى شروط القوافى المشتركة بين الأبيات: فالعرب عندهم ضوابط وأصول بينها الخليل، والهنود يتبعون قانوناً يحكم به سليقتهم اللغوية وقريحتهم^(١) الفطرية، وهكذا اختار أهل كل عصر وضعا من الأوضاع^(٢) وسلكوا مسلكاً من المسالك.

التوافق التقريبى هو الأمر المشترك

بين مختلف الكلام المنظوم

وإذا أردنا أن نتزع من بين هذه الرسوم والمذاهب المختلفة أمراً جامعاً مشتركاً، وتأملنا السر المنتشر الشامل فيها، وجدنا أنه هو التوافق التقريبى، لا غير، لأن العرب يستعملون مفاعيل^(٣) ومفتعلن مكان مستفعلن، ويعتبرون فُعلاتن بدل فاعلاتن وفق القاعدة^(٤)، ويجعلون موافقة ضرب^(٥) بيت بضرب بيت آخر، وموافقة عروض بيت بعروض بيت آخر، أمراً مهماً ويجوزون زحافات كثيرة فى الحشو^(٦) بخلاف شعراء الفرس. فإن الزحافات عندهم

(١) القريحة من الإنسان: طبيعته التى جبل عليها.

(٢) الوضع: هيئة الشيء التى يكون عليها والمراد به الرسوم (٣) الإعراب حكاية.

(٤) إذا دخل الخَبْنُ فى "مستفعلن" يصير "مفاعيل": وإذا دخل الطَى عليه يصير

"مفتعلن" إذا دخل فى "فاعلاتن" الخَبْنُ يصير "فُعلاتن"

(٥) "الضرب" الجزء الأخير من المصراع الثانى من البيت مثال ذلك "فيه ماء"

فى قول الشاعر:

فى فمى ماءً وهل ينطق من فى "فيه ماء"؟

جمعه ضروب وأضراب وأضرب. والعروض هنا هو الجزء الأخير من

المصراع الأول من البيت

(٦) الحشو فى الأصل: ما يجعل فى الرسادة، تملأ به وفى الاصطلاح: أركان

البحر، الواقعة بين الصدر والعروض، وبين الابتداء والضرب: وسمى به لكونه

(=)

محشواً بين طرفى المصراع.

وكذلك تستحسن العربُ كَوْنُ القافية في البيت "قبوراً" وفي البيت الآخر "منيراً" بخلاف شعراء العجم.

وهكذا يرى الشعراء العرب أن "حاصل" و"داخل" و"نازل" من قسم واحد، بخلاف الشعراء العجم.

وكذلك وقوع كلمة واحدة بين شطري البيت، بحيث يكون نصفها في الصدر، والنصف الآخر في العَجْزِ^(٢) صحيح عند العرب، لا عند العجم.

وقَدْ لَكَا القول: أن الأمر الجامع المشترك بين الكلام المنظوم العربي والفارسي هو التوافق التقريبي، لا التوافق التحقيقي.

وقد وضع الهنود أوزان شعرهم على عدد الحروف بدون ملاحظة الحركات والسكنات، وهي أيضاً تمنح لذة وحلاوة، وقد سمعنا بعض أهل البداوة يختارون في تغريداتهم^(٣) التي يتلذذون بها، كلاماً متوافقاً بتوافق تقريبي،

(=) والزحاف: تغيير مختص بثوانى الأسباب مطلقاً، بلالزوم أى: إذا دخل الزحاف في بيت من أبيات القصيدة لا يجب التزمه فيما يأتى بعده من الأبيات بخلاف العلة؛ فلا يدخل الزحاف في الأول والثالث والسادس من الجزء.

وهو نوعان: مفرد ومزدوج:

فالمفرد: وهو الذى يكون بمحل واحد من الجزء، وهو ثمانية: الخَبْن والإضممار، والوقص، والطّي، والقبض، والعَضْب، والعَقْل، والكف.

والمزدوج: وهو الذى يكون في موضعين من الجزء، وهو أربعة: الطي مع الخبن، وهو الخبل؛ والطي مع الإضممار وهو الخزل؛ والكف مع الخبن، وهو الشكل؛ والكف مع العصب، وهو النقص (من الإفصاح على عروض المفتاح ص ١٩ للعلامة محمد إعزاز العلى رحمه الله)

(١) استهجنة: استقبحة.

(٢) الصدر: المصراع الأول من البيت والعَجْز: المصراع الثانى منه.

(٣) غرّد الطائر والإنسان: رفع صوته بالغناء وطرب به.

أورد يفا^(١) — نارة يكون كلمة واحدة، وأخرى يزيد عليها — وينشدونها مثل القصائد، ويتلذذون بها؛ ولكل قوم أسلوب خاص في كلامهم المنظوم. وهكذا وقع اتفاق الأمم على الالتذاذ بالحنّ ونغمات، وتحقق اختلافهم في قوانين تغريدهم، وأساليب تلحينهم^(٢)

وقد وضع اليونانيون عددًا من الأوزان، يسمونها "المقامات" واستنبطوا منها أصواتا وشُعَبًا، ودوّنوا لأنفسهم فنًا مبسوطًا مفصلاً.

وكذلك وضع الهنود ستة نغمات، وفرّعوا منها نُغَمَاتٍ^(٣) وقد رأينا أهل البداوة منهم الذين لا يعرفون هذين المصطلحين، تفتنوا بحسب سليقتهم لتأليف الكلام وتلحينه، وتغنّوا به من دون أن يضبطوا له الكليات، ويحصروا له الجزئيات.

وإذا حَكَمْنَا الْحَدْسَ^(٤) بعد هذه الملاحظات، لم نجد الأمر المشترك سوى التوافق التقريبي؛ ولا غرض للعقل إلا بذلك المنتزع الإجمالي، ولا همّ له في تفاصيل القوافي المردفة الموصولة^(٥)؛ ولا يحب الذوق السليم إلا تلك

(١) الرديف عند العجم: كلمة مستقلة تأتي في آخر البيت بعد القافية.

(٢) لحن في قراءته: طرب فيها، وغرّد بالحن. (٣) نغمة: راك نُغَمَة: راكنايا

(٤) الحدس: سرعة الانتقال في الفهم والاستنتاج.

(٥) اعلم أن القافية هي الحروف التي تبدأ بمتحرك، يليه آخر ساكنين في آخر البيت، مثل كلمة يُذَمُّم في قول زهير:

ومن يَلِكُ ذا فَضْلٍ فَيَبْخُلُ بِفَضْلِهِ عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَغْنَى عَنْهُ وَيُذَمَّمُ

ثم اعلم أن الروي: الحرف الذي تُبنى عليه القصيدة، وإليه تُنسب، يقال:

قصيدة بائية: إذا كان رَويُّها الباء؛

ثم الروي إن كان ساكناً فمقيد، والقافية مقيدة؛ وإلا فمطلق والقافية مطلقة

فإن سبقه مدّة أولين فَرْدٌ، والقافية مُردّفة؛ وإن لحقه مدّة أو هاء ساكنة بلا فصل فوصل، والقافية موصولة؛

فمثال القافية المردفة الموصولة: "ومن أين للوجه المليح ذنوب؟":

الرّذِفُ واو في آخر الباء، والوصل واو قبل الباء وكذا: "وقلنا القوم إخوان" الردف واو، والوصل ألف (محيط الدائرة).

الحلاوة المَحْضَة والعذوبة الخالصة، ولا علاقة له بطويل البحر ومديده.

مراعاة القرآن الكريم للحسن الإجمالى المشترك

ولمّا أراد الخلاق — جلّت قدرته — أن يخاطب الإنسان المخلوق من قُبْضَةِ طِينٍ،^(١) نظر إلى ذلك الحسن الإجمالى والجمال المشترك فحسب، ولم ينظر إلى قوالب مستحسنة عند قوم دون قوم؛ وحينما شاء مالك الملك أن يتكلم على منهج الآدميين، لاحظ ذلك الأصل البسيط والسر المشترك، ولم يراع هذه القوانين المتغيرة بتغير الأدوار والأطوار.

ومبنى التمسك بالقوانين الاصطلاحية هو العجز والجهل؛ وتحصيل تلك الحسن الإجمالى والجمال الفنى بدون توسط تلك القواعد — بحيث لا يتغير البيان فى الوهاد والأنجاد ولا يضيع الكلام فى السهول والجبال^(٢) — معجز ومفحم^(٣)، وأنا أنتزع من جريان الحق تعالى على ذلك السنن أصلاً، وأضع منه قاعدة:

وتلك القاعدة: أنه تعالى قد راعى فى أكثر السور امتداد النفس^(٤) لا البحر

(١) أى: لم تكن أية نسبة بينه وبين الخالق، فكيف يمكن التخاطب؟! ولكنه تعالى مع هذا البون البعيد أراد أن يخاطبه، فنظر الخ.

(٢) الوهاد: الأرض المنخفضة، والأنجاد جمع نَجْد: المكان المرتفع، والسهل: الأرض الممتدة، المستقيم سطحها.

(٣) الْمُفْحَمُ: العاجز أمام الحجّة؛ وحاصل قول الإمام: إن الاحتياج إلى القوانين العرفية لعجز الإنسان وجهله، فإنه لا يقدر على تحصيل ذلك الحسن الإجمالى بكماله بدون توسط تلك القواعد الفنية؛ ولكن الله تعالى قادر على كل شيء، فلا حاجة له إلى تلك القوانين الاصطلاحية لتحصيل ذلك الجمال المشترك بين كلام طوائف الناس.

(٤) النفس — بفتح الفاء — ريح يدخل ويخرج من فم الحى حالة التنفس والجمع أنفاس.

الطويل والمديد؛ وكذلك اعتبر في الفواصل انقطاع النفس بالمدّة، وبما تستقر عليه المدّة، لا قواعد فن القافية.

وهذه الكلمة أيضًا تقتضى بسطا وتفصيلاً فليلقِ القارئ السمع لما يُذكر بالتالي :

الامتداد النفسى الطبيعى هو الورد فى القرآن

اعلم أن دخول النفس فى الحلقوم وخروجه منه أمر طبيعى فى الإنسان، وإن كان تمديده وتقصيره من مقدوره، ولكنه إذا ترك على سجيته فلا بد له من امتداد محدود؛ والإنسان حينما يتنفس يجد النشاط، ثم يضمحل ذلك النشاط تدريجاً، حتى ينقطع كلياً فى آخر الأمر، ويضطر إلى أخذ النفس الجديد الطازج.

وهذا الامتداد أمر محدّد بحدٍ مُبهم، ومقدّر بمقدار مشترك، بحيث لا يضره نقصان كلمتين أو ثلاث، بل ولا نقصان قدر الثلث والربع وكذلك لا يخرجّه عن الحد زيادة كلمتين أو ثلاث، بل ولا زيادة قدر الثلث والربع؛ ويسع فيه اختلاف عدد الأوتاد والأسباب^(١) ويسامح فيه بتقديم بعض الأركان على بعض^(٢)

فجعل هذا الامتداد النفسى وزناً، وقسم على ثلاثة أقسام:

١- طويل ٢- ومتوسط ٣- وقصير

- (١) الورد فى اللغة: مارزّ فى الأرض أو الحائط من خشب؛ وهو عند أهل العروض : ثلاثة أحرف، ثانيها أو ثالثها ساكن؛ فإن سكن وسطها كما فى " قول " فهو الورد المفروق؛ وإن تحرك وسطها، وسكن آخرها كما فى " على " فهو الورد المجموع. والسبب فى اللغة: الحبل الذى تُربط به الخيمة؛ وفى الاصطلاح حرفان، ثانيهما ساكن نحو " لم " ويسمى سبباً خفيفاً؛ لما فيه من السكون بعد الحركة؛ وإن كانا متحركين، لا يعقبهما ساكن فهو سبب ثقيل، نحو: " أر " فى لم أر.
- (٢) الأركان: هى الأجزاء أى: أفاعيل العروضيين وتفاعيلهم.

أما الطويل : فنحو سورة النساء .

وأما المتوسط : فنحو سورة الأعراف والأنعام .

وأما القصير : فنحو سورة الشعراء والدخان .

خاتمة النفس على المدة هي القافية في القرآن

وخاتمة النفس على المدة المعتمدة على حرف، هي القافية المتسعة التي يتلذذ الطبع من إعادتها مراراً؛ ولو كانت تلك المدة في موضع " ألفا " وفي موضع آخر " واو " أو " ياء " وسواء كان ذلك الحرف الأخير في موضع " باء " وفي موضع آخر " ميم " أو " قاف " ف " يعلمون " و " مؤمنين " و " مستقيم " كلها متوافقة؛ و " خروج " و " مريج " و " تحيد " و " تبار " و " فواق " و " عجاب " كلها على قاعدة .

لحوق الألف في آخر الكلمة أيضاً قافية

وكذلك لحوق الألف في آخر الكلمة قافية متسعة، في إعادتها لذة، ولو كان حرف الروي^(١) مختلفاً، فيقول في موضع " كريما " وفي موضع آخر " حديثا " وفي موضع ثالث " بصيرا " .

فإن التزم في هذه الصورة موافقة الروي، كان من قبيل : " التزام ما لا يلتزم " ^(٢) كما وقع في أوائل سورة مريم وسورة الفرقان .

توافق الآيات على حرف واحد وإعادة الجملة مفيداً لذة

وكذلك توافق الآيات على حرف واحد، كحرف " الميم " في سورة القتال ^(٣)

(١) الروي : كل حرف يقع آخر البيت، إلا ما استثنى منه من التنوين أو بدل من التنوين ، أو حرف إشباعي مجلوب لبيان الحركة، وما إلى ذلك .

(٢) التزم الشيء : أوجبه على نفسه، فمعنى التزام ما لا يلتزم : تكلف بمائمه يكن واجباً عليه .

(٣) سورة القتال هي سورة محمد صلى الله عليه وسلم .

و"النون" فى سورة الرحمن مفيد لذة وحلاوة.

وكذلك إعادة جملة بعد طائفة من الكلام مفيدٌ للذة كما وقع فى سورة الشعراء، وسورة القمر، وسورة الرحمن، وسورة المرسلات.

اختلاف فواصل آخر السورة من أوائلها

وقد تبدّل فواصل آخر السورة أوائلها تنشيطاً للسامع، وإشعاراً بلطافة الكلام، مثل: "إِذَا" و"هَذَا" فى آخر سورة مريم؛ ومثل: "سَلَامًا" و"كِرَامًا" فى آخر سورة الفرقان؛ ومثل: "طِين" و"ساجدين" و"منظرين" فى آخر سورة ص، مع أن الفواصل فى أوائل هذه السور جاءت مختلفة عنها، كما لا يخفى. فجعل الوزن والقافية اللذان مضى التعبير عنهما ^(١) مهمًا فى أكثر السور.

منهج القرآن فى الفواصل

إن كان اللفظ فى آخر الآية صالحاً للقافية فيها، وإلا وصل بجملة فيها بيان آلاء الله، أو تنبيه للمخاطب، كما يقول: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وقد يُطلب فى مثل هذه المواضع، مثل: ﴿فَسُئِلَ بِهِ خَبِيرًا﴾ ^(٢) ويستعمل

(١) أى بالتوافق التقريبي، والمدة المعتمدة على حرف.

(٢) سورة الفرقان ٥٩ وكنزوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ فكلمة: "إذا حسد" جيئ بها للقافية، ويقال لمثل هذه الصنعة: صنعة الإيغال، ومعناه، أن يستوفى معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه، ثم يأتى بالمقطع فيزيد معنى آخر، يزيد به وضوحاً وشرحاً وتوكيداً وحسناً؛ ولا يطلب مثله فى القرآن إلا فى الفواصل.

التقديم والتأخير^(١) تارة، والقلب والزيادة أخرى، مثل: ﴿إِلَّا يَاسِينَ﴾^(٢) في
إلياس، ﴿وَطُورٍ سِينِينَ﴾^(٣) في سينا^(٤).

السّر في الآية الطويلة مع الآيات القصار، وبالعكس

وليعلم ههنا: أن انسجام^(٥) الكلام وسهولته على اللسان — لكونه مثلاً
سائراً أولتكرر ذكره في الآية — يجعل الكلام الطويل موزوناً مع الكلام
القصير.

وربما يؤتى بالفقر الأول أقصر من الفقر الثانية، وهو يفيد عذوبة في
الكلام نحو قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا
سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾^(٦)؛ فكان المتكلم يضمن في نفسه في مثل هذا
الكلام: أن الفقرة الأولى مع الثانية في كفة^(٧) والفقرة الثالثة وحدها في كفة.

الآية ذات القوائم الثلاث

وربما تكون الآية ذات قوائم ثلاث، نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ

(١) كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة البقرة ١٤٣) قال
السيوطي في الجلالين: وقدّم الأبلغ للفاصلة اه وقال السيد سليمان الحامل: أى
مع أن العادة العكس ليكون للأبلغ بعد غيره فائدة؛ فيقال: عالم تحرير، ولا يقال:
تحرير عالم اه.

(٣) سورة التين ٢

(٢) سورة الصافات ١٣٠

(٤) هذان مثالان للقلب مع الزيادة أما مثال الزيادة فحسب فكقوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ (سورة الأحزاب ١٠) فألحقت الألف بـ "الظنون" لأن
مقاطع فواصل هذه السورة ألفات منقلبة عن تنوين في الوقف، فزيد على النون ألف
لتساوى المقاطع، وتناسب نهايات الفواصل؛ ومثله (فأضلونا السبيلا) (سورة
الأحزاب ٢٧) ﴿وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ (سورة الأحزاب ٦٦) من البرهان (١: ٦١)

(٦) سورة الحاقة ٣٠-٣٢

(٥) انسجم الكلام: انتظم

(٧) الكفة من الميزان: ما يجعل فيه الموزون؛ وهما كفتان.

وَتَسْوَدُّ وَجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ الْآيَةُ^(١)، وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمُ الْآيَةُ^(٢) ﴿١﴾
والعامة يصلون الأولى^(٣) مع الثانية فيحسبونها طويلة.

الآية ذات الفاصلتين

وقد يجيء سبحانه وتعالى بفاصلتين في آية واحدة^(٤) كما يكون ذلك
في البيت أيضًا، نحو:

كالزهر في تَرْفٍ، والبدر في شرف والبحر في كرم، والدهر في همم^(٥)

(١) سورة آل عمران ١٠٥-١٠٧ (٢) أى: يوم تبيض وجوه الآية.
(٣) كقوله تعالى ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ، وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ (الرحمن ١٧) وقوله تعالى:
﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا فَأَذْخَلُوا نَارًا، فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ ذُوْنِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ (نوح
٢٥) وكقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ: أَيْنَ شُرَكَاءِى الَّذِينَ كُنْتُمْ
تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ﴾ (النحل ٢٧) وكقوله تعالى ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا، فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ (بنى
إسرائيل ١٦) وكقوله تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾
(سورة التوبة ٢٤) وكقولهم: "جنابه محط الرحال، ومخيم الأمال"

ومن أمثلته الشعرية قول أبى تمام:

تَحَلَّى به رُشْدَى، وأَثَرْتُ به يَدَى وفاض به ثَمْدَى، وأورَى به زَنْدَى.

(الثمد: والجمع ثماد: الماء القليل يتجمّع فى الشتاء، وينضب فى الصيف،
والزند: العود الأعلى الذى تُقْتَدَح به النار؛ والزندة: العود الأسفل الذى فيه
الْقُرْصَةُ؛ فإذا اجتمع قيل: الزندان)

(٤) والشعر من القصيدة البردة فى وصف النبى صلى الله عليه وسلم، لأبى عبد
الله محمد بن سعيد البوصيرى رحمه الله. وقوله: الزهر: نور النبات؛ والترف:
النعومة؛ والبدر: القمر ليلة كماله، وهى: ليلة أربعة عشر، والشرف: العلو؛
والدهر: الزمن؛ والهمم جمع همة: العزم على الشئ، والإرادة له، ونسبة الهمم
إلى الدهر على عادة العرب فإنهم يجعلون للدهر عزائم وإرادات، ويشبهون (==)

أطول آية مع الآيات القصار

وقد يجيء بالآية الواحدة أطول من سائر الآيات^(١) والسرفيه: أنه لو وُضع حسنُ الكلام الذى نشأ من تقارب الوزن ووجدانِ الأمر المنتظر الذى هو القافية فى كَفَّة، ووُضع حسنُ الكلام الذى نشأ من سهولة الأداء وموافقة طبع الكلام، وعدم لحوق التغير فيه، فى كفة أخرى، ترجَّح الفطرة السليمة جانبَ المعنى^(٢) فيُهملُ أحدَ الانتظارين، ويوفَّى الحقَّ فى الانتظار الثانى^(٣).

لم يُراعِ ذلك الوزن والقافية فى بعض السور

وأما ما قلنا فى فاتحة المبحث^(٤): أن سنة الله تعالى قد جرت فى أكثر السور على ذلك، فإنما هو لأجل أن الله سبحانه وتعالى لم يُراعِ فى بعض السور ذلك النوع من الوزن والقافية^(٥) فجاءت طائفة من الكلام على منهج

(==) الممدوح به فى تلك العزمات والإرادات؛ وسبب ذلك: أن الحادثات الدقيقة إنما تقع فى الدهر، فينسبونها إليه على سبيل المجاز العقلى، كقولهم: نهاره صائم، وليله قائم.

ومعنى الشعر: هو صلى الله عليه وسلم مثل الزهر فى اللطافة، والبدر فى الشرف، والبحر فى الكرم، والدهر فى الهمم والعزم على الشئ (من شرحى البردة للبيجورى ص ٨٩ وخالد الأزهرى ص ٣٤)

(١) كما فى سورة المدثر الآية ٣١ فإنها أطول مما قبلها؛ وكما فى سورة المزمل الآية ٢٠ فإنها أيضا أطول مما قبلها؛ وكما فى سورة البقرة الآية ٢٨٢ فإنها أطول مما قبلها من الآيات.

(٢) يعنى ترجَّح حسن الكلام الذى نشأ من سهولة الأداء الخ.

(٣) أى: يُترك الأمر الأول ويوفى الحق فى رعاية الأمر الثانى فتطول الآية.

(٤) أى فى فاتحة الفصل الثانى من الباب الثالث.

(٥) أى كوزن القصائد وقافيتها.

خُطِبَ الخطباء وأمثال الحكماء؛ ولعلك قد سمعتَ مسامرةَ النساءِ المرويةَ عن سيدتنا عائشة رضى الله عنها^(١) وفهمت قوافيها؛ ووقع الكلام فى بعض السور على منهج رسائل العرب بدون رعاية شيء، مثل محاوراة الناس؛ إلا أنه يختتم كل كلام بشيء يكون مبنيا على الاختتام.

والسر هنا: أن الأصل فى لغة العرب هو الوقف فى موضع ينتهى إليه النفس، ويضمحل نشاط الكلام؛ والمستحسن فى محل الوقف انتهاء النفس على المدة؛ ومن أجل هذا تشكّل الكلام فى صورة الآيات، هذا ما فتح الله تعالى على العاجز فى هذا الباب، والله أعلم.

وجه اختيار الأوزان والقوافى الجديدة: (٢)

وإن سألوا: لماذا لم يختَر سبحانه وتعالى تلك الوزن والقافية اللذين هما معتبران عند الشعراء، وهما الذُّ من هذا؟

قلنا: كونهما الذُّ يختلف باختلاف الأقوام والأذهان^(٣)؛ ولو سلمنا: (٤) فإبداع أسلوب من الوزن والقافية على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو

(١) يريد بذلك حديث أم زرع المروى فى البخارى (ص ٧٧٩) وفى الصحيح لمسلم والشمائل النبوية للإمام الترمذى رحمهم الله.

(٢) غيرتُ هذا البحث من موضعه إلى هنا لتأساقه مع مباحث الفصل، وكان فى الأصل قبيل الفصل الرابع.

(٣) أى: قوم يحبون وزنا ولا يحبه آخرون، بل يحبون وزنا آخر، وكذا رجل يالف بوزن وقافية، ولا يالف بهما رجل آخر، فما سبيل رعاية جميع الأقوام والأذهان فى وزن القرآن وقافيته؟! وربما يكون الوزن والقافية الذُّ عند قوم، ولا يحبهما آخرون، فلواختار الله تعالى وزنا معيناً وقافية خاصة فيتلذذ بهما قوم ولا يتلذذ بهما آخرون فما السبيل؟!

(٤) أى: لو سلمنا أن أوزان الشعراء وقوافيهم الذُّ مطلقاً عند جميع طوائف الناس لقلنا: إبداع الخ.

أَمْيَ — آية ظاهرة على نبوته صلى الله عليه وسلم.

ولو نزل القرآن على أوزان الأشعار وقوافيها لحسب الكفار أنه هو الشعر المعروف المشهور عند العرب، ولم يَجْنُوا^(١) من ذلك الحسبان فائدة، كما أن البلغاء من الشعراء والكتّاب حين يحاولون إبراز مزيتهم، ورجحانهم على أقرانهم على رؤوس الأشهاد يستنبطون صناعة جديدة، ويتحدّون^(٢): ” هل من رجل يقرض الشعر مثلي، ويكتب الرسالة نحوي؟!“ ولو جرى هؤلاء على النمط القديم لم تظهر براعتهم إلا على المحققين البارعين.

الفصل الثالث

في

وجه التكرار في العلوم الخمسة، وعدم الترتيب في بيانها

١- إن سألوا: لماذا كرّرت مطالب العلوم الخمسة في القرآن العظيم؟ ولم لم يكتب سبحانه وتعالى بيانها في موضع واحد؟^(٣)

قلنا: إن ما نريد إفادته للسامع على قسمين:

الأول: أن يكون المقصود هناك مجرد تعليم مالا يعلم؛ فالمخاطب الذي لا يدري حكما من الأحكام، ولم يدركه عقله، إذا سمع هذا الكلام يصير ذلك المجهول عنده معلوماً.

والثاني: أن يكون المقصود استحضار صورة ذلك العلم في قوته المدركة ليتلذذ به لذة تامة، وتفنى القوى القلبية والإدراكية في ذلك العلم؛ ويغلب لو ذلك العلم القوى كلّها، حتى تنصبغ به؛ كما نكرر الشعر الذي علمنا معناه، فنجد كلّ مرة لذة جديدة، ونحب التكرار لأجل هذه الفائدة.

(١) جَنَى الثمرة ونحوها جَنَى وَجَنَى: تناولها من مُنْبَتها.

(٢) تحدّى فلانا: طلب مباراته في أمر.

(٣) تقدم تفصيل العلوم الخمسة في فاتحة الباب الأول.

والقرآن العظيم أراد إفادة القسمين المذكورين بالنسبة إلى كل واحد من مباحث العلوم الخمسة، فأراد تعليم ما لا يعلم بالنسبة إلى الجاهل، وأراد انصبغ النفوس بتلك العلوم بتكرارها بالنسبة إلى العالم؛ اللهم إلا أكثر مباحث الأحكام، فإنه لم يقع فيها هذا التكرار؛ لأن الإفادة الثانية غير مطلوبة فيها^(١). ولأجل ذلك^(٢) أمرنا الله تعالى بتكرار التلاوة والإكثار منها، ولم يكتف بمجرد الفهم^(٣).

ولكن راعى سبحانه وتعالى مع التكرار هذا القدر من الفرق: أنه اختار في أكثر الأحوال تكرار تلك المطالب بعباراة طريئة، وأسلوب جديد، ليكون أوقع في النفوس، وألذ في الأذهان، ولوكرر سبحانه وتعالى بلفظ واحد لكان كالرّد^(٤) الذي يكررونه؛ وأما في صورة اختلاف التعابير، وتنوع الأساليب فيخوض الذهن، ويتعمق الخاطر بأسره في تلك المطالب.

٢- وإن سألوا: لماذا نُشِرت هذه المطالب في القرآن العظيم، ولم يُراع الترتيب: فيذكر آلاء الله أولاً، ويستوفي حقّها، ثم يذكر أيام الله فيُكمّلها، ثم

(١) بل المقصود فيها تعليم ما لا يعلم فقط.

(٢) أى لكون المطلوب في القرآن صبغ النفوس أيضاً.

(٣) قال السيوطي في الإتقان (في النوع ٣٥) يستحب الإكثار من قراءة القرآن وتلاوته، قال الله تعالى مثنيا على من كان ذلك دأبه: ﴿وَيَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ وفي الصحيحين من حديث ابن عمر: لاحسد إلا في اثنين: رجل آتاه الله القرآن فيقوم به آناء الليل وآناء النهار؛ وروى الترمذي من حديث ابن مسعود: من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها؛ وأخرج من حديث أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم، يقول الرب سبحانه وتعالى: من شغله القرآن عن ذكرى ومسلتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين. الحديث اهـ والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

(٤) الرّد: الوظيفة، أى النصيب من القرآن أو الذكر، يقال: قرأتُ وردي.

يبدأ بالجدل مع الكفار؟

قلنا: إن قدرة الله تبارك وتعالى وإن كانت محيطة بجميع الممكنات،^(١) ولكن الحاكم في هذه الأبواب هو الحكمة.

والحكمة: هي موافقة المبعوث إليهم في اللسان وأسلوب البيان، وإلى هذا المعنى أشير في قوله تعالى: ﴿لَقَالُوا: لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ؟ أَعِجِبِي وَعَرِبِي﴾^(٢).

ولم يكن لدى العرب إلى وقت نزول القرآن أي كتاب: لا من الكتب الإلهية، ولا من مؤلفات البشر؛ وإن الترتيب الذي اخترعه^(٣) المصنفون اليوم لم يكن يعرفه العرب؛ وإن كنت في ريب من هذا، فتأمل قصائد الشعراء المُنْخَضَرِمين^(٤) وأقرأ رسائل النبي الكريم صلى الله عليه وسلم^(٥)، ومكاتيب عُمَرَ الفاروقِ رضى الله عنه، يَتَضَحَّ لك هذه الحقيقة؛ فلوجاء الكلام على (١) ورعاية هذا الترتيب أيضًا من الممكنات، فكان الله تعالى قادرًا عليه؛ ولكن الحاكم الخ.

(٢) سورة فُصِّلَتْ (سورة حم السجدة) الآية ٤٤: ﴿لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي: لولا بينت لنا وأوضحت بلسان نفقهه وأسلوب نألفه (أَعِجِبِي وَعَرِبِي) أي: كلام وأسلوب أعجمي ورسول أو مرسل إليه عربي؟! قال الباقلاني في إعجاز القرآن (ص ١٨): قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا: لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، أَعِجِبِي وَعَرِبِي﴾ فأخبر تعالى أنه لو كان أعجميا لكانوا يحتجون في رده: إما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم، أو كانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه، وبأنهم لا يتبين لهم وجه الإعجاز فيه، لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم، أو لغير ذلك من الأمور، وأنه إذا تحدّاهم إلى ما هو من لسانهم وشأنهم فعجزوا عنه، وجبت الحجة عليهم به اهـ.

(٣) اخترع الشيء: أنشأه وابتدعه، ويقال: "اخترع الله الكائنات" أي ابتدعها من العدم.

(٤) المنخضرم: الذي مضى شيء من عمره في الجاهلية وشيئ في الإسلام، وخصّهم بالذكر ليُعرف أسلوب العرب وقت نزول القرآن.

(٥) الرّسالة والرّسالة ج رسائل ورسالات: الصحيفة التي يكتب فيها الكلام المرسل.

غير ما كانوا يعهدونه من طرائق البيان، لوقعوا في الحيرة، وَلَوْصَلَ إِلَى سَمْعِهِمْ شَيْءٌ لَا يَأْلِفُونَهُ، وَلَشَوَّسَ عَقُولَهُمْ.

وأيضاً: لم يكن المقصود مجرد إفادة ما لا يعلمونه، بل المقصود هو الإفادة مع الاستحضار والتكرار؛ ويتوفر هذا المعنى في غير المرتب بأقوى وجه وأتم صورة.

الفصل الرابع

في

وجوه إعجاز القرآن الكريم^(١)

وإن سألوا: ما هو وجه الإعجاز في القرآن الكريم؟

(١) وهو علمٌ جليل، عظيم القدر لأن معجزة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم الباقية القرآن، فهو يوجب الاهتمام بمعرفة الإعجاز، قال الإمام الباقلاني في إعجاز القرآن (ص ١٠): الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن، أن نبوة نبينا عليه السلام بُنيت على هذه المعجزة، وإن كانت قد آيدت بعد ذلك بمعجزات كثيرة، إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقات خاصة، وأحوال خاصة، وعلى أشخاص خاصة فأما دلالة القرآن فهي عن معجزة عامة، عمت الثقلين وبقيت بقاء العُصْرَيْن، ولزوم الحجة بها في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حد واحد اهـ والذي يبين أن الله تعالى حين ابتعثه جعل معجزته القرآن، وبنى أمر نبوته عليه: سورٌ كثيرة وآيات شهيرة، فذكر منها واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ؟ قُلْ: إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ، يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ (سورة العنكبوت ٥٠ و ٥١) فأخبر أن الكتاب آية من آياته، وعلم من أعلامه، وأن ذلك يكفي في الدلالة، ويقوم مقام معجزات غيره، وآيات سواه من الأنبياء صلوات الله عليهم.

ولما جاء به صلى الله عليه وسلم إلى الناس — وكانوا أفصح الفصحاء ومصاقع الخطباء — تحدّاهم على أن يأتوا بمثله، وأمهلهم طول السنين، فلم يقدرُوا، وذلك مذكور في القرآن في مواضع كثيرة كما في سورة البقرة ٢٣ (==)

قلنا: الذى تحقّق عندنا هو أن وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم كثيرة^(١):

(==) ٢٤ وكما فى سورة هود ١٣ و ١٤، وكما فى سورة الإسراء ٨٨ وكما فى سورة الطور ٣٣ و ٣٤

وقد اعتنى بذلك العلم الأئمة الأعلام، وأفردوه بالتصنيف:

فمنهم القاضى أبوبكر محمد بن الطيب المعروف بالباقلانى أو ابن الباقلانى (المتوفى سنة ٤٠٣ هـ) فإنه صنف كتابه "إعجاز القرآن" وطبع عدة مرات، آخرها فى دار المعارف بمصر، بتحقيق الأستاذ أحمد صقر.

ومنهم: أبو سليمان حمد بن محمد البستى الخطابى (٣١٩ - ٣٨٨ هـ) وكتابه "بيان إعجاز القرآن" طبع فى دارالمعارف بمصر.

ومنهم: أبو الحسن على بن عيسى الرّماني المعتزلى (٢٧٦ - ٣٨٤ هـ) وكتابه "النكت فى إعجاز القرآن" مطبوع مع كتاب الخطابى، وكذا طبع فى الهند أيضا من الجامعة المليية بدلهى.

ومنهم: الفاضل الرافعى البصرى صنف كتابه "إعجاز القرآن".

وذكر العلماء هذا المبحث فى كتبهم أيضا، كالإمام القاضى عياض المالكي فى كتابه: الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، والأمير اليماني فى "الطراز" والشيخ عبد القاهر الجرجاني فى "دلائل الإعجاز"، والسيوطى فى "الإتقان" (فى النوع ٦٤) والزر كشى فى البرهان (٢: ٩٠ النوع ٣٨) والعزيرى المعروف بشيذلة فى "البرهان" والسيد الألوسى فى "روح المعانى" فى الفائدة السابعة فى مقدمة تفسيره (٢٧: ١) وغيرهم ممن يطول ذكرهم وفى هذا القدر كفاية لمن رام الاستخبار.

(١) هذا هو السبيل الأقوم، والمنهج الأسلم: أن وجوه الإعجاز كثيرة، وليس الإعجاز بمنحصر فى وجه واحد من الوجوه بل هو بالمجموع من الوجوه. قال الزر كشى فى البرهان (٢: ١٠٦): وهو قول أهل التحقيق: أن الإعجاز وقع بجميع ماسبق من الأقوال، لا بكل واحد عن انفراد؛ فإنه جمع ذلك كله، فلامعنى لنسبته إلى واحد منها بمفرده، مع اشتماله على الجميع هـ.

وقد تكلم المصنف رحمه الله على وجوه خمسة حسب ماتيسر له، وستكلم — إن شاء الله تعالى — فى خاتمة المبحث على وجوه آخر.

١- منها: الأسلوب البديع — لأن العرب كانت لهم عِدَّة ميادين يرْكضون فيها جَوَادَ البلاغة^(١)، ويتسابقون فيها مع أقرانهم، ألا وهي القصائد والخطب والرسائل والمَحاورات؛ ولم يكونوا يعرفون غير هذه الأصناف الأربعة، ولم يكن عندهم قدرة على إبداع أسلوب سواها؛ فإبداع أسلوب غير أساليبهم على لسان النبي الأُمى صلى الله عليه وسلم عِيْنُ الإعجاز^(٢).

٢- ومنها: الإخبار عن القِصص الماضية وأحكام الملل السابقة، على وجه يصدِّق الكتب السابقة بدون تعلُّم من أحد^(٣).

(١) قوله: ميادين جمع الميدان: فسحة مُتَّسعة، مُعَدَّة لسباق الخيل ولعبها. وقوله: يرْكضون: من ركض رَكْضاً من باب نصر وركض الفرس برجليه: استحثه للعدو. وقوله: الجواد: أى سريع الجرى، يقال: "فرس جواد" أى: سريع.

(٢) وحاصل ما قاله: أن العرب كانت لهم أساليب معهودة في الكلام المعتاد: من القصائد والخطب، والرسائل، والمحاورات؛ وكان قد ينافر شعراء هم بعضهم بعضاً، ولهم في ذلك مواقف معروفة، وأخبار مشهورة، وآثار منقولة مذكورة، وكانوا يتنافسون على الفصاحة والخطابة والذلاقة، ويتبجحون بذلك ويتفاخرون بينهم، ولكن لا يقدرّون على غير هذه الأوضاع الأربعة، وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه، ومباين لهذه الطرق، فإبداع أسلوب جديد، بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يُعلم عجز الخلق عنه، على لسان نبينا صلى الله عليه وسلم، وكان معلوماً من حاله صلى الله عليه وسلم أنه كان أمياً لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ، عِيْنُ الإعجاز.

(٣) أى: كان معروفاً من حاله صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن يعرف شيئاً من كتب الأقدمين، وأقاصيصهم وأنبائهم وأحكام مللهم، ثم أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور، ومهمات السير، من حين خلق الله آدم عليه السلام إلى حين مبعثه حكاية من شهدها وحضرها.

ونحن نعلم ضرورة أن هذا ممال سبيل إليه، إلا عن تعلم، فنتيقن أنه لا يصل (=)

٣- ومنها: الإخبار بالأحوال الآتية؛ فكلما وجد شيء منها على طبق ذلك الإخبار، ظهر إعجاز جديد^(١).

(==) إلى علم ذلك إلا من جهة الوحى. قال الباقلانى فى كتاب التمهيد (ص ١٣٠) والوجه الآخر: ما انطوى عليه القرآن من قصص الأولين وسير الماضين، وأحاديث المتقدمين وذكر ماشجر بينهم وكان فى أعصارهم مما لا يجوز حصول علمه إلا لمن كثر لقاءه لأهل السير، ودرسه لها وعنايته بها، ومجالسته لأهلها، وكان ممن يتلو الكتب، ويستخرجها، مع العلم بأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن يتلو كتابا ولا يخطه بيمينه، وأنه لم يكن ممن يُعرف بدارسة الكتب، ومجالسة أهل السير، والأخذ عنهم، ولا لقي إلا من لقوة، ولا عرف إلا من عرفوه، وأنهم يعرفون دأبه ودينه ومنشأه وتصرفه فى حال إقامته بينهم وطمعنه عنهم، فدل ذلك على أن المنجبر له عن هذه الأمور هو الله سبحانه علام الغيوب هـ.

(١) أى: فى القرآن شئ كثير من الإخبار عن الغيوب المستقبلية، والصدق والإصابة فى ذلك كله، ولا يقدر عليه البشر، ولا سبيل لهم إليه. فمن ذلك ما وعد الله تعالى نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على الأديان كلها، بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (سورة التوبة ٣٣) ففعل ذلك، وقال فى أهل بدر: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ (سورة الأنفال ٧) ووفى لهم بما وعد.

وجميع الآيات التى يتضمنها القرآن من الإخبار عن الغيوب يكثُر جدا، وإنما أردنا أن ننبّه بالبعض على الكل، وإن شئت المزيد فاقراً قوله تعالى: (٣٠: ١-٤): ﴿أَلَمْ غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ فصدق الله وعده، وقال تعالى (٢٧: ٤٨): ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ وقوله تعالى (٩٤: ٩٥): ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وقوله تعالى (٦٠: ٣): ﴿قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُوا أَبْنَاءَنَا﴾ وقوله تعالى (٨٣: ٩): ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا، وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ وما إلى ذلك من الآيات الكثيرة، فصدق الله تعالى وعده فى ذلك كله.

فكلما ظهر شئ على طبق ذلك الإخبار، ظهر إعجاز جديد، وفرح المؤمنون وازدادوا إيمانا.

٤- ومنها: الدرجة العليا من البلاغة التي ليست من مقدور البشر^(١)

(١) قال الإمام حمد بن سليمان الخطابي في إعجاز القرآن: وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله، لأمر:

منها: أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية، وبأوضاعها التي هي ظروف المعاني، والحوامل لها. ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظم، التي بها يكون ابتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل والأحسن من وجوهها، إلى أن يأتوا بكلام من مثله؛ وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى قائم به، ورباط لهما ناظم، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح، ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه؛ ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً، وأشدّ تلاوفاً وتشاكلاً من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقى إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها، وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام: فإما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه، فلم توجد إلا في كلام العليم القدير، الذي أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً (من مقدمة إعجاز القرآن للباقلاني ص ١٦)

وكلام الخطابي هذا كما ترى كلام حسن رائع، ونريد أن نزودك ببيان أقوى وأحسن وأوضح من ذلك ليتضح به الأمر اتّضاح الشمس، ويتبين به بيان الصبح، فاعلم أن الإمام الأكبر الشيخ محمد قاسم النانوتوي رحمه الله (مؤسس دارالعلوم بدوبند) تكلم في كتابه "براهين قاسمية" (جواب تركي به تركي) بالتفصيل التام، فهذا غيض من فيضه معرباً وملخصاً، قال:

البلاغة: شيء غير الفصاحة، فالبلاغة: حسن الانطباق؛ والفصاحة: الحسن الذاتي، وبيانه: أن الكلمات حلّة للمعاني المودعة فيها، والحل قد تلائم الأجسام وقد لا تلائمها، وقد تكون من أعلى الثياب، وقد تكون من أدناها، ومن الثياب ما هو مطرز منقش بأنواع من التطريز، ومنها ما هو عارٍ عن هذه الوشائ والتجملات الزائدة؛ فملائمة الألفاظ للمعاني هي المعبرة بحسن الانطباق، (==)

(==) وكون الكلمات من أعلاها يُعبر بالحسن الذاتى، وما زيد على الثرب بعد النسخ من التطريز والتلوين يُعدّ من قسم " البديع".

فَيَعْلَم من له فهمٌ ثاقب، وذهنٌ وقاد أن صوغَ الكلام وإنشاء المضامين شئٌ غيرُ الفصاحة والبلاغة، فليس الكلام الفصيح البليغ اسماً للمضامين الصرفة والإنشاء المحض، وكذا لا تسمى المواد الجيدة المربوطة المهيبة بالفصاحة والبلاغة، بل يُعنى أولاً بالانطباق المذكور، فإذا تمّ فالبلاغة فى ذروة كمالها؛ وكذا إذا لوحظ فى الكلام حسنُ الألفاظ حق ملاحظته، فالفصاحة فى قِمة البراعة. واعلم أن " الانطباق" اسم للنسبة والربط بين الألفاظ والمعانى، وأنت تعلم أن النسبة تكون دائماً أخفى من الطرفين، فلا بد أن يكون علم الانطباق أخفى من علم المعانى والألفاظ؛ فإذا كانت المعانى مكنونة مستورة، غيرَ جليلة فالانطباق يزداد خفاءً وغموضاً، وبهذا السبب ربما يسبق الذهن إلى اتحاد المعنى بين الألفاظ ويتبادر الفهم إلى الترادف، والحقيقة غير هذا.

وخذ لك مثلاً يتضح به الأمر: أن الناس يزعمون " الحسن" و"الجمال" بمعنى واحد، والحال أن الجمال صفة قائمة بالجميل، ويدل عليه مادة (ج م ل) ومنها: " الجملة" لكلام مؤلف، فالجمال وصف ينشأ من التام الأعضاء المتناسبة؛ و" الحسن" اسم لصفة مفعولية يتصف بها صاحب الجمال بحسب إدراك الناس الجمال فيه، وإطلاعهم له بذلك، فالحسنُ لقب يعطيه الآخرون، والدليل على ذلك قولهم: "استحسنه" و"حَسُنَ عنده" فعلم أنهما ليسا بمترادفين، بل الحسن يتفرع على الجمال؛ فإن كان فى فهم الناظرين اعوجاج، ويكون طبعهم غير سليم، فلا يستبعد أن لا يشعروا بالحسن مع وجود الجمال، أو يتحكمون بالحسن مع فقدان الجمال.

والشعراء والأدباء الذين تمهروا فى اللغة والأدب، واطلعوا على دقائقهما، وشهدت لهم الأعداء على نبوغهم وعبقريتهم، يستعملون أحدهما مكان الآخر من غير مبالاة، ويحسبونهما مترادفين.

وبالجملة فإن الشعراء والأدباء والبلغاء قاطبة لم يصلوا إلى حد من (==)

ونحن إذ جئنا بعد العرب الأولين، لانستطيع أن نصِلَ إلى كُنْهها^(١)؛

(==) حدود البلاغة، ولو حصل لأحاد منهم تمييز عدة كلمات فإنه لا يعرف الانطباق التام ألبتة، ولا يعرف مواقع الاستعمال؛ على أن هذا العلم لا ييسر على الوجه الأتم إلا لمن اطلع على الأمور الآتية:

الأول: يكون علمه محيطاً بجملة المعلومات.

والثاني: يكون حاوياً ومستحضراً جميع كلمات لغة واحدة على الأقل.

والثالث: تكون حقائق الأشياء منكشفة عنده كشفاً جلياً كانكشاف

المحسوسات لدى عينين.

والرابع: يكون مطلعاً بالوضع الكلى والجزئى، والإجمالى والتفصيلى.

ومعنى معرفة الوضع الكلى والإجمالى: أن يكون عارفاً بالهيئة الاجتماعية للحروف الهجائية حق معرفتها، ويكون مطلعاً على الهيئة الاجتماعية للنسب والإضافات التى توجد فى المعانى، ووضع الواضع اللفظ مقابلاً لها، بأحسن الوجوه وأتم المعرفة.

ومعنى معرفة الوضع الجزئى والتفصيلى: أن يعرف مدلولات الحروف

الهجائية ومصاديقها ومسقط إشاراتها هـ (ص ١١٧-١٢٣)

فانصف أيها القارئ الكريم! من يقدر من البشر على جملة هذه الأمور؟ وهل تجتمع لأحد من البشر هذه الشرائط بأسرها؟! فكيف يكون كلامه فى الدرجة العليا من البلاغة؟ وكيف يقدر على الانطباق التام مع العلم الناقض؟ هل هذا الاشارة للعلام الغيوب، الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات والأرض وهو السميع العليم.

(١) قال الباقلانى رحمه الله فى إعجاز القرآن (ص ١٧١): قد بينا أنه لا يتهيأ لمن كان لسانه غير العربية، من العجم والترك أن يعرفوا إعجاز القرآن، إلا بأن يعلموا أن العرب قد عجزوا عن ذلك، فإذا عرفوا هذا — بأن علموا أنهم قد تحدّثوا إلى أن يأتوا بمثله، وقُرّعوا على ترك الإتيان بمثله، ولم يأتوا به — تبين أنهم عاجزون عنه، وإذا عجز أهل ذلك اللسان، فهم عنه أعجز.

وكذلك نقول: إن من كان من أهل اللسان العربى — إلا أنه ليس يبلغ (==)

ولكنَّ القدرَ الذى نعلمه، هو أن استعمال الكلماتِ الجَزَلَةِ^(١) والتركيباتِ العَذْبَةِ مع اللطافة وعدم التكلف، كما نجد ذلك فى القرآن العظيم، لانجد مثله فى أى قصيدة من قصائد المتقدمين والمتأخرين، وهذا أمر ذوقى يدركه — كما ينبغى — المهرةُ من الشعراء، ولا يتذوقه العامة.

وكذلك نعلم أن فى أنواع التذكير الثلاثة، والجدل مع الكفار تُكسَى المطالبُ فى كل موضع حسب أسلوب السورة، لباساً جديداً طريفاً، تقصُر يدُ المتطاول عن ذيله.

وإن تعمّر إدراك ذلك على أحد فليتأمل فى إيراد قصص الأنبياء فى سورة الأعراف وهود والشعراء، ثم لينظر إليها فى الصافات، ثم ليقرأ هذه القصص

(=) فى الفصاحة الحد الذى يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام، ووجوه تصرف اللغة، وما يعدّونه فصيحاً بليغاً بارعاً من غيره — فهو كالأعجمى: فى أنه لا يمكنه أن يعرف إعجاز القرآن، إلا بمثل ما بينا أن يعرف به الفارسى الذى بدأنا بذكره، وهو ومن ليس من أهل اللسان سواء، فأما من كان قد تناهى فى معرفة اللسان العربى ووقف على طُرُقِها ومذاهبها — فهو يعرف القدر الذى ينتهى إليه وسع المتكلم من الفصاحة ويعرف ما يخرج عن الوسع، ويتجاوز حدود القدرة — فليس يخفى عليه إعجاز القرآن، كما يميز بين جنس الخطب والرسائل والشعر، وكما يميز بين الشعر الجيد والردى، والفصيح والبديع، والنادرو البارع والغريب.

وهذا كما يميز أهل كل صناعة صنعتهم، فيعرف الصيرفى من النقد ما يخفى على غيره، ويعرف البزاز من قيمة الثوب وجودته ووراءته ما يخفى على غيره اه
وقال السكاكى فى المفتاح (ص ٢٢١): واعلم أن شأن الإعجاز عجيب يُدرَك، ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك، ولا يمكن وصفها، وكالملاحاة. ومدرَك الإعجاز عندى هو الذوق، ليس إلا. وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين: — يعنى علمى المعانى والبيان — نعم للبلاغة وجوه متلثمة، ربما تيسرت إمطة اللثام عنها، أما نفس وجه الإعجاز فلا اه.

(١) الجَزَلُ من الكلام: القوى الفصيح الجامع.

نفسها في الذاريات، ليتجلى له الفرق.

وكذلك الحال في ذكر تعذيب العصاة وتنعيم المطيعين، فقد ذكر ذلك في كل مقام بأسلوب جديد؛ وهكذا تخصُّم أهل النار بعضهم مع بعض، يتجلى في كل مقام في صورة جديدة؛ والكلام في هذا يطول^(١).

وكذلك نعلم أيضًا أن رعاية مقتضى الحال الذي تفصيله في علم المعاني، واستعمال الاستعارات والكنيات، التي تكفل ببيانها علم البيان، مع مراعاة حال المخاطبين الأميين الذين يجهلون هذه الصناعات، لا يتصور كل ذلك أحسن مما يوجد في القرآن العظيم؛ وذلك لأن المطلوب في القرآن الكريم أن تُودَّع في المخاطبات المعروفة^(٢) التي يعرفها كل أحد من الناس، نكتة رائعة مفهومة عند العامة، مرضية عند الخاصة؛ وهذا الأمر كالجمع بين الضدين، ليس من مقدور البشر، والله على كل شيء قدير، والله دُرُّ الشاعر حيث يقول: (٣)

يزيدك وجهه حُسنًا إذا ما زدته نظرًا

٥ - ومنها: وجه لا يتيسر فهمه لغير المتدبرين في أسرار الشرائع؛ وذلك: أن العلوم الخمسة^(٤) نفسها تدل على أن القرآن نازل من عند الله تعالى، لهداية بني آدم؛ كما أن عالم "الطب" إذا نظر في "القانون"^(٥) ولا حظَّ تحقيقه وتدقيقه في (١) أي: ذكر الأمثلة، ثم شرحها وبيانها مما يطول، ولا حاجة إلى ذلك، بل تأمل أنت فإنه:

يزيد على طول التأمل بهجة كأن العيون الناظرات صياقل
(٢) الحوار العام (٣) والشعر من كلام أبي نواس.

(٤) التي تقدم ذكرها في الباب الأول.

(٥) "القانون" في الطب للشيخ الرئيس أبي علي حسين بن عبد الله المعروف بابن سينا، المتوفى سنة ٤٢٨ هـ قال صاحب إرشاد المقاصد: هو أجمع الكتب وأبلغها لفظًا، وأحسنها تصنيفًا، وبالجملة: يحتوي على خلاصة كتب الأقدمين، وينفرد بالمباحث العلمية، والفوائد الحكمية اهـ.

بيان أسباب الأمراض وعلاماتها، ووصف الأدوية وخواصها، لا يشك أن المؤلف كامل في صناعة الطب؛ كذلك إذا علم العالم بأسرار الشرائع الأشياء التي ينبغي تلقينها للناس لتهديب نفوسهم، ثم يتأمل في العلوم الخمسة، يعلم قطعاً: أن هذه الفنون قد وقعت موقعها، بحيث لا يتصور أحسن منه:

والشمسُ الساطعةُ تدل بنفسها على نفسها
فإن كنت في حاجة إلى الدليل فلا تؤلّ وجهك عنها^(١)

(١) ليس هذا بشعر، إنما هو ترجمة للشعر الفارسي :

آفتاب آمد دلیل آفتاب گرد لیت باید از وی رومتاب
أى: دليل الإعجاز ليس بخارج من القرآن، بل القرآن نفسه يدل على إعجازه؛ ففكر في القرآن، وتدبر معناه، تتيقن بكونه معجزاً.

ختام البحث: قد ورد في الحديث المرفوع: أن القرآن " لا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه " (المشكوة ص ١٨٦) أى: لا يصل العلماء إلى الإحاطة بكنهه، ولا تزول لذة قراءته واستماعه من كثرة التكرار والترداد، ولا تنفنى ولا تنصرم نكاته؛ ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذا مبحث إعجاز القرآن، ليس لوجوهه حصر، ولا يحيط بها عالم، وكم ترك الأول للآخر؛ وقد ذكر المصنف الإمام منها وجوهاً خسة، ونحن نزيد عليها عدة:

١- قال الإمام الخطابي في إعجاز القرآن: وفي إعجاز القرآن وجه آخر، ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعة بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن، منظوماً ولا منشوراً، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها من الوجيب والقلق، وتغشاها من الخوف والفرق ما تقشعر منه الجلود، وتنزع له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها. فكم من عدو للرسول، صلى الله عليه وسلم، من رجال العرب وفتاكها، أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن، فلم (==)

(==) يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمتهم، ويدخلوا في دينه؛ وصارت عداوتهم موالاته، وكفرهم إيماناً هـ.

ثم أورد من المثل التاريخية والآيات القرآنية ما هو مصداق لما وصفه من أمر القرآن، وكان ذلك خاتمة الكتاب وراجع البرهان (١٠٦:٢)

٢- قال شيخ مشايخنا الإمام العلامة المحدث الكبير، حافظ العصر الشيخ محمد أنور شاه الكشميري — قدس سره — (= يتيمة البيان ص ٥٢-٧٣): القرآن الكريم كله معجز، وإعجازه عندى بحسب مفرداته، ومركباته، وفي ترتيب كلماته، وفي مقاصده، وحقائقه؛ فهو معجز لفظاً، وتركيباً، وترتيباً، وأغراضاً، ومقاصد، وعلومًا، وحقائق.

فالمراد بإعجازه بحسب المفردات: أنه يختار ويعبر بكلمة مفردة لا يمكن أوفى منه بالحققة، وأوفى بالمقام، وأوفق بالغرض، بحيث لو تظاهر الثقلان على أن يوردوا مكانه لفظاً غيره أقرب إلى الحقيقة، وأنطق بالغرض لخابوا وندموا. وخذلك مثالا: كانت العرب عامتهم ينكرون البعث بعد الموت، وكان للموت عندهم في الجاهلية أسماء، حسب مداركهم ومشاعرهم، وكانوا لا يجوزون إطلاق "التوفى" على الموت، لأن عندهم لابقاء للجسد ولا للروح، ومعنى "التوفى": استيفاء الشيء كاملاً، وتحصيله سالمًا، من غير أن ينقص منه شيء؛ ولم يكن عندهم حقيقة الموت كما عند الإسلام، فكيف يعبرون عنها بالتوفى؟ فاستعمل القرآن هذه الكلمة، وهداهم إلى أن الموت استيفاء لافناء، وأيضًا، أشار بهذه الكلمة إلى أن المتوفى حق المتوفى. وقال أيضًا: وفي لفظ "المتوفى" — إذا كان مسندًا إلى الله تعالى — لطيفة أخرى، وهى: أنه أشار به إلى أن المتوفى أصبح ملكًا للباقي، فلا يبيد ولا يفنى (وراجع تحية الإسلام ص ٣٣)

ولما كان البدن في سائر الناس غير متوفى لحضرته تعالى، وكان سيدنا عيسى عليه السلام ممن توفى الله بدنه مع روحه، زاد في آل عمران بعده: ﴿وَرَأَيْتُكَ إِلَى﴾. وأما إعجازه من جهة التركيب والترتيب: فهو أن القرآن ينتقى تركيباً للمفردات من عدة تراكيب، يسعها المقام، إلا أن القرآن يختار تركيباً (=)

(=) لا يمكن أبلاغ منه، وأوفى بالحقيقة، وأجدى فى صدع الغرض، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ وكان حق العبارة فى بادئ الرأى: وجعلوا الجن شركاء لله، ولكن غرض التنزيل أنهم جعلوا لله شركاء، يعنى: جعلوا شركاء للإله الواحد، الذى هو أغنى عن الشريك، ففى التقديم "لله" استعظام بقبح ما ارتكبه فهذه سفاهة، ثم إنهم لم يقتنعوا بهذا بل جعلوا شركاء ه الجن، الذى هو مخلوق ضئيل من مخلوقاته، فهذا استعظام آخر لما فعلوه، فالغرض الذى سيق له الكلام لايتأتى إلا بالتركيب الذى اختاره التنزيل العزيز.

وأما المراد من الإعجاز باعتبار المقاصد: مايلزم المخاطبين تعلّمها، والانصباغ بصبغها، والمعاملة بها مع المخلوق، بحسب ما يقتضيها كما يذكره علماء الأمة فى شرح أسماء الله الحسنى (وراجع الفصل الثانى من الباب الأول من تعليقاتنا على احتياج الناس إلى صفاته تعالى) وقال: ولتكن مقاصد القرآن مافيه ذكر المبدأ والمعاد، وصلاح معاش العباد وفلاح الدنيا ونجاة الآخرة.

وأما المراد من الإعجاز باعتبار الحقائق: الأمور الغامضة التى قصرت عن إدراكها العقول والأفهام، ولا تكتنفها الأفكار والأوهام، وما برحت فيها العقول مختلفة، والجوانب متجاذبة، فلم ينقسم فيها نزاعهم وجدالهم، كمسئلة: "خلق أفعال العباد" تحيرت فيها العقلاء، فالقرآن يختار فى أمثال هذه المشكلات المعضلة تعبيراً لا يتصور أوفى منه فى كشف حقائقها ه.

وبعد: فإن العلماء قد اختلفوا فى القدر المعجز من القرآن، وذكر طرفاً من الآراء الإمام الباقلانى فى إعجاز القرآن (ص ٣٧٦ - ٣٩٢) والزر كشى فى البرهان (٢: ١٠٨ - ١٠٩) بأن أقل ما يعجز عنه من القرآن السورة، قصيرة كانت أو طويلة، أو ما كان بقدرها.

وقال شيخنا العلامة الكشميرى: المعجز عندى: أقصر آية من الآيات؛ نعم الإعجاز فى هذا القدر أغمض، وربما تخفى على الكملة البارعين، ولا يتجلى مرماها إلا على من كابد فى الخوض على المعانى، وغاص فى بحر البيان والمعانى، وراعى سائر الجهات التى سلكتها فى مسلك الإعجاز ه.

الباب الرابع

فى

بيان مناهج التفسير وتوضيح الاختلاف الواقع فى
تفاسير الصحابة والتابعين.

طوائف المفسرين:

لِيُعلم أن المفسرين عدَّةُ أصناف:

- جماعة قصدوا رواية آثار مناسبة للآيات، سواء كان حديثاً مرفوعاً أو موقوفاً أو مقطوعاً^(١) أو خبراً إسرائيلياً — وهذا طريق المحدثين.
- وفرقة قصدوا تأويل آيات الصفات والأسماء؛ فمالم يُوافق منها مذهب التنزية^(٢) صرفوها عن الظاهر، وردوا على استدلال المخالفين ببعض الآيات — وهذا طريق المتكلمين.
- وقوم صرفوا عنايتهم إلى استنباط الأحكام الفقهية، وترجيح بعض المجتهديات على بعض، والجواب عن تمسك المخالفين — وهذا طريق الفقهاء الأصوليين.
- وجمعٌ أوضحوا إعراب^(٣) القرآن ولغته، وأوردوا الشواهد من كلام العرب فى كل باب موفورة تامة — وهذا منهج النحاة اللغويين.
- وطائفة يذكرون نكات المعانى والبيان بيانا شافياً، ويتفاخرون فى ذلك الباب — وهذا طريق الأدباء.

(١) الحديث المرفوع: ما رُفِعَ إلى النبى صلى الله عليه وسلم . والحديث الموقوف: ما انتهى إلى الصحابى، والحديث المقطوع: ما انتهى إلى التابعى.

(٢) مذهب التنزية: هو مذهب أهل السنة والجماعة فى مسألة الصفات المتشابهات.

(٣) قوله إعراب القرآن يعنى نحو القرآن وصرفه.

● واهتم بعضهم برواية القراءات الماثورة عن شيوخهم، فلم يدعوا دقيقا ولا جليلا في هذا الباب إلا جاؤا به — وهذه صفة القراء.

● وبعضهم يُطلقون اللسان بنكات متعلقة بعلم السلوك أو علم الحقائق^(١) بأدنى مناسبة — وهذا مشرب الصوفية.

وبالجملة: فالمجال واسع، ويقصد كلٌّ منهم تفهيمَ معانى القرآن الكريم، وخاض فى فن من الفنون، وتكلم على قدر فصاحته وفهمه، واتخذ مذهب أصحابه نصبَ عينيه^(٢)؛ ولأجل ذلك اتسع مجالُ التفسير اتساعاً لا يُحدُّ قدره، وصُنِّفت كتب كثيرة لا يحصرها عدد^(٣).

(١) علم السلوك: هو علم الإحسان، وعلم الحقائق كالغاية له.

(٢) أى: يلاحظ فى البحث مذهب أصحابه.

(٣) التفسير: علمٌ يُعرف به كتاب الله تعالى: ويُقدر على فهم معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه؛ وكان استمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان، وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج إلى معرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ.

وقد أكثر الناس فيه من الموضوعات؛ ما بين مختصر ومبسوط، وكلهم يقتصر على الفن الذى يغلب عليه، وكل إناء يترشح بما فيه، وخاض كل منهم فيما شغف به فؤاده.

فالمحدث: سرد روايات الحديث وطرق التحديث، كابن جرير فى جامع البيان، والسيوطى فى الدر المنثور، والبخارى والترمذى والحاكم فى تفاسيرهم. و"المتكلم": جال فى "كلامه" كالإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازى (المتوفى سنة ٦٠٦) فى تفسيره: "مفاتيح الغيب" المعروف بالتفسير الكبير، بيد أنه أودع فيه جواهر غالية من مهمات شتى.

والفقيه: دخل فى غمار الاستنباط، واستخراج الأحكام، كالقرطبى، والجصاص الرازى الحنفى فى: "أحكام القرآن". وابن العربى المالكى فى "أحكامه"، وكالقاضى محمد ثناء الله الحنفى الفانى فتى (١١٤٣ - ١٢٢٥ هـ) (==)

وقصد جماعة منهم إلى جمع ذلك كله في تفاسيرهم^(١) فمنهم من تكلم بالعربية، ومنهم من تكلم بالفارسية، واختلفوا في الاختصار والإطناب، ووسَّعوا أذيال العلم.

(=) في: "التفسير المظهرى"

والنحوى: غاص في وجوه إعرابه، وطرق تراكيبه، كأبى حيان في بحره ونهره، والزجاج (المتوفى سنة ٣١١هـ) في كتابه: "معانى القرآن" وعلى بن أحمد الواحدى أبو الحسن (المتوفى سنة ٤٦٨هـ) في تفسيره الكبير "البيسط" أكثر فيه من الإعراب والشواهد؛ وفي "الوسيط" وهو مختار من البسيط؛ وفي "الوجيز".

والبيانى: أُلِعَ بإظهار إعجازه في إطنابه وإيجازه، وإبداء المحاسن فى مقاطعه ومطالعه، والتنبيه ببدائعه وروائعه، كالإمام جابر الله محمود بن عمر الزمخشري، صاحب القدم فى اللغة والأدب والنحو والمعانى، فى تفسيره "الكشاف عن حقائق التنزيل" (وتوفى سنة ٥٣٨هـ) وكالإمام أبى السعود فى "إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم"

والمنطقى: همَّه فى ترتيب الأقيسة، والبحث عن الرسوم والحدود، كما فعله ابن سينا فى تفسير سورة الإخلاص.

والفيلسوف العصرى: مكابدته فى إبراز ماحوته الآيات الربانية من الأسرار الكونية، والبدايع العنصرية، والغرائب الطبيعية؛ كالشيخ الجوهري الطنطاوى فى "جواهر القرآن".

والقصاص: مدَّ الباع إلى القصص، كالثعلبى أحمد بن محمد صاحب: "الكشف والبيان"، و"العرائس فى قصص الأنبياء" (توفى سنة ٤٢٧هـ)

فكلّ: نَفَضَ جرابه ووطابه، وفرَّغ كَنائِته وجعابه، فجزاهم الله تعالى عنا خير

الجزاء.

(١) وأجمع التفاسير المتداولة، روايةً ودرايةً، وفقهاً وحديثاً، وفصاحةً وبلاغةً، وإعراباً ولغةً، وكلاماً وتصوفاً: روح المعانى لمفتى بغداد السيد المحقق (=)

ما من الله به على في علم التفسير

وقد حصل للفقيه — بحمد الله تعالى وتوفيقه — مناسبة في كل فن من هذه الفنون ، وأحطت بمُعظم أصولها، وبجملة صالحة من فروعها، وفُزْتُ بنوع من التحقيق والاستقلال في كل باب من أبوابها، بوجه يُشبه الاجتهاد في المذهب^(١) وألقى في خاطري من بحر الجود الإلهي فنان أو ثلاثة من فنون التفسير، سوى الفنون المذكورة سالفاً^(٢)، وإن سألتني عن الخبر الصدق فانا تلميذ القرآن العظيم بلا واسطة^(٣)؛ كما أني أُوَيْسِي^(٤) في

(=) العلامة أبي الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي الحنفي (المتوفى سنة ١٢٧٠هـ) فله منة على رقاب العلماء بتفسيره هذا؛ وأما بالأردية: فبيان القرآن للإمام المحدث العارف بالله الشيخ محمد أشرف على التهانوي. وأما بالفارسية: ففتح العزيز، لمسند الديار الهندية الإمام عبد العزيز الدهلوي، فرحمهم الله تعالى جميعاً، وجزاهم عنا خير الجزاء.

(١) مرتبة الاجتهاد في المذهب: أن يقدر على استخراج الأحكام من الأدلة على مقتضى القواعد التي قررها أستاذه، ويسمح له أن يخالف أستاذه في بعض أحكام الفروع، ولكن لا بد من التقليد في قواعد الأصول (رد المحتار ١: ٥١)

(٢) وسيتكلم المصنف على هذه الفنون في الفصل الرابع والخامس من نفس الباب.
(٣) أي: فهِمَهُ بغير استعانة وتوسط أحد.

(٤) نسبة إلى أويس بن عامر القرنى، من بنى مراد: أحد النساك العبّاد المقدمين، من التابعين؛ أصله من اليمن، أدرك حياة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره، فوفد على عمر بن الخطاب، وشهد وقعة صفين مع علي رضي الله عنه، ويرجح الكثيرون أنه قتل فيها. ويُحكى أنه استفاد من روحه صلى الله عليه وسلم من غير واسطة من اليمن؛ وكان قد عاقه عائق من القدوم في جنبه صلى الله عليه وسلم؛ فمعنى النسبة حينئذ: أن المصنف رحمه الله استفاد من روحه صلى الله عليه وسلم بغير توسط أحد من الناس، كما استفاد أويس من روحه صلى الله عليه وسلم من غير واسطة. وحديث فضله في صحيح المسلم في كتاب فضائل الصحابة (١٦: ٩٤)

الاستفادة من روح النبي صلى الله عليه وسلم، وكما أنى مستفيد من الكعبة
الحسنة^(١) بدون واسطة، وكذلك متأثر بالصلاة العظمى^(٢) بغير واسطة:
ولو أن لي في كل منبت شجرة لسانا لما استوفيت واجب حمده
وأرى من اللازم أن أكتب كلمات عديدة في هذه الرسالة عن كل فن من هذه
الفنون^(٣).

الفصل الأول

في

بيان الآثار المروية في تفاسير أصحاب الحديث، وما
يتعلق بها

قسمان من أسباب النزول

ومن جملة الآثار المروية في كتب التفسير بيان سبب النزول ؛ وأسباب
النزول على قسمين:

الأول: أن تقع حادثة يُمَحَّص بها إيمان المؤمنين ونفاق المنافقين، كما وقع
ذلك في غزوتَي أُحُدٍ والأحزاب ، فأنزل الله تعالى مدح أولئك وذم هؤلاء،

(١) الكعبة الحسنة: كعبه شريف والمسلمون يستفيدون منها بواسطة الصلاة؛
والكَمَلَة من الرجال يستفيدون منها بلا واسطة؛ والحسنة تأنيث الحَسَنِ .

(٢) الصلوات المفروضة والنافلة ، وكذا الصلوات الخمس كلها أفراد الصلاة
المطلقة الكاملة، وهى الصلاة العظمى التى تتمثل فى عالم المثال، فإن المعنويات
لها أجسام هناك، والمسلمون يتأثرون بها بواسطة أفرادها ، وأما الذين بلغوا أقصى
مدارج السالكين فيتأثرون بها بدون واسطة أيضاً، وإليه الإشارة فى قوله صلى الله
عليه وسلم: "جعلت قرّة عينى فى الصلاة" ولكن مهما بلغ الرجل المنازل لا يستغنى
عن أفرادها: وإليه الإشارة فى قوله صلى الله عليه وسلم: "أرحنا بها يا بلال".

(٣) يعنى من الفنون مناهج المفسرين. ثم اعلم أن الإمام تحدّث فى الفصل الأول
عن تفسير المحدثين وفى الفصل الثانى عن بقية الأصناف .

ليكون فَيَصْلًا بين الفريقين^(١)؛ وتقع في أثناء ذكر الحادثة تعريضات كثيرة بخصوصياتها^(٢)؛ فيجب أن تُشْرَحَ الحادثة بكلام مختصر ليتَّضح على القارئ سياق الكلام.

والثاني: أن يكون معنى الآية تاماً بعموم صيغتها، من دون حاجة إلى معرفة القصة التي هي سبب النزول، لأن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب؛ والقدماء من المفسرين قد ذكروا تلك الحادثة بقصد استيعاب الآثار المناسبة للآية، أو بقصد بيان ما صدق عليه عموم الآية؛ وليس من الضروري ذكر هذا القسم.

معنى قولهم: "نزلت الآية في كذا"

وقد تحقّق لدى الفقير: أن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم كثيراً ما كانوا يقولون: "نزلت الآية في كذا" ويكون غرضهم تصوير ما صدقت عليه الآية، أو ذكر بعض الحوادث التي تشتملها الآية بعمومها، سواء تقدّمت القصة على نزول الآية أو تأخرت عنه، إسرائيلية كانت القصة أو جاهلية أو إسلامية؛ تنطبق على جميع قيود الآية أو بعضها، والله أعلم.

فَعَلِمَ من هذا التحقيق: أن للاجتهاد في هذا القسم^(٣) مدخلاً، وللقصص المتعددة هناك مجالا؛ فمن استحضر هذه النكتة يستطيع أن يعالج اختلاف أسباب النزول بأدنى تأمل^(٤).

أمور في التفسير لا طائل تحتها

ومن جملة ذلك: تفصيل قصة وقع في نظم القرآن تعريض بأصلها،

(١) أى: ليكون القرآن حاكماً بين الفريقين؛ والفيصل: الحاكم والقاضى، ومن يَفْصِلُ بين الأمور، وانجمع فيأصل.

(٢) أى: ويقع في غضون هذا من التعريضات الكثيرة بخصوصيات تلك الحادثة.

(٣) أى في الصورتين المذكورتين، وهما: تصوير ما صدقت الخ.

(٤) تقدم الكلام حول أسباب النزول، مستوعبا في الفصل الثالث من الباب الثانى.

(٥) أى: من جملة الآثار المروية في كتب التفسير.

فِيستَقْصِي^(١) المفسرون تفاصيلها من أخبار بني إسرائيل أو من كُتُب السِّيرِ
فِيذكرونها بجميع أجزائها.

وههنا أيضًا تفصيل: إن كانت الآية تشتمل على تعريض بالقصة، بحيث يتوقف
العارف باللغة هناك، ويبحث عنها، فذكرها من وظيفة المفسر؛ وما كان خارجا
منها — مثل ذكر بقرة بني إسرائيل: أذكرا كانت أم أنثى؟ ومثل بيان كلب
أصحاب الكهف: هل كان أبقع^(٢) أم أحمر؟ — فذكره ممالا يعنيه؛ وكانت
الصحابة رضى الله عنهم يكرهونه، ويعذونه من قبيل تضييع الأوقات.

القدماء ربما يفسرون على سبيل الاحتمال
وليُحفظ ههنا أيضًا نكتتان:

الأولى: أن الأصل في هذا الباب^(٣) إيراد القصص المسموعة، كما رُوِيَتْ:
من غير تصرف عقلي فيها، وأما طائفة من قدماء المفسرين فيضعون ذلك
التعريض نصب أعينهم، ويفرضون له محملا مناسباً، ويبينونه على سبيل
الاحتمال، فيشتبه الأمر على المتأخرين. ولما لم تكن أساليب البيان منقحة في
ذلك العصر، فربما يشتبه التفسير على سبيل الاحتمال بالتفسير مع الجزم،
فيذكرون أحدهما مكان الآخر؛ وهذا أمر اجتهدى، وللنظر العقلي فيه مجال،
وركض جياذ القيل والقال هناك ممكن.

ومن حفظ هذه النكتة فإنه يستطيع أن يحكم حكماً فضلاً في كثير من
مواضع الاختلاف بين المفسرين؛ ويمكن أن يعلم في كثير من مناظرات
الصحابة رضى الله عنهم: أنها ليست آرائهم القطعية، بل هي بُحُوث علمية،
يتداولها المجتهدون فيما بينهم.

وعلى هذا المحمل يُحمِل العبد الضعيف قول ابن عباس رضى الله

(١) استَقْصَى الأمر: بلغ أقصاه في البحث عنه.

(٢) بَقَعَ الجلدُ بَقْعًا: خالط لونه لونًا آخر، فهو أَبْقَعُ، والبَشْرَةُ بَقْعَاءُ.

(٣) أى في بيان القصص في تفسير الآيات.

عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَافِينَ﴾^(١) :
 "لا أجد في كتاب الله إلا المسح، لكنهم أبوا إلا الغسل"^(٢) فالذي يفهمه
 الفقير: أنه ليس هذا بذهاب منه إلى وجوب المسح، وليس فيه جزم بحمل
 الآية على ركنية المسح؛ بل الذي ثبت عند ابن عباس رضي الله عنهما هو
 الغسل؛ ولكنه يقررها إشكالاً، ويبدى احتمالاً، ليرى كيف يطبق علماء
 عصره في هذا التعارض؟ وأى مسلك يسلكونه؟ فزعم الذي لم يطلع على
 حقيقة محاورات السلف هذا قول ابن عباس رضي الله عنه، وعدّه مذهبه
 حاشاه! ثم حاشاه!!

النقل عن بني إسرائيل دسيسة دخلت في ديننا

النكتة الثانية: هي أن النقل عن بني إسرائيل دسيسة^(٣) دخلت في ديننا بعد
 ما كانت قاعدة: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم"^(٤) مقررّة؛ فلزم لأجل
 ذلك أمران:

الأول: أن لا يُرتكب النقل عن أهل الكتاب إذا وجد في سنة نبينا صلى الله
 عليه وسلم بيان لتعريض القرآن؛ مثلاً حينما وجد لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا

(١) سورة المائدة ٦

(٢) والأثر في روح المعاني (٦: ٧٧) ومعناه: أن ظاهر الكتاب يوجب المسح
 على قراءة الجهر، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يفعلوا إلا الغسل؛
 ففي كلامه هذا إشارة إلى أن قراءة الجهر مؤولة متروكة الظاهر بعمل رسول الله
 صلى الله عليه وسلم والصحابة رضي الله عنهم (روح المعاني)

(٣) الدسيسة: ما أُكْنِ من المكر والعداوة.

(٤) رواه البخاري كما في المشكوة رقم الحديث ١٥٥ كتاب الإيمان باب
 الاعتصام الخ، وفيه النهي عن تصديق أهل الكتاب فيما لا يعرف صدقه من قبل
 الكتاب والسنة؛ وفي النقل عنهم، من غير ردة عليهم؛ تصديق لهم فلا يجوز،
 ولكن الناس تساهلوا في هذا الباب.

سَلِيمَنَ ، وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا، ثُمَّ أَنَابَ ﴿١﴾ محمِل في السنة النبوية —
وهو قصة ترك "إن شاء الله" والمؤاخذه عليه — فأى حاجة إلى ذكر قصة
صخر المارد؟! (٢).

(١) سورة ص ٣٤

(٢) قال الألوسي: أظهر ما قيل في فتنته عليه السلام، أنه قال: لأطوفنَّ الليلة على
سبعين امرأة، تأتي كل واحدة بفارس، يجاهد في سبيل الله تعالى، ولم يقل: إن شاء
الله، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة، وجاءت بشق رجل، وقد روى ذلك
الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة مرفوعاً، وفيه: "فو الذي نفس محمد بيده! لو قال:
إن شاء الله، لجاهدوا فرسانا" اهـ (روح المعاني ٢٣: ١٩٨) ثم ذكر الألوسي قصة
صخر المارد، ورد عليه، فاشبع، فراجع.

ونزودك بمثال آخر: قال الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبُؤُ الْخَصْمِ﴾ (الآيات ٢١-
٢٦ من سورة ص) فقد ذكر أصحاب التفاسير في قصة ابتلاء داود عليه السلام
قصصاً وأحاديث أكثرها كذب وزور، بل بعضها مما تقشعر منه الجلود؛ ونحن
نجد في الحديث الصحيح محملاً حسناً لذلك، فأى حاجة إلى هذه الخرافات؟!
فقد خرج الحاكم في المستدرک (٢: ٤٣٣) عن ابن عباس رضي الله تعالى
عنهما قال: ما أصاب داود ما أصابه بعد القدر، إلا من عجب، عجب به من نفسه،
وذلك أنه قال: يارب! ما من ساعة من ليل ولا نهار، إلا وعابد من آل داود يعبدك:
يصلى لك، أو يُسبح، أو يكبر؛ وذكر أشياء، فكره الله ذلك، فقال: يا داود! لم يكن
إلا بي، فلولا عوني ما قويت عليه؛ وجلالي! لأَكِلَنَّكَ إلى نفسك يوماً، قال: يارب!
فاخبرني به، فأصابته الفتنة ذلك اليوم اهـ هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.
وإن شئت تفصيل المرام فراجع "الفوائد العثمانية على ترجمة القرآن"
لمحقق العصر العلامة شبير أحمد العثماني صاحب فتح الملهم وراجع فيض الباري
(٣٨: ٣٩-٤٠)

أقول: كراهية الله تعالى قوله عليه السلام هذا ككراهيته تعالى قول موسى
عليه السلام في ملائمتي بني إسرائيل، لما سأله رجل: هل تعلم أحدا أعلم منك؟
فقال عليه السلام: لا! فأوحى الله تعالى إليه: بلى! عبدنا خضر أعلم منك الخ.

والثانى: أن يُتَكَلَّم بقدر اقتضاء التعريض نظراً إلى قاعدة: "الضرورى يتقدَّر بقدر الضرورة" ^(١)، لِيُمْكِن تصديقه بشهادة القرآن، وَلِيَكْفَ لسانه عن الزيادة عليه ^(٢).

تفسير القرآن بالقرآن

وههنا نكتة لطيفة إلى الغاية ، لابد من معرفتها، وهى: أنها قد تُذكر فى القرآن العظيم قصة ^(٣) فى موضع بالإجمال، وفى موضع آخر بالتفصيل ، كما قال تعالى: ﴿إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ^(٤) ثم قال بعد ذلك: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ: إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ^(٥) فهذا القول الثانى هو القول الأول بنوع من التفصيل ، فيمكن أن يُعلَم به تفسير ذلك الإجمال، وَيَرُكَّض من الإجمال إلى التفصيل ^(٦).

(١) القاعدة الحادية والعشرون فى شرح القواعد الفقهية للشيخ الزرقاء (ص ١٣٣)

(٢) أى: إن مست الحاجة إلى النقل عن بنى إسرائيل، فليكن النقل بقدر الضرورة، ولتكن قاعدة: "الضرورى يتقدَّر بقدر الضرورة" ملحوظا عند التفسير، ليتمكن لنا تصديقه بشهادة القرآن.

(٣) يعنى مضموناً، لا قصة معروفة فقط .

(٤) سورة البقرة ٣٠

(٥) سورة البقرة ٣٣

(٦) قال الزركشى فى البرهان (٢: ١٧٥): قيل: أحسن طريق التفسير: أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل فى مكان فقد فُصِّل فى موضع آخر، وما اختصر فى مكان فإنه قد بُسِّط فى آخر؛ فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له؛ فإن لم يوجد فى السنة يُرجع إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن، ولما أعطاهم الله تعالى من الفهم العجيب؛ فإن لم يوجد ذلك يُرجع إلى النظر والاستنباط بالشروط السابق اهـ

وراجع تفسير ابن كثير (١: ٣) وكما قال الله تعالى فى سورة مريم: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ وأشار إلى وجه إثارة الإخفاء فى آل عمران فقال ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ أى: دعا عند مريم، حينما رأى عندها رزقا، وسأل عنه، وأجابت بأنه من (==)

ومثلاً: ذَكَرَ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ قِصَّةَ سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِجْمَالاً، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا، وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾^(١)، وَذَكَرَتْ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ تَفْصِيلاً، فَقَالَ تَعَالَى ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾^(٢)، الْآيَةُ، فِي هَذِهِ الْمَقُولَةِ بَشَارَةٌ تَفْصِيلِيَّةٌ، وَتِلْكَ الْمَقُولَةُ بَشَارَةٌ إِجْمَالِيَّةٌ؛ فَمِنْ ثَمَّ اسْتَنْبَطَ الْعَبْدُ الضَّعِيفُ أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ: ”وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ، مُخْبِرًا بِأَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ“ وَهَذَا كُلُّهُ دَاخِلٌ فِي حَيْزِ الْبَشَارَةِ، لَيْسَ بِمَتَعَلِّقٍ بِمُحْذَوْفٍ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ السُّيُوطِيُّ، حَيْثُ قَالَ^(٣): ”فَلَمَّا بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ لَهُمْ: ”إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، بِأَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ“ وَاللَّهُ أَعْلَمُ“^(٤).

وَجِهَ اخْتِلَافُ السَّلَفِ فِي شَرْحِ غَرِيبِ الْقُرْآنِ

وَكَيْفَ يَخْرُجُ الْمُفَسِّرُ مِنَ الْعَهْدَةِ فِي ذَلِكَ؟

وَمِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ: ^(٥) شَرْحُ الْغَرِيبِ؛ وَمَبْنَاهُ عَلَى تَتَبُّعِ لُغَةِ الْعَرَبِ، أَوْ التَّفْطُنِ^(٦) بِسِيَاقِ الْآيَةِ وَسَبَاقِهَا^(٧) وَمَعْرِفَةِ مَنَاسِبَةِ اللَّفْظِ بِأَجْزَاءِ الْجُمْلَةِ الَّتِي وَقَعَ هَوْفُهَا؛ فَهِيَ أَيْضًا لِلْعَقْلِ مَدْخُلٌ، وَلِلْاِخْتِلَافِ مَجَالٌ؛ لِأَنَّ الْكَلِمَةَ

(=) عِنْدَ اللَّهِ، فَدَعَا رَبَّهُ لِلْوَلَدِ سِرًّا، إِخْفَاءً عَنْ مَرْيَمَ، وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْذَارِيَّاتِ: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ: تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وَفَسَّرَهُ فِي سُورَةِ هُودٍ فَقَالَ: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ: تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ؛ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ﴾ وَنَحْوُ ذَلِكَ كَثِيرٌ.

(١) سُورَةُ مَرْيَمَ ٢١ — (٢) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ ٤٩ — (٣) تَفْسِيرُ الْجَلَالِينَ ص ٥١

(٤) وَلَكِنْ ذَهَبَ عَامَّةُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِكَوْنِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ آيَةً لِلنَّاسِ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ: مَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّاسَ يَسْتَدْلُونَ بِهِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى. فَحِينَئِذٍ لَا وَجْهَ لاسْتِنْبَاطِ الْمُصَنِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَتَذَكَّرَهُ.

(٥) أَيْ مِنَ الْآثَارِ الْمَرْوِيَةِ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ. (٦) تَفْطُنَ بِهِ أَيْ تَنْبَهُ لَهُ

(٧) السِّيَاقُ — بِالْيَاءِ التَّحْتَانِيَّةِ — هُوَ الْقَرِينَةُ الْلاحِقَةُ، وَالسَّبَاقُ — بِالْبَاءِ الْمَوْحَدَةِ — هُوَ الْقَرِينَةُ السَّابِقَةُ.

الواحدة تأتي في لغة العرب لمعانٍ شتى، وتختلف العقول في تتبع استعمالات العرب، والتفطنُ بمناسبة السابق واللاحق؛ ولهذا اختلفت أقوال الصحابة والتابعين رضى الله عنهم في هذا الباب، وسلك كل منهم مسلكاً.

فلا بد للمفسر المنصف: أن يَرِثَ شرح الغريب مرتين:

- مرة في استعمالات العرب حتى يعرف: أى وجه من وجوها أقوى وأرجح
- ومرة أخرى في مناسبة السابق واللاحق، حتى يعلم: أى الوجهين أولى وأقعد^(١) بعد إحكام المقدمات، وتتبع موارد الاستعمال، وتفحص الآثار.

استنباطات العبد الضعيف في شرح الغريب

وقد استنبط الفقير في هذا الباب استنباطات طازجة^(٢) لا يخفى لطافتها إلا

على المتعسف^(٣) غليظ الطبع، مثلاً:

- قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾^(٤) حملته على معنى: "تَكَاوُفُ الْقَتْلَى"، ومشاركة بعضهم مع بعض في حكم واحد" لئلا يحتاج في تفسير قوله تعالى ﴿الْأُنثَى بِالْأُنْثَى﴾ إلى مؤونة^(٥) النسخ، ولا يضطر إلى توجيهات تضحلُ بأدنى التفات^(٦).

(١) الأَقْعَدُ والقعيد: الأقرب (٢) الطازج: الجديد الحديث، معرب تازَه

(٣) المتعسف ضد المنصف، من تعسف فلاناً: ظلمه.

(٤) سورة البقرة ١٧٨ (٥) المَوْنَةُ: القوت، والتبعة والمشقة.

(٦) قال الإمام في الحجة (٢: ٤٣٢) قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ: الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ الآية نزلت في حَيَيْنٍ من أحياء العرب، أحدهما أشرف من الآخر، فقتل الأَوْضَعُ من الأشرف قتلى، فقال الأشرف: لنقتلن الحر بالعبد، والذكر بالأنثى، ولنضاعفن الجراح؛ ومعنى الآية — والله أعلم — أن خصوص الصفات لاتعتبر في القتل، كالعقل والجمال، والصغر والكبر، وكونه شريفاً أو ذا مال، ونحو ذلك؛ وإنما تُعتبر الأسماء والمظان الكلية: فكل امرأة مكافئة لكل امرأة؛ ولذلك كانت ديات النساء واحدة، وإن تفاوتت الأوصاف وكذلك الحريكافى الحر، والعبد يكافى العبد؛ (=)

• وكذلك حملت قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾^(١) على معنى: "يسألونك

عن الأشهر" أى أشهر الحج؛ فقال تعالى: ﴿هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾^(٢)

• وهكذا قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ

لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾^(٣) أى : لأول جمع الجنود ، لقوله تعالى: ﴿وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ

(==) فمعنى القصاص: التكافؤ، وأن يجعل اثنان فى درجة واحدة من الحكم، لا يُفْضَلُ أحدهما على الآخر، لا القتل مكانه ألبتة (وفى قوله هذا أعنى: لا القتل الخ رد على التفسير المشهور) ثم أثبتت السنة أن المسلم لا يقتل بالكافر، وأن الحر لا يقتل بالعبد، والذكر يقتل بالأنثى؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم قتل اليهودى بجارية؛ وفى كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أقيال همدان: ويقتل الذكر بالأنثى اهـ.

وقال الإمام المصنف فى المسوى: ولكم فى القصاص حياة أى لكم فى اعتبار المماثلة والمساواة بقاء. وقال: والأظهر عندى: أن وجهة الآية أن القصاص هو المماثلة والمساواة، والمعنى: كتب عليكم اعتبار المماثلة، ولا يعتبر الفقر والغنى والشرف والاتضاع اهـ. وقال فى فتح الرحمن: لازم كرده شد بر شما قصاص يعنى اعتبار المماثلة، فالإمام المصنف فسر الآية بفكرة الحرية والمساواة، ولم يفسرها أحد بهذا التفسير ممن سبقه وراجع إلهام الرحمن (١: ٢٢٤) فحينئذ لا حاجة إلى ما قيل: إن الحر بالحر بيان وتفسير لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ فدل على أن رعاية التسوية فى الحرية والعبدية معتبرة. وإيجاب القصاص على الحر بقتل العبد إهمال لرعاية التسوية فى ذلك المعنى، ومقتضى هذا أن لا يقتل (العبد) إلا (بالعبد) ولا تقتل (الأنثى) إلا (بالأنثى) فخالف الظاهر للقياس والإجماع، ومن سلم هذا منا ادعى نسخ الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ لأنه لعمومه نَسَخَ اشتراط المساواة فى الحرية والذكورة المستفادة منها، وأورد عليه فى روح المعانى فراجع (٢: ٥٠).

(١) سورة البقرة ١٨٩ (٢) وقد تقدم تفسير آخر للآية أحسن من هذا فى الفصل

الرابع من الباب الثانى فى مبحث الزيادة فى الكلام، فراجع.

(٣) سورة الحشر ٢

حَشْرَيْنَ ﴿١﴾ وقوله تعالى: ﴿وَحَشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ﴾ ﴿٢﴾؛ وهذا أوفق بقصة بنى النضير، وأقوى في بيان المنّة ﴿٣﴾.

اختلاف المتقدمين والمتأخرين في معنى "النسخ"

مما أوجب الاختلاف في عدد الآيات المنسوخة

ومن جملة ذلك ﴿٤﴾: بيان الناسخ والمنسوخ؛ وينبغي أن تُعرف هنا نكتتان: الأولى: أن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم كانوا يستعملون "النسخ" لغير المعنى الاصطلاحي المعروف بين الأصوليين؛ ومعناهم قريب من المعنى اللغوي الذى هو "الإزالة".

فمنى النسخ عندهم: إزالة بعض أوصاف الآية المتقدمة بالآية المتأخرة، سواء كان ذلك ببيان انتهاء مدة العمل بها، أو بصرف الكلام عن المعنى المتبادر إلى غير المتبادر، أو ببيان كون قيد من القيود مُقْحَما، أو بتخصيص عام، أو ببيان الفارق بين المنصوص وبين ما قيس عليه ظاهرا، أو ما أشبه ذلك. وهذا باب واسع، وللعقل فيه مجال، وللاختلاف فيه مساع، ولهذا أبلغوا الآيات المنسوخة إلى خمس مائة آية ﴿٥﴾.

ربما يُجعل الإجماع علامة للنسخ

والثانية: أن الأصل في بيان النسخ بالمعنى الاصطلاحي هو معرفة تاريخ النزول؛ ولكنهم ربما يجعلون إجماع السلف الصالح، أو اتفاق جمهور العلماء

(١) سورة الشعراء ٣٦ (٢) سورة النمل ١٧

(٣) وما قال الإمام المصنف هو الظاهر في معنى الآية، قال الألوسى (٤٠: ٢٨) وقيل: المعنى أخرجهم من ديارهم لأول جمع، حشره النبي صلى الله عليه وسلم، أو حشره الله عز وجل لقتالهم، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن قبلُ قَصْدَ قِتَالِهِمْ، وفيه من المناسبة لوصف العزة ما لا يخفى؛ ولذا قيل: إنه الظاهر اهـ.

(٤) أى: من جملة الآثار المروية في كتب التفسير.

(٥) وقد تقدم الكلام على هذا مستوعبا في فاتحة الفصل الثانى من الباب الثانى فراجع.

على شيء علامة للنسخ ، فيقولون به؛ وقد فعل ذلك كثير من الفقهاء؛ ويمكن أن يكون في مثل هذه المواضع، ما تصدق عليه الآية غير ما ينطبق عليه الإجماع^(١) وبالجملة: ففي الآثار التي تنبئ عن النسخ غمْر عظيم، يصعب الوصول إلى غوره^(٢).

أمور أخر يُدْكَرُونَهَا فِي التَّفَاسِيرِ

وللمحدثين أشياء أخر خارجة عن هذه الأقسام، يوردونها أيضًا في تفاسيرهم، كمناظرة الصحابة رضى الله عنهم في مسئلة واستشهادهم بآية، أو تمثيلهم بآية من الآيات، أو تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم آية من الآيات، أو رواية حديث يوافق الآية في أصل معناها، أو طريق التلفظ بالنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم أو الصحابة رضى الله عنهم أجمعين.

الفصل الثانى

فِي

بقية لطائف هذا الباب

الكلام حول استنباط الأحكام:

ومن جملة ذلك: ^(٣) استنباط الأحكام — وهذا الباب واسع جدًا، وللعقل مجال فسيح في الاطلاع على فحَاوى الآيات، وإيماءاتها، واقتضاءاتها؛ ^(٤)

(١) أى: فلا ينبغي صنيعهم هذا.

(٢) الغمْر: الماء الكثير ومعظم البحر، والجمع غمار وغمور. والغور من كل شيء؛ قَعْرُهُ وغمْمُقه، يقال: سَبَرَ غوره: تبين حقيقته وسره.

(٣) أى من جملة فنون التفسير ومناهجه .

(٤) الفَحْوَى: أن يفهم الكلام حال المسكوت عنه بواسطة المعنى الحامل على الحكم، مثل " لَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ " يفهم منه حرمة الضرب بطريق الأولى، والإيماء: أن يكون أداء المقصود بعبارات بإزاء الاعتبارات المناسبة، كالتقييد (==)

والاختلاف بحذفه^(١) حاصل فيه؛ وقد ألقى الله تعالى في رُوع الفقير حَصْرَ الاستنباطات في عشرة أقسام^(٢)، والترتيب فيما بينها؛ وتلك المقالة ميزان عظيم لوزن كثير من الأحكام المستنبطة^(٣).

(==) بالوصف والشرط يدلان على عدم الحكم عند عدمهما عند الإمام الشافعي رحمه الله، والاقتضاء : أن يُفهم الكلام حال المسكوت عنه بواسطة لزومه للمستعمل فيه عادة أو عقلاً أو شرعاً، كقوله: "بعثُ" يقتضى سَبَقَ الملك شرعاً.

(١) بحذفه أى بأسره جمع الحذف والحذفور: الجانب والناحية .

(٢) وهى: ١- ما صُرِّح فيه بثبوت الحكم، للموضوع له عينا، وسبق الكلام لأجله

٢ و ٣ و ٤- ما عُدِم فيه أحد القيود الثلاثة ٥- الفحوى ٦- الاقتضاء ٧- الإيماء ٨ -

الدرج فى العموم ٩- الاستدلال بالملازمة أو المنافاة ١٠- القياس .

(٣) قال الإمام المصنف فى حجة الله البالغة فى باب كيفية فهم المراد من الكلام،

من المبحث السابع (٣٠٣: ١) اعلم أن تعبير المتكلم عما فى ضميره، وفهم السامع

إياه، يكون على درجات مترتبة فى الوضوح والخفاء:

وأعلاها: ما صُرِّح فيه بثبوت الحكم للموضوع له عينا، وسبق الكلام لأجل

تلك الإفادة، ولم يحتمل معنى آخر.

ويتلوه: ما عُدِم فيه أحد القيود الثلاثة.....

ثم يتلوه: ما أفهمه الكلام من غير توسط استعمال اللفظ فيه؛ ومعظمه ثلاثة:

الفحوى: وهو أن يُفهم الكلام حال المسكوت عنه، بواسطة المعنى الحامل

على الحكم، مثل: ﴿لَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ﴾ يفهم منه حرمة الضرب بطريق الأولى.

ومثل: "من أكل فى نهار رمضان وجب عليه القضاء" يفهم منه أن المراد نقض

الصوم، وإنما خص الأكل لأنه صورة تتبادر إلى الذهن.

والاقتضاء: وهو أن يُفهمها بواسطة لزومه للمستعمل فيه عادة أو عقلاً أو

شرعاً، (كقولهم) اعتقتُ وبعثُ، يقتضيان سبقَ ملك (وقولهم): "مشى" يقتضى

سلامة الرجل (وقوله): "صلى" يقتضى أنه على الطهارة.

والإيماء: وهو أن أداء المقصود يكون بعبارات بإزاء الاعتبارات (==)

التوجيه في تفسير القرآن الكريم

ومن جملة ذلك: ^(١) التوجيه — وهو فن كثير الشُّعَب ^(٢)، يستعمله الشراح في شرح المتون، ويُختبر به ذكائهم، ويظهر به تفاوت درجاتهم. وقد تكلم الصحابة رضى الله عنهم — وإن لم تكن أصول التوجيه منقحة في عصرهم — في توجيه الآيات الكريمة، وأكثروا منه. وحقيقة التوجيه: أنه إذا وقعت صعوبة في فهم كلام مؤلف، يقف الشارح هناك، فيحلُّ تلك الصعوبة.

(=) المناسبة، فيقصد البلغاء مطابقة العبارة للاعتبار المناسب الزائد على أصل المقصود، فيُفهم الكلام الاعتبار المناسب له، كالتقييد بالوصف أو الشرط يدلان على عدم الحكم عند عدمهما، حيث لم يقصد مشاكلة السؤال ولا بيان الصورة المتبادرة إلى الأذهان ولا بيان فائدة الحكم؛ وكمفهوم الاستثناء والغاية والعدد. وشرط اعتبار الإيماء: أن يجرى التناقض به في عرف أهل اللسان، مثل: على عشرة إلا شئى (ثم يقول) إنما على واحد؛ يحكم عليه الجمهور بالتناقض، وأما ما لا يدركه إلا المتعمقون في علم المعانى فلا عبرة به. ثم يتلوه: ما استدل عليه بمضمون الكلام؛ ومعظمه ثلاثة: الدرج في العموم والاستدلال بالملازمة أو المنافاة والقياس وهو: تمثيل صورة بصورة في علة جامعة بينهما اهـ.

وهذه هي عشرة أقسام الاستنباطات. الأول: التى هي أعلاها؛ والثانى و الثالث والرابع: ما عدم فيه أحد القيود الثلاثة، والخامس: الفحوى، والسادس: الاقتضاء، والسابع: الإيماء، والثامن: الدرج فى العموم، والتاسع: الاستدلال بالملازمة أو المنافاة، والعاشر: القياس.

وراجع للتفصيل حجة الله البالغة فإننا لخصنا كلامه حذار التطويل.

(١) أى: من جملة فنون التفسير ومناهجه التوجيه، وقد تكلم الإمام المصنف حول التوجيه في خاتمة الفصل الثالث من الباب الثانى فراجع.
(٢) جمع شُعْبَة: غصن الشجر، والمراد: كثير الأنواع.

ولمالم تكن أذهانُ قُرَّاءِ الكتابِ في مرتبة واحدة، لم يكن "التوجيه" أيضًا في مرتبة واحدة؛ فالتوجيه بالنسبة إلى المبتدئين غيرُ التوجيه بالنسبة إلى المنتهين: إذ ربما يخطر ببال المنتهى صعوبةُ فهم، فيحتاج إلى حلها، والمبتدى غافل عنها، بل لا يقدر أن يُحيط بها؛ وكثير من الكلام يستصعبه المبتدى، ولا يحصل في ذهن المنتهى شيء من الصعوبة هناك؛ فالذى أحاط بجوانب العقول، يراعى حالَ جمهور القراء، ويتكلم على قدر عقولهم^(١).

فعمدة التوجيه:

- فى آيات الجدَل: تحرير مذاهب الفِرَق الباطلة، وتنقيح وجوه الإلزام.
- وفى آيات الأحكام: تصوير صورة المسئلة،^(٢) وبيان فوائد القيود، من الاحتراز أو غيره.
- وفى آيات التذكير بآلاء الله: تصوير تلك النعم وبيان مواضعها الجزئية.
- وفى آيات التذكير بأيام الله: بيان ترتُّب بعض القصص على البعض، وإيفاء حق التعريض الذى يَرُدُّ فى أثناء سرِّدِ القصة.
- وفى التذكير بالموت وما بعده: تصوير تلك الأمور، وتقرير تلك الحالات.

أنواع التوجيه:

ومن فنون التوجيه:

- ١ - تقريب ما كان بعيدا عن الفهم، بسبب عدم الألفة به.
- ٢ - ودفع التعارض بين الدليلين، أو التعريضين، أو فيما بين المعقول والمنقول.
- ٣ - والتفريق بين الملتبسَيْن.
- ٤ - والتطبيق بين المختلفين.
- ٥ - وبيان صدق الوعد الذى أُشير إليه فى الآية.

(١) فيكون شرحه وتفسيره أرجى بالقبول وأفيد للعامة.

(٢) أى: يصورها بالأمثلة الجزئية، ويبين حاصلها.

٦- وبيان كيفية عمل النبي صلى الله عليه وسلم بما أمر به في القرآن العظيم .
وبالجملة: فالتوجيه كثير في تفسير الصحابة؛ ولا يُقضى حَقُّه حتى يُبين
المفسر وجه الصعوبة مفصلاً، ثم يتكلم في حل الصعوبة بالتفصيل ، ثم يَزِنُ
تلك الأقوال وزناً عَدَلاً.

غلو المتكلمين

وأما غلو المتكلمين في تأويل المتشابهات وبيان حقيقة الصفات، فليس
هذا من مذهبي، بل مذهبي مذهب مالك والثوري وابن المبارك وسائر
المتقدمين؛ وهو: إمرار المتشابهات على ظواهرها، وترك الخوض في تأويلها (١)

(١) نُقل عن أم سلمة رضي الله عنها أنها سُئِلت عن " الاستواء " فقالت: الاستواء
معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة؛ وكذلك سُئِلَ
عنه مالك، فأجاب بما قالته أم سلمة، إلا أنه زاد فيها: وأن مَنْ عَادَ إلى هذا السؤال
أضرب عنقه؛ وكذلك سُئِلَ سفيان الثوري، فقال: أفهم من قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى
الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ما أفهم من قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾؛ وسئل الأوزاعي عن
تفسير هذه الآية فقال ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كما قال، وإنى لأراك ضالاً.
وسئل ابن راهويه عن الاستواء: أقائم هو أم قاعد؟ فقال: لا يَمَلُّ عن القيام حتى
يقعد، ولا يَمَلُّ عن القعود حتى يقوم، وأنت إلى غير هذا السؤال أحوج!

قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح: وعلى هذه الطريقة مضى صدر الأمة
وساداتها، وإياها اختار أئمة الفقهاء وقادتها، وإليها دعا أئمة الحديث وأعلامه
ولأحد من المتكلمين من أصحابنا يصدف عنها ويأبأها (البرهان ٢: ٧٨ و ٧٩).
وقال الإمام المصنف في مکتوبه إلى الشيخ معين الدين السندهي: والتحقيق:
أن في هذه المسئلة ثلاث مقامات:

أحدها: البحث عما يصح إثباته للحق (تعالى شأنه) توقيفاً، وعما لا يصح
إثباته توقيفاً، والحق: أن الله تعالى أثبت لنفسه جهة "الفوق" (مثلاً) وأن
الأحاديث متظاهرة على ذلك، وقد نقل الترمذي ذلك عن الإمام مالك ونظائره.
وثانيها: أن العقل هل يجوز كون مثل هذا الكلام حقيقة أو يوجب حملة على المجاز؟
والحق في هذا المقام: أن العقل يوجب أنه ليس على ظاهره في نفس الأمر. (==)

الجدال في القرآن

والنزاع في الأحكام المستنبطة، وإحكام مذهب نفسه، وهذم مذهب الآخرين، والاحتياال لدفع الأدلة القرآنية، كل ذلك ليس بصحيح عندي، وأخشى أن يكون ذلك من قبيل "التدارؤ بالقرآن"^(١) وإنما اللازم أن يطلب مدلول الآيات، ويتخذ مذهباً له، سواء ذهب إليه الموافق أو المخالف^(٢).

لغة القرآن

وأما لغة القرآن فينبغي أخذها من استعمالات العرب الأولين، وأن (==) وثالثها: أنه هل يجب تأويله، أو يجوز وقفه على الظاهر من غير تعيين المراد؟ والحق: أنه لم يثبت في حديث صحيح أو ضعيف أنه يجب تأويله، ولأنه لا يجوز استعمال مثل تلك العبارات في الأمة اهـ (مجموع مكاتيبه ص ٢٧) وقال في القول الجميل في الفصل الثالث: وأما ماورد من الاستواء على العرش والضحك، وإثبات اليمين، فنؤمن به على الجملة، ثم نكل تفصيله إلى الله تعالى، ونعلم ألبتة أنه ليس كمثل اتصافنا بالتحيز وغيره؛ بل ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، ونعلم أنه شيء ثابت لله تعالى كما أثبت في محكم كتابه اهـ. وقد تكلمنا على مسألة الصفات في فاتحة الفصل الثاني من الباب الأول فأفرغنا الجهد في التبيين والتحقيق فراجعه.

(١) التدارؤ: التدافع، تدارؤاً: تدافعا في الخصومة ونحوها؛ ويحرم التدارؤ بالقرآن بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما هلك من كان قبلكم بهذا: ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه" رواه أحمد (١٨٥: ٢) والبيهقي في شعب الإيمان (= مشكوة المصابيح رقم الحديث ٢٣٧)

(٢) قال الإمام المصنف في الحجة (١: ٤١٤) في شرح قوله صلى الله عليه وسلم: إنما هلك من كان قبلكم بهذا: ضربوا كتاب الله بعضه ببعض: أقول: يحرم التدارؤ (التدافع) بالقرآن، وهو أن يستدل واحد بآية، فيرده آخر بآية أخرى، طلباً لإثبات مذهب نفسه، وهدم وضع صاحبه، أو ذهاباً إلى نصرة مذهب بعض الأئمة على مذهب بعض، ولا يكون جامع الهمة على ظهور الصواب؛ والتدارؤ بالسنة مثل ذلك اهـ

يعتمد كلياً على آثار الصحابة والتابعين رضى الله عنهم.

نحو القرآن

وقد وقع فى نحو القرآن خلل عجيب، وهو أن طائفة من المفسرين اختاروا مذهب سيويه، فيؤولون كل ماخالف مذهبه، وإن كان التأويل بعيداً؛ وهذا لا يصح عندى، بل ينبغى اتباع الأقوى، والأوفق بالسياق والسباق، سواء كان مذهب سيويه أو مذهب الفراء^(١).

وقد قال عثمان بن عفان رضى الله عنه فى مثل قوله تعالى: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾^(٢): "سَتَقِيمُهَا الْعَرَبُ بِالسَّنَتِهَا"^(٣)؛ وتحقيق هذه

(١) هو يحيى بن زياد الأسلمى الديلمى، أبو زكريا، المعروف بالفراء: إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب، ولد بالكوفة وتوفى فى طريق مكة سنة ٢٠٧ هـ وكان مع تقدمه فى اللغة فقيهاً متكلماً، عالماً بأيام العرب وأخبارها، وكان يميل إلى الاعتزال.

(٢) سورة النساء ١٦٢ ومثله فى اللحن قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرَانِ﴾ (٣) طه ٦٣ وكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾ (المائدة ٦٩)
(٣) قال عثمان رضى الله عنه: إن فى القرآن لحناً سقيمته العرب بالسنتها؛ وقد استشكله الآلوسى رحمه الله، فقال: الحق إن ذلك لا يصح عن عثمان، والخبر ضعيف، مضطرب منقطع والذى أراه أن رواة هذا الخبر سمعوا شيئاً، ولم يُتَقْنَوْهُ، فحرفوه، فلزم الإشكال، وحلّ الداء العضال. وهو ما روى بالسند عن عبد الله بن عبد الأعلى، قال: لما فرغ من المصحف أتى به عثمان فنظر فيه، فقال: "أحسنتم وأجملتم أرى شيئاً سقيمته بالسنتا" وهذا لا إشكال فيه لأنه عُرِضَ عليه عقيب الفراغ من كتابته، فرأى فيه ما كُتِبَ على غير لسان قريش، ثم وفى بذلك عند العرض والتقويم، ولم يترك فيه شيئاً، ولا أحسبك فى مرية من ذلك. نعم يبقى ما روى بسند صحيح على شرط الشيخين عن هشام بن عروة عن أبيه قال سألت عائشة رضى الله عنها عن لحن القرآن، عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرَانِ﴾ وعن قوله ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ، وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ وعن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ (=

الكلمة عندى: أن مخالفة التعبيرات المشهورة أيضًا تعبير صحيح؛ وكثيرا ما يتفق للعرب الأولين: أن يجرى على ألسنتهم فى أثناء الخطب والمحاورات ما يخالف القاعدة المشهورة؛ ولما نزل القرآن الكريم بلغة العرب الأولين ، فلا عجب: أن جاءت ” الياء “ فى موضع ” الواو “ أحيانا، أو وقع المفرد مقام الثنية، أو ورد المؤنث مقام المذكر؛ فالمحقق عندى: أن يفسر ” والمقيمين الصلاة “ بمعنى المرفوع ، والله أعلم.

علم المعانى والبيان

وأما المعانى والبيان فهو^(١) علم حادث بعد انقراض عصر الصحابة والتابعين رضى الله عنهم. فما كان منه مفهوما فى عرف جمهور العرب فهو على الرأس والعين؛ وأما ما كان منه مخفيا لا يدركه إلا المتعمقون من أرباب الفن ، فلا نسلم أنه مطلوب فى القرآن الكريم.

إشارات الصوفية

وأما إشارات الصوفية واعتباراتهم فإنها ليست فى حقيقة الأمر من علم التفسير؛ بل يحدث عند استماع القرآن الكريم أشياء فى قلب السالك^(٢)، وتتولد تلك الأشياء فى قلبه بين النظم القرآنى، وبين الحالة التى يتصف بها، أو بين المعرفة التى يملكها؛ كمثّل رجل يسمع قصة ليلى والمجنون، فيتذكر عشيقته، ويستعيد الذكريات التى كانت بينه وبينها^(٣).

(=) آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ؟ فقالت: يا ابن أخى! هذا عمل الكتاب، أخطأوا فى الكتاب اه ثم أجاب السيد الألوسى عن هذا، ولكن لم يأت بشئ يشفى العليل، ويروى الغليل، فراجع روح المعانى (٣١: ١) واقرأ الآن ما فتح الله تعالى على صاحبنا الإمام المصنف فله دره ، ما أغلى درره!

(١) أرجع ضمير المفرد لأنهما كعلم واحد.

(٢) السالك: الذى أكمل المراتب السافلة، دون المراتب الروحانية. قاله الإمام المصنف رحمه الله فى الإنباه (٧: ١)

(٣) قال الزركشى فى البرهان (١٧: ٢) فأما كلام الصوفية فى تفسير القرآن، (=)

وهنا^(١) فائدة مهمة، ينبغى الاطلاع عليها، وهى: أن النبى صلى الله عليه وسلم جعل " فن الاعتبار "^(٢) معتبرا، وسلك ذلك المنهج ليكون سنة لعلماء الأمة، وفتحاً لباب العلوم الموهوبة لهم:

(=) فقول: ليس تفسيراً، وإنما هو معان ومواجيد، يجدونها عند التلاوة، كقول بعضهم فى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾: إن المراد النفس؛ فأمرنا بقتال من يلينا، لأنها أقرب شئ إلينا، وأقرب شئ إلى الإنسان نفسه اهـ.

قال الإمام التهانوى فى مسائل السلوك:

مسائل التصوف قسمان:

قسم دل عليه القرآن بوجوه الدلالات المعتبرة عند أهل العلم والاجتهاد تنصيصاً، ويسمى تفسيراً واستنباطاً ويسمى فقهاً.....

وقسم لادلالة للقرآن عليه بعينه، ولا على ما يشاركه فى العلة الشرعية، لكن له دلالة ملى ما يناسبه، بنحو من المناسبة، ويسمى " اعتباراً " اهـ.

(١) أى عند ذكر اعتبارات الصوفية.

(٢) ومعنى اعتبرتُ الشئ: طلبت بيانه، وعبرت الرؤيا: بينتها، قال تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا﴾ (سورة الحشر ٢) قال الألوسى فى تفسيره (٢٨: ٤١): إنه تعالى أمر فيها بالاعتبار، وهو العبور والانتقال من الشئ إلى غيره اهـ.

ثم اعلم أن " الاعتبار " أعم من القياس الشرعى، فإنه نقل الحكم من الأصل إلى الفرع، والاعتبار: الانتقال من الشئ إلى غيره، قال الإمام راغب الأصفهانى فى مقدمة التفسير: كل خبر إما أن يكون مُعرباً عما يلزم اعتقاده فيسمى " الخبر الاعتقادى " وإما أن يكون منبئاً عما يقتضى الاعتبار به، فيسمى " الخبر الاعتبارى " كأخبار الأنبياء، وأمهم والقرون الماضية اهـ (ص ٥٨٤)

وقد تقدم النص عن الإمام التهانوى آنفاً: أن مسائل التصوف قسمان والقسم

الثانى منهما هو " الاعتبار "

وخذ لك أمثلة ليتضح لك الأمر: قال تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى﴾ (=)

• كما أن النبي صلى الله عليه وسلم تمثل بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾^(١) في مسألة القدر،^(٢) وإن كان منطوق الآية: أن من عمل بهذه الأعمال يُهديه إلى طريق الجنة والنعيم، ومن عمل بضدها يفتح له طريق النار

(==) التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ (سورة التوبة ١٠٨) نزلت في مسجد قباء وقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاعتبار في حق مسجده صلى الله عليه وسلم، لما اختلف رجلان في مصداق الآية، أخرجه مسلم والترمذى والنسائى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ، وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (سورة الاحزاب ٣٢) نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وسلم خاصة وقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم في أهل الكساء بالاعتبار، فقد أخرج الترمذى والحاكم وصحاحه عن أم سلمة: قالت في بيتي نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ وفي البيت فاطمة وعلى والحسن والحسين، فجعلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بكساء كان عليه، ثم قال: هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً.

وكقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (سورة الصافات ١١٧) نزلت في المشركين ، وقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير لاستشهاده بها.

(١) سورة الليل هـ

(٢) عن على رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة، قالوا: يا رسول الله! أفلا نتكل على كتابنا، وندع العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق: أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل السعادة؛ وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ الآية متفق عليه (مشكوة باب القدر)

والتعذيب؛ ولكن يمكن أن يُعلم بطريق "الاعتبار": أن الله تعالى خلق كلَّ أحد لحالة خاصة، ويُجرى عليه تلك الحالة من حيث يدرى أولا يدرى؛ فبهذا الاعتبار كان لهذه الآية الكريمة ارتباطٌ بمسئلة القدر.

● وكذلك قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾^(١) فالمعنى المنطوق لهذه الآية الكريمة: أن الله تعالى عرَّف كل نفس بالبر والإثم؛ ولكن لما كانت بين خلق الصورة العلمية للبر والإثم، وبين البر والإثم الموجودان بالإجمال وقت نفخ الروح مشابهةً يمكن الاستشهاد بهذه الآية في مسئلة القدر أيضًا من طريق الاعتبار؛ والله أعلم^(٢).

(١) سورة الشمس ٧

(٢) عن عمران بن حصين رضى الله عنه: أن رجلين من مزينة قالَا: يا رسول الله ! أرأيت ما يعمل الناس ويكدحون فيه، أشيئ قُضى عليهم، ومضى فيهم من قدر سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقال : لا! بل شئ قُضى عليهم، ومضى فيهم، وتصديق ذلك فى كتاب الله عزوجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ رواه مسلم (مشكوة كتاب القدر)

قال الإمام المصنف فى الحجة (٤٠٥ : ١) المراد بالإلهام هنا: خلق صورة الفجور فى النفس فالإلهام فى الأصل: خلق الصورة العلمية التى يصير بها عالما، ثم نقل إلى صورة إجمالية هى مبدأ آثار، وإن لم يصربها عالما، تجوُّزا، والله أعلم اهـ.

فمعنى قول المصنف: أن بين الإلهام — أى خلق صورة البر والإثم وقت نفخ الروح — وبين خلق مبدأ الآثار للبر والإثم مشابهة، فالآية التى نزلت فى إلهام البر والإثم قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خلق مبدأ آثار البر والإثم، بطريق التمثيل والاعتبار. والله أعلم.

الفصل الثالث

فى

بيان غرائب ^(١) القرآن الكريم

لِيَعْلَمَ أَنَّ غَرَائِبَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الَّتِي خُصِّصَتْ فِي الْأَحَادِيثِ بِمَزِيدٍ مِنَ الْإِهْتِمَامِ وَبِبَيَانِ الْفَضْلِ ^(٢) أَنْوَاعَ:

١- فالغريبة فى فن التذكير بآلاء الله: هى آية جامعة لجملة عظيمة من صفات الحق تعالى، مثل آية الكرسي، وسورة الإخلاص، وآخر سورة الحشر، وأول سورة المؤمن.

٢- والغريبة فى فن التذكير بأيام الله: هى آية يَبَيِّنُ فِيهَا قِصَّةَ نَادِرَةٍ، أَوْ قِصَّةَ مَعْلُومَةٍ بِجَمِيعِ تَفَاصِيلِهَا، أَوْ قِصَّةَ جَلِيلَةٍ الْفَوَائِدِ الَّتِي تَكُونُ مُحَلًّا لِلْإِعْتِبَارَاتِ (١) الْغَرَائِبِ جَمْعُ غَرِيبَةٍ: تَأْنِيثُ الْغَرِيبِ؛ وَالْمُرَادُ هُنَا: الْأَفْضَلُ وَالْأَحْسَنُ وَالْعَجِيبُ، الَّذِي ذَكَرَ فِي الْأَحَادِيثِ بِمَزِيدِ الْإِهْتِمَامِ، وَخُصِّصَ بِبَيَانِ الْفَضْلِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ قَدْ اخْتَلَفُوا فِي أَنَّ الْقُرْآنَ هَلْ فِيهِ شَيْءٌ أَفْضَلُ مِنْ شَيْءٍ؟ فَذَهَبَ الْأَشْعَرِيُّ وَالْبَاقِلَانِيُّ إِلَى أَنَّهُ لَا فَضْلَ لِبَعْضٍ عَلَى بَعْضٍ، لِأَنَّ الْكُلَّ كَلَامُ اللَّهِ، وَذَهَبَ الْمُحَقِّقُونَ إِلَى التَّفْضِيلِ لظَوَاهِرِ الْأَحَادِيثِ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْفَضْلُ رَاجِعٌ إِلَى عِظَمِ الْأَجْرِ وَمُضَاعَفَةِ الثَّوَابِ، بِحَسَبِ انْفِعَالَاتِ النَّفْسِ وَخَشِيَّتِهَا، وَتَدَبُّرِهَا وَتَفَكُّرِهَا عِنْدَ وُرُودِ أَوْصَافِ الْعُلَا؛ وَقِيلَ: بَلْ يَرْجِعُ لذَاتِ اللَّفْظِ، وَأَنَّ مَا تَضَمَّنَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْهَكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ وَآيَةُ الْكَرْسِيِّ، وَآخِرُ سُورَةِ الْحَشْرِ، وَسُورَةُ الْإِخْلَاصِ، مِنْ الدَّلَالَاتِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَصِفَاتِهِ لَيْسَ مَوْجُودًا مِثْلًا فِي ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ وَمَا كَانَ مِثْلَهَا، فَالتَّفْضِيلُ إِنَّمَا هُوَ بِالْمَعَانِي الْعَجِيبَةِ وَكَثْرَتِهَا، وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ. (البرهان ١: ٣٨؛ ملخصاً)

وَالْإِمَامُ الْمُصَنِّفُ نَوْعَ غَرَائِبِ الْقُرْآنِ بِتَنْوِيعٍ بَدِيعٍ، فَذَقَ كَلَامَهُ، وَرَاجَعَ حُجَّةَ

الله البالغة (٢: ٢٥٨)

(٢) أَى السُّورِ وَالْآيَاتِ الَّتِي وَرَدَ فِيهَا فَضْلٌ خَاصٌّ وَلَهَا مِيزَةٌ خَاصَّةٌ.

الكثيرة؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في قصة موسى والخضر ^(١) عليهما السلام: "وَدِدْنَا أَنْ مُوسَى كَانَ صَبْرَ حَتَّى يَقُصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبْرِهِمَا" ^(٢) ٣ - والغريبة في فن التذكير بالموت وما بعده: هي آية تكون جامعة لأحوال القيامة مثلاً ، ولذا ورد في الحديث الشريف: " مِنْ سَرَّهْ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأَى عَيْنٍ، فَلْيَقْرَأْ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ^(٣) .

٤- والغريبة في فن الأحكام: هي آية تكون مشتملة على بيان الحذر، وتعيين الأوضاع الخاصة، كمثّل تعيين مائة جَلْدَة في حد الزنا، وتعيين ثلاث حِيض أو ثلاثة أطهار لعدة المطلقة، وتعيين أنصاء الموارث.

٥ - والغريبة في فن الجدَل: هي آية يَرِدُ فيها سَوْقُ الجواب بنهج غريب، يقطع الشبهة بأبلغ وجه، أو يُبَيِّن فيها حال فريق من تلك الْفِرَقِ بِمَثَلٍ واضح، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ ^(٤)؛ وكذا يبيّن فيها شناعة عبادة الأصنام، والفرق بين مرتبة الخالق والمخلوق، والمالك والمملوك بأمثلة عجيبة؛ ^(٥) أو إحباط أعمال أهل الرياء والسُّمعة بأبلغ وجه.

٦ - وغرائب القرآن ليست بمحصورة في الأبواب المذكورة، فأحياناً تكون غريبة من جهة بلاغة القرآن، وإنّاقة ^(٦) أسلوبه، مثل سورة الرحمن؛ ولهذا

(١) الخضر - بفتح فكسر - الزرع الغضُّ الأخضر. سمي العبد الصالح به لأنه قعد مرة في مكان يابس فاخضرت الأرض، كما في رواية البخاري رقم الحديث ٣٤٠٢ (٢) صحيح البخاري ص ٦٨٧ كتاب التفسير في تفسير سورة الكهف وفي كتاب الأنبياء ص ٤٨١

(٣) سنن الترمذي (٢: ١٦٨) أبواب التفسير في تفسير سورة التكويد.

(٤) سورة البقرة ١٧ (٥) كما في سورة النمل ٥٩ - ٦٤

(٦) الأناقة والإناقة: الحُسْنُ الْمُعْجَبُ، يقال: فيه أناقة ولباقة أى حُسْن وإعجاب (المنجد)

سميت في الحديث بعُروس القرآن^(١)؛ وأحيانا تكون غريبة من جهة تصوير صورة سعيد وشقى.

ظُهر القرآن وبطنه

لقد ورد في الحديث الشريف: "لكل آية منها ظُهر وبطن، ولكل حرف حدٌّ ولكل حدٌّ مُطَّلَع"^(٢) فينبغي أن يُعَلَم أن ظُهر هذه العلوم الخمسة: هو مدلول الكلام ومنطوقه؛ والبطن:

- في التذكير بآلاء الله: هو التفكُّر في آلاء الله، ومراقبة الحق سبحانه وتعالى.
- وفي التذكير بأيام الله: هو معرفة مناط المدح والذم، والثواب والعقاب، من تلك القصص، والاتِّعَاطُ بها.

- وفي التذكير بالجنة والنار: هو ظهور الخوف والرجاء، وجَعْلُ تلك الأمور كأنها بمرأى منه.

- وفي آيات الأحكام: هو استنباط الأحكام الخفية بالفحَاوى والإيماءات.
- وفي مُخَاجَّة الفِرَاقِ الباطلة: هو معرفة أصل تلك القبائح، وإلحاق مثلها بها.
- ومُطَّلَع الظُهر: هو معرفة لغة العرب والآثار المتعلقة بعلم التفسير.
- ومطلع البطن: هو لطفُ الذهن واستقامة الفهم، مع نور الباطن وسكينة القلب والله أعلم^(٣).

(١) المشكوة ١٨٩ في فضائل القرآن عن علي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: لكل شيء عروس (: زينة وحسن وجمال) وعروس القرآن الرحمن رواه البيهقي في شعب الإيمان.

(٢) رواه الطبراني في الكبير، والبغوي في شرح السنة، ورمز له السيوطي في الجامع الصغير بـ (ح) أي أنه حديث حسن؛ وأوله: " أنزل القرآن على سبعة أحرف، لكل حرف منها الخ وفي رواية: لكل آية منها الخ.

(٣) قوله عليه السلام: ما أنزل الله من القرآن من آية إلا ولها ظُهر وبطن (==)

(=) ففي تأويله أقوال:

أحدها: وهو قول الحسن: أنك إذا بحثت عن باطنها وقستَه على ظاهرها وقعت على معناها.

والثاني: قول أبي عبيدة: أن القصص ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين، وباطنُها عظة الآخرين.

والثالث: قول ابن مسعود رضى الله عنه: أنه ما من آية إلا عمل بها قوم، ولها قوم سيعملون بها.

والرابع: ما قاله بعض المتأخرين: أن ظاهرها لفظها، وباطنُها تأويلها.

والخامس: قول صاحبنا الإمام المصنف: أكثر ما في القرآن بيان صفات الله تعالى وآياته، والأحكام والقصص، والاحتجاج على الكفار، والموعظة بالجنة والنار.

فالظاهر: الإحاطة بنفس ما سبق الكلام له.

والباطن: في آيات الصفات التفكير في آلاء الله، والمراقبة؛ وفي آيات الأحكام: الاستنباط بالإيماء والإشارة، والفحوى والاقتضاء، كاستنباط على رضى الله عنه من قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾: أن مدة الحمل قد تكون ستة أشهر، لقوله: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾؛ وفي القصص: معرفة مناصب الثواب والمدح، أو العذاب والذم، وفي العظة: رقة القلب، وظهور الخوف والرجاء، وأمثال ذلك (الحجة ١: ١٥٠)

قوله عليه السلام: "ولكل حرف حد" ففيه تأويلان:

أحدهما: لكل حرف منتهى فيما أراد الله من معناه — وهذا أقرب بهما .

والثاني: لكل حكم مقدار من الثواب والعقاب.

وقوله عليه السلام: "لكل حد مُطْلَعٌ".

والمُطْلَع لغة: موضع الاطلاع من إشراف إلى انحدار، وفي المراد في

(=)

الحديث أقوال:

(==) أحدها: لكل غامض من المعاني والأحكام مطلع، يتوصل إلى معرفته،
ويوقف على المراد به.

والثاني: لكل ما يستحقه من الثواب والعقاب مطلع، يطالع عليه في الآخرة
ويراه عند المجازاة (حكماهما الزركشى فى البرهان ٢: ١٦٩)

والثالث: مُطلع الظاهر: التمرن فى فنون العربية. وتتبع أسباب النزول،
والناسخ والمنسوخ وغير ذلك، ومطلع الباطن، تصفية النفس، والرياضة والعمل
بمقتضاه (قاله العلامة عبد الرؤوف المناوى فى فيض القدير بشرح
الجامع الصغير ٣: ٥٥)

والرابع: مطلع كل حد: الاستعداد الذى به يحصل (ذلك الحد) كمعرفة
اللسان والآثار، وكلطف الذهن واستقامة المعنى (قاله الإمام المصنف فى
الحجة ١: ١٥٤)

والخامس: مطلع كل حد علته، لأن الأوامر والنواهي لا تخلو عن العلل.
والدليل عليه: أن المطلع معناه شَرْفَةٌ يُشْرِفُ منها ويُلاحَظُ كل ما يقابلها،
وهكذا العلل يُعرف بها جميع المعلولات؛ فمن كان أهلاً للنظر فيها يقف على
جميع المعلولات برأيه واجتهاده

نعم! لا يمكن لأحد أن يقول: إن المراد بالمطلع العلل القريبة فقط، بل يمكن
أن تكون العلل البعيدة مرادة، وهى صفات الله عز وجل، التى تكون فى الحقيقة
عللاً أصليّة أساسية، لأنه لا اقتضاء لثبوت حقوق الله تعالى وحقوق عباده تعالى إلا
من تلك الصفات الأساسية الإلهية، مثلاً: وصف الربوبية والعظمة يَطْلُبُ من الناس
العبادة والتعظيم له تعالى، وكون الله تعالى بصيراً يقتضى من العباد التحلى
بالحياء، والتخلى عن الفحشاء. (قاله الإمام النانوتوى فى كتابه العظيم:
آب حیات ص ٩)

قلت: ما قال الإمام النانوتوى هو أقرب الوجوه، والله أعلم.

الفصل الرابع

فى

بيان بعض العلوم الوهية

من العلوم الوهية فى علم التفسير التى سبقت الإشارة إليها^(١):

١- تأويل قصص الأنبياء عليهم السلام؛ وللفقير فى هذا الموضوع رسالة مسماة بتأويل الأحاديث، والمراد من التأويل: هو أن يكون لكل قصة وقعت مبدأ من استعداد الرسول واستعداد قومه بحسب تدبير الله الذى أراده فى ذلك الوقت؛ وكأنه أشار إلى هذا المعنى فى قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾^(٢)

(١) أشار إليها فى فاتحة الباب الرابع.

(٢) سورة يوسف ٦ قال الإمام المصنف فى "تأويل الأحاديث" (ص ٨٠) يحدث الحوادث القليلة الوقوع لأسباب، لا يتحقق إلا قليلاً جداً، فتسمى "خوارق"؛ والحق أن كلما يسمى خرقاً فإنه من الأمور العادية، لكن لما كان أسبابها قليلة الوقوع، لا يظهر إلا قليلاً، وحيث كان العامة لا يتوقعونها سميت خوارق الخ.

ثم لنذكر لك أمثلة من تأويل الإمام المصنف:

قال فى تأويل أحاديث آدم عليه السلام: إن آدم عليه السلام أحاطت به قوى الأرواح، وتخيلات الملائكة الأعلى، وتوجه إليه تخيل العرش، فصار فى الجنة، وهو فى مكانه من الأرض، فانسحبت عليه أحكام الجنة؛ وكانت فيه طبيعة شهوية فاشتاق إلى أنثى من جنسه شوقاً قوياً، فتخيل صورة الأنثى تخيلاً حثيثاً، فوجدت من تخيله اهـ (ص ١١)

وقال فى تأويل أحاديث داود عليه السلام: كان فى زمن داود عليه السلام قوم يعتدون فى السبت، وكان فى النواميس المنزلة على موسى عليه (==)

٢- ومنها: تنقيح العلوم الخمسة التي هي منطوق القرآن العظيم؛ وقد مر تفصيلها في أول الرسالة، فليرجع إليه.

٣- ومنها: ترجمة القرآن الكريم باللغة الفارسية، بوجه قريب من النص العربى في مقدار الكلمات، وفي التخصيص والتعميم، وغير ذلك؛ وسميتها بـ "فتح الرحمن في ترجمة القرآن" وقد تركت هذا الشرط في بعض المواضع خوفا من عدم فهم القارئ بدون تفصيل^(١).

(=) السلام المحافظة على السبت، فاصطادوا السمك، فمسخهم الله القردة، وذلك بأن جعل السمك فاسدا المزاج، فتعفن الطبيعة، فلما أكلوها سرى سوء المزاج فيهم، وتغيرت أبدانهم، وتغير تولد النسمة فيها، فأسبغ هذا التغير، ونبت الشعر، وألقى عليهم الصغار والهوان، وصاروا قردة؛ فكان هذا العذاب أقرب إليهم فعذبوا اه (ص ٥٠)

وقال في تأويل قصص يونس عليه السلام: التقمه الحوت، فسبّح وكفر عن ذنبه، فتاب الله عليه، وعادت الرحمة الإلهية إليه، فقذفه الحوت بالعراء وهو سقيم، ونبت عليه شجرة من يقطّين، لنلا يقع عليه الذباب، ووقع في قلوب الوحش: أن يرضعوه، بأن خيل إليها أنه ولدها، فهاجت الرحمة في صدورهم كما يهيج على ولدها، وهكذا تكفل عن جميع أموره حتى قوى وصح اه (ص ٥٤)

وهكذا تأول جميع أحاديث الأنبياء، وكتابه "تأويل الأحاديث" مطبوع من القديم، وطبع حالا في الباكستان، بتحقيق الشيخ غلام مصطفى القاسمي وترجم إلى الأردية أيضا، ولكن الترجمة ليست بذاك.

ثم اعلم أن الإمام المصنف قصد في هذه الرسالة إثبات المعجزات، والتدليل عليها للفلاسفة والعقلانيين؛ ولكن تأويلاته فيها لا يتفق كليا مع ظواهر النصوص، فليتنبه له.

(١) الإمام المصنف أول من ترجم كتاب الله الكريم بالفارسية، وسنّ للأمة الحاضرة سنة مسلوكة في العالم، وأبدع في الترجمة وراعى فيها دقائق وأسراراً لطيفة لا يكاد يفهمها كل أحد، مالم يكن لهذه الحلبة مُجَلِّياً؛ وكتب عليه (=)

٤ - ومنها: علم خواص القرآن الكريم، وقد تكلم جماعة من المتقدمين في خواص القرآن من وجهين: وجه كالدعاء، ووجه كالتسحر، أعوذ بالله منه؛ وقد فتح الله على الفقير باباً وراء ما نقل من خواص القرآن، ووضع في حجرى جميع الأسماء الحسنى، والآيات العظمى، والأدعية المباركة مرة واحدة، وقال: "هذا عطاؤنا للاستعمال"؛ ولكن كل آية واسم ودعاء مشروط بشروط، لاتضبطها قاعدة: بل قاعدتها: انتظار عالم الغيب؛ كما يكون في حالة الاستخارة، حتى ينظر بأى آية أو اسم يشار إليه من عالم الغيب؛ فيقرأ^(١) تلك الآية أو الاسم على طريقة مقررة عند أهل الفن.

وهذا ما قصدت إirاده فى هذه الرسالة، والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.^(٢)

(=) فوائد لطيفة مختصرة. وجردها عن الإسرائيليات. والإمام المصنف قد أغنانا بذلك عن الخوض فى بحث: هل يجوز ترجمة القرآن الكريم باللغة الأعجمية أم لا؟

ثم تلايلوه نجله العارف الشيخ عبد القادر (المتوفى سنة ١٢٣٠) فترجم القرآن باللغة الأردوية، فأبدع فى الترجمة وأجاد، وعليها مدار الأمة الهندية اليوم، وكذا ترجم القرآن نجله الآخر الأكبر من أخيه المتقدم ذكره وهو الشيخ رفيع الدين الدهلوى (المتوفى سنة ١٢٣٣) ترجمة أردوية، راعى فيها الترجمة اللغوية، بترتيب كلمات القرآن، وهى أنفع للعوام من ترجمة أخيه فجزاهم الله عن المسلمين بأحسن الجزاء.

(١) قوله: فيقرأ أى للمريض أو لنفسه؛ فهذا من الرقى المسنونة.

(٢) والفصل الخامس الذى يبحث فيه عن الحروف المقطعات خارج من الباب الرابع، كما يدل عليه هذا الاختتام، وكذا ليس بشامل فى الدرس فلذا حذفناه من الكتاب، إذ ليس فيه كبير فائدة؛ وأبقيناه فى الشرح، حفظاً لتراث الإمام المصنف رحمه الله؛ ولأن فيه فوائد جمة غير معانى المقطعات.

الفصل الخامس^(۱)

فی بیان

المقطّعات القرآنية^(۲)

من العلوم التي أنعم الله بها على هذا العبد

(۱) قد ترك المترجم القديم للكتاب هذا الفصل الخامس، فلم يعرّبه: إما لغموضه ودقّته، أو لظنّه غير ضروري، فعرّبه شيخ مشايخنا، شيخ الأدب والفقه، العلامة محمد إعزاز علي رحمه الله تعالى (۱۲۹۹ - ۱۳۷۴ هـ) من كبار علماء دارالعلوم ديوبند، وكانت الترجمة فصیحة فأبقیناها كما هی.

(۲) المقطّعات القرآنية هی: الَمْ، الَمْصّ، الَمْرّ، كَهَيْعَصّ، طه، طسّ طسّم، حَمّ، حَمَعَسَقّ، قّ، صّ، نّ، یسّ، الرّ، فهذه ۱۴ كلمة، افتتح الله بها ۲۹ سورة، وإذا تأملتها وجدتها نصف أسامي حروف المعجم، ضبطها بعضهم بقوله ” طَرَقَ سَمْعَكَ النصيحة“.

وقد اختلف الناس فيها على قولین:

أحدهما: أن هذا علم مستور، وسرّ محجوب، استأثر الله به، ولهذا قال الصديق رضى الله عنه: فی كل كتاب سرّ، وسرّه فی القرآن أوائل السور.

قال الإمام الرازی: وقد أنکر المتكلمون هذا القول، وقالو: لا يجوز أن یردّ فی كتاب الله ما لا يفهمه الخلق، لأن الله تعالى أمر بتدبره، والاستنباط منه، وذلك لا يمكن إلا مع الإحاطة بمعناه اه

وقال الشيخ المجدد السّرهندي: إن روح القرآن فی المتشابهات؛ وذلك لأن المُحْكَمات تتعلق بما يجب على الإنسان، والمتشابهات تحكى عن معاملات الرحمن، فما يكون قدرُ المحكمات بجانب المتشابهات إلا كالقطرة بجانب البحراھ (فيض الباری ۴: ۱۵۰) وراجع فواتح الرحموت فی شرح مسلم الثبوت (۱۸: ۳) من المطبوع بمصر، مع مستصفی الغزالی؛ شاه ولی الله اور ان کا فلسفہ (ص ۵۷-۶۳)

(=)

(=) والقول الثانى: أن المراد منها معلوم، وذكروا فيه ما يزيد على عشرين وجهًا؛ فمنها البعيد ومنها القريب:

أحدها: ما يروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن كل حرف منها مأخوذ من اسم من أسماء سبجانه، فالألف من "الله" واللام من "لطيف".

والثانى: أنها أسماء للسور، فـ"آلَمْ" اسم لهذه، و"حَمْ" اسم لتلك، وذلك أن الأسماء وضعت للتمييز؛ فهكذا هذه الحروف وضعت لتمييز هذه السور من غيرها، ونقل الزمخشري هذا القول عن الأكثرين، وأن سيويه نص عليه فى كتابه، وقال الإمام فخر الدين: هو قول أكثر المتكلمين.

فإن قيل: فقد وجدنا "آلَمْ" افتتح بها عِدَّةُ سُورٍ، فأين التمييز؟ قلنا: قديقع الوفاق بين اسمين لشخصين، ثم يميز بعد ذلك بصفة وقعت كما يقال: زيد وزيد ثم يميّزان بأن يقال: زيد الفقيه، وزيد النحوى، فكذلك إذا قرء القارى (آلَمْ، ذلك الكتاب) فقد ميّزها عن (آلَمْ، الله لا إله إلا هو الحى القيوم)

(وراجع لبقية الأقوال البرهان للزركشى ١: ١٧٢-١٧٧)

وصاحبنا الإمام المصنف عليه الرحمة قد ذهب إلى هذا القول وقال: إن المقطعات أعلام للسور؛ ولكن ليست أعلامًا ذاتية، بل هى أعلام صفاتية، تدل بالإجمال على التفاصيل التى حوت عليها السورة، قال المصنف فى الخير الكثير (ص ٨٤):

واعلمن أن هذه المقطعات أسماء كلية للسور، بحسب مضامينها، وعسى أن يتحد مفهومان فى أمر، ويتغايران بالاعتبار، كقصة الأنبياء تدخل تارة فى الوعد، وتارة فى مقاماتهم، وتارة فى الآيات، وكذلك المعاد وغيره.

وأن سليقة الاسم المتجدد فى إبداع المضامين والأساليب، له شأن:

شبه بالاتفاقيات، وهذا طبائع المقامات الفرائضية قاطبة.

وشبه بسليقة الكاتب، حيث تعين فى نفسه رسالة مدحية، مثلاً قافيته كذا

وكذا، وأسلوبه كذا وكذا؛ وذلك لما أشرنا إليه من أن القرآن استوطن ذروة

السنام فى المواطن النسمية، فتدبر اهـ.

الضعيف^(١): علم انكشف به الغطاء عن المقطعات القرآنية، ولا بد في بيانه من تمهيد مقدمة:

فَاعْلَمْ أَنْ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ حُرُوفِ التَّهْجِيِّ — الَّتِي بِهَا تَتَأَلَّفُ كَلِمَاتُ الْعَرَبِ — مَعْنًى بَسِيطًا، غَضًّا طَرِيقًا^(٢) لَا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ إِلَّا بِإِشَارَةٍ لَطِيفَةٍ غَامِضَةٍ.

وَمِنْ أَجْلِ هَذَا^(٣) يَكُونُ كَثِيرٌ مِنَ الْمَوَادِّ الْمُتَقَارِبَةِ مُتَّفَقَةً مَعْنًى أَوْ

(١) أى: من العلوم الوهية له رحمه الله تعالى في فن التفسير.

(٢) قال الإمام الأكبر الشيخ محمد قاسم النانوتوى في براهينه (ص ١٢٣): لا تُدْرِكُ فِي الْأَسْمَاءِ وَالْأَفْعَالِ فِي اللُّغَةِ الْأُرْدِيَّةِ وَالْفَارْسِيَّةِ مَعَانٍ بِإِزَاءِ الْحُرُوفِ التَّهْجِيَّةِ، اللَّهُمَّ! إِذَا كَانَ الْحُرُوفُ مُفْرَدَةً، كَبَاءٌ فِي "بِمَا" وَ "بَاو" فَتَتَخِيلُ هُنَاكَ حَقِيقَةً بِإِزَاءِ الْحَرْفِ الْمَفْرَدِ؛ وَهَذِهِ هِيَ حَالَةُ اللُّغَاتِ الْآخَرِ، وَلَمْ يُسْمَعْ فِيهَا بِالتَّعَرُّضِ بِالْحَقَائِقِ بِإِزَاءِ الْحُرُوفِ التَّهْجِيَّةِ. نَعَمْ، فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ حَقَائِقُ بَسِيطَةٌ ذَاتُ إِضَافَاتٍ بِإِزَاءِ حُرُوفِ التَّهْجِيَّةِ:

وَبَيَانُهُ: أَنَّ الْأَسْمَاءَ وَالْأَفْعَالَ الْعَرَبِيَّةَ الْمَجْرُودَةَ عَنِ الْحُرُوفِ الزَّائِدَةِ، تَكُونُ ثَلَاثِيًّا عَلَى الْأَقْلَى، فَإِنْ كَانَ فِي حَرْفٍ " الْفَاءُ " وَ " الْعَيْنُ " اشْتِرَاكٌ بَيْنَ الْكَلِمَاتِ، وَفِي " اللَّامِ " تَبَايُنٌ، يَوْجَدُ فِي مَعْنَاهَا أَيْضًا اشْتِرَاكٌ وَاخْتِلَافٌ، نَحْوُ: " شَرَفٌ " وَ " شَرٌّ " وَ " شَرْدٌ " وَ " شَرَعٌ " فَكُلُّهَا تَدُلُّ عَلَى مَعْنَى الِارْتِفَاعِ وَالْحَرَكَةِ، وَمَعَ هَذَا كُلُّ كَلِمَةٍ مِنْهَا تَدُلُّ عَلَى مَعْنَى عَلَى حَدَّةٍ أَيْضًا؛ فَمَعْنَى شَرُفٌ: بَلَّغَ إِلَى رِفْعَةٍ الْمَرَاتِبِ، وَالشَّرَرُ: الشَّعْلَةُ الَّتِي مِنْ طَبْعِهَا الْعُلُوُّ وَالرَّفْعَةُ، وَالشَّارِدُ: الْحَيَوَانُ الَّذِي يَنْفِرُ مَعَ الرِّثْوِ، وَالشَّرْعُ: الطَّرِيقُ الْعَالِي، الَّذِي يُرَى مِنْ بَعِيدٍ، فَلَمَّا اشْتَرَكْتَ الْكَلِمَاتُ فِي الشَّيْنِ وَالرَّاءِ، حَدَّثَتْ فِي الْمَعَانِي إِضَافَتَانِ: الرَّفْعَةُ وَالْحَرَكَةُ، وَبِالْإِخْتِلَافِ فِي الْحَرْفِ الْآخِرِ تَغَايَرَتْ مَدْلُولَاتُهَا الْخَاصَّةُ؛ فَعَلِمَ مِنْ هَذَا أَنَّ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ حَقَائِقَ بَسِيطَةً ذَاتَ إِضَافَاتٍ بِإِزَاءِ الْحُرُوفِ التَّهْجِيَّةِ؛ وَبِهَذَا السَّرِّ قُضِلَتْ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ عَلَى سَائِرِ أَخَوَاتِهَا ١ هـ

(٣) أى: لأجل كون المعاني بإزاء حروف الهجاء.

مقاربة^(١)، كما ذكر الأذكياء من الأدباء: أن كل كلمة اجتمعت فيها

(١) قال في شرح خطبة الكافي في علم اللغة (ص ٣٤): قد ثبت عند علماء الاشتقاق: أن التقارب بين اللفظين يدل على التقارب بين المعنيين، نحو: قسم، وقسم، وقدر، وقتر — مما اتفق فيه الأول والثالث، واختلف فيه الوسط — ونحو: صعد، وسعد؛ وقضم وخضم — مما اتفق فيه الثاني والثالث، واختلف الأول — ونحو: أبد وأبق؛ وبتروبتك — مما اتفق فيه الأول والثاني، واختلف فيه الثالث.

قال بعضهم: إذا أمعنت نظرك في التراكيب اللغوية، وجدت بين كل كلمتين اتفاقاً في "الفاء" و"العين" اتصالاً، فإن تقارب اللّامان في المخرج كان التقارب بين المعنيين أشدّ، وإن تباعد كان التباعد بين المعنيين بقدر ذلك؛ وأما أصل الاتصال فلا بد منه؛ يظهر ذلك عند إمعان النظر، وذلك المعنى هو الجهة الجامعة لهما، وإن خفيت.

وقد ظهر من البحث والنظر: أن تركيب الهمزة مع الباء يدل على النفور والبعد والانفصال، ويظهر ذلك في: أبّ، وأبد، وأبق، وأبى ونحوها، فإن كل واحد منها لا يفارقه ذلك المعنى، يقال: أبّ: إذا تهيأ للذهاب، وأبدت البهيمة: إذا نفرت وتوحشت؛ وأبق العبد: إذا هرب من سيده؛ وأبى الرجل: إذا امتنع. وإنّ تركيب الهمزة مع الزاي يدل على الضيق والشدة، ويظهر ذلك في: أزّ، وأزق، وأزل، وأزم، ونحوها، وأمثلة ذلك كثيرة، وقد أوردوا ما يكفي للتدريب، وبقاؤه يحتاج إلى من يثبته من مكانه اهـ

وقال (في ص ٥٠): واعلم أن هذا المبحث صعب المسلك، فيجب على سالكه أن يكون شديد الانتباه، كثير الاحتراز، لئلا يدخل عليه كلمة معربة، أو ناشئة من غيرها بطريق القلب أو الإبدال، ونحو ذلك اهـ

وقال (في ص ٥١-٥٢) ومعرفة الأصل الأول في المادة الواحدة أمر مهم، وقد قال به بعض علماء الاشتقاق، مثال ذلك: مادة (ش ج ر) فإنهم ذهبوا إلى أن الأصل فيه الشجرة المعروفة ذات الأغصان، وكل ما في هذه المادة راجع إليها، تقول: شجر الأمر بين القوم: إذا اختلف واختلط، وتأويله: اختلف (==)

”النون“ و”الفاء“^(١) تدل على معنى الخروج بوجه من الوجوه، مثل: نَفَر، ونَفَث، ونَفَحَ، ونَفَخَ، ونَفَقَ، ونَفَذَ، ونَفَذَ^(٢).

وكذا كل كلمة اجتمعت فيها”الفاء“ و”اللام“ تدل على معنى الشق والفتح، مثل: فَلَاقَ، وفَلَحَ، وفَلَجَ، وفَلَذَ، وفَلَذَ^(٣).

ومن أجل هذا^(٤)، يُنطِقُ العَرَبُ كثيراً ما بكلمة على وجوه شتى، بتبديل

(==) واختلط كاختلاف أغصان الشجرة واختلاطها؛ واشتجر القوم وتشاجروا: إذا اختلفوا وتنازعوا، وشجره بالرمح إذا طعنه به، وتأويله: أنه جعله فيه كالغصن في الشجرة؛ وشجر بيته: إذا عمده بعمود؛ وشجر الشجرة: إذا رفع ماتدلى من أغصانها، إلى غير ذلك، فكل ما تفرع من هذه المادة فأصله ”الشجرة“ عندهم. وقس على ذلك ما لا يُخصى من الكلم، مثل مادة (ظ ه ر) فإن الأصل فيه الظهر؛ ومثل مادة (ب ط ن) فإن الأصل فيه ”البطن“ اهـ.

وقد صنف النواب أبو الطيب صديق بن حسن القنوجي البوفالي رسالة أسماها: ”العَلَمُ الخَفَاقُ من علم الاشتقاق“ قد جمع فيها أمثلة كثيرة مما تتعلق بالمبحث فراجعها.

(١) أى: تكون ”النون“ فى أول الكلمة، والفاء ثانياً.

(٢) نفر الدابة: جزعت وتباعدت؛ ونفر القوم للقتال: ذهبوا — نَفَثَ البصاق من فيه: رمى به، ونَفَثَ الجرحُ الدم: أظهره — نفح الطيب: انتشرت رائحته، ونفح العِرْقُ: نزامنه الدم — نفخ بقمه: أخرج منه الريح — نَفَقَ الشئُ: نفد وفنى، ونفق الرجل: خرجت روحه — نفد الشئُ: فنى — نفذ الشئُ الشئُ: خرقة وجازعنه وخلص منه، يقال: نفذ السهم الرميّة: دخل جوفها وخرج طرفه من الشق الآخر.

(٣) فلق الشئ: شقّه، يقال: فلق الصبحُ: تشقق — فَلَحَ الأرضُ: شَقَّها — فَلَجَ الشئُ: شقه وقسمه: فلج الحرّاث الأرض: شقها للزراعة — فلذله من النمل شيئاً: قطع له منه شيئاً.

(٤) أى: لكون الاتحاد فى المواد سبباً للاتحاد فى المعانى، وكون التفرق فيها باعثاً للاختلاف فى المعانى.

حروف متقاربة، كما يعرفه النحاريُّ من مَهَرَة الأدباء ^(١)، مثل: دَقٌّ، ودَكٌّ؛ وَلَجٌّ وَلَزٌّ ^(٢)،

والحاصل: أن ما قلناه له شواهد لا تحصى، وما أردنا ههنا إلا التنبيه، وهذا كله لغة عربية، وإن لم يبلغ العربُ إلى تهذيبها وتنقيحها، ولم تُدرك النحاةَ كنهها ^(٣)، كما أنك إذا سألت العرب العرباء ^(٤) عن "المفهوم" و"التعريف" و"الجنس"، وخواص التراكيب لم يتمكّنوا من بيان حقيقتها، مع كونهم مستعملين لها، والناطقين بها.

ثم إن المدققين في كلام العرب ليسوا كأُسنان المُشَطِّ، بل بعضهم أذكى وألطف ذهنًا من بعض، فترى جمعًا أوضحوا معنى كثيرًا، ولم يبلغ الآخرون إلى دَرَكها. وهذا العلم أيضًا من لُغَتهم العربية، ولكن تقاصرت أفهام أكثر المدققين عن تنقيح تلك المفاهيم.

فاعلم أن المقطعات القرآنية أعلامُ السور وأسمائها، تدل بمعانيها المجملّة على ما اشتملت عليه السورةُ مفصلةً، كتسمية المُصَنَّفَات بشيء يوضّح حقيقة الكتاب للناظر، كما أن البخاري سَمِيَ جامعُه بـ "الجامع المسند الصحيح من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسُنَّه وأَيَّامه" فمعنى آلم ^(٥) الغيب الغيْرُ المتعيّن صار معيّنًا، بالنسبة إلى عالم

(١) النحاري جمع النَحْرِيْر: الحاذق الفطن العاقل، والمهرة جمع الماهر: الحاذق.

(٢) دَقُّ الشيء: كَسَرُه؛ — ودَكُّ الحائط: هدمه حتى سَوَّاه بالأرض — لَجٌّ في الأمر: لازمه، وأبى أن ينصرف عنه؛ — ولَزَّ الشيءُ بالشيء: لصق به.

(٣) لأن هذا المبحث صعب المسلك، لا يناله كل أحد من الرجال.

(٤) العاربة والعرباء: الخُلص.

(٥) قال الإمام المصنف في الخير الكثير (ص ١٢٨ - ١٣٠): ومن فنون الحكمة فن الحروف:

(=)

١: غيب محض، لا بشرط شيء.

الشهادة المُتَدَنِّسَة؛ فإن " الهمزة " و " الهاء " كلتيهما تدلّان على الغيب، إلا

(=) ب: لزوم تَدَنِّسِيّ.

ت: تميم بها غالبا، ومعناها مثل متدنس، غير متعين الحقيقة.

ث: بدل عن التاء غالبا، ومعناها مثل التاء، إلا أنه ألطف منه.

ج: معناه: تخليط غير متشعشع الماهية.

ح: غيب بشرط شيء.

خ: هو كالحاء، ويزيد فيه معنى اللزوم والتخليط.

د: لزوم لانفكاك له.

ذ: مثله، إلا أن فيه لطفا موهوماً.

ر: ظهور متردد، أعنى: يظهر مرة، ويبطن أخرى؛ أو: يصدر عنه أثران: ظاهر

وباطن.

ز: هو الجيم، إلا أن فيه لطفاً وإشعاراً بمعنى اللزوم.

س: سريان موهوم أو موجود،

ش: هو الانطباق والشمول.

ص: رفعة عودية.

ض: فساد صورة إلى أو كس منه.

ط: غيب بشرط لا.

ظ: هو الظهور، غير المتشعشع، وفيه لطف.

ع: هو الحاء إلا أن فيه شروقا وتشعشعا.

غ: هو المنكدر.

ف: يفاها بها، ومعناه كالتاء.

ق: تَحَجَّر غاية التحجر، ويستعار للقوة.

ك: أضعف من ذلك وأخف.

ل: هو التعين بعد الإبهام.

م: هو التدنس التام.

(==) ن: هو النور والضوء.

و: قد يكون كالميم، وقد يكون كالباء.

ه: غيب عالم التخليط

ى: هو التردد بين الظهور والخفاء.

الفروق: واعلم أن "الهمزة" و"الهاء" واحدة، إلا أن الهاء أخلط —
والحاء والعين واحد، إلا أن "العين" أشرق — والحاء والغين واحد، إلا أن الحاء
الزم والغين أغلظ — والقاف والكاف واحد، إلا أن الكاف أخف — واللام والراء
واحد، إلا أن اللام أنزل فتعين؛ والراء أرفع من ذلك فتردد — والdal والتاء واحد،
إلا أن الدال ألزم وأفصح، والتاء أبهم — والجيم والزاء واحد إلا أن الزاء ألطف.
أمثلة: ولنمهد لذلك الفاظاً على هذا المذاق:

ال: غيب تعين، ومنه قال بعض الصوفية: إن الاسم الأعظم "ال"

بل: اتصل بما قبل هذا المتعين.

هل: منكّر يُطلب تعيينه.

أى: غيب متردد، يُعلم جنسه، ويُجهل عينه.

ذا: مبهم الذات الذى غيب متعين بأمر متنكر، ساعته، يفصح عنه بعد ذلك.

وسرى، وسار، وسر، وسبح، وساح: كلها تنبئ عن معنى السريان.

وضلّ، وضار، وضر، وضد: كلها تشعر بالفساد، وقد يستعار "الضاد"

لمجرد الكيفية الصورية، فيقال: أبيض: للآزم ترّدّد منفكّاً، وهو من كفيات

الصورة؛ و"أخضر" لتخليط هو من كفيات الصورة.

وطود، وطور، وطغى، وطاف، وطار: كلها تبعد أو تقدس.

وحس: غيب سرى: بالتعمق والإدراك

وحى: غيب سرى: ظهر أثر منه، وبطن أثر.

والجد والود والرد، والمد: للزوم.

وصدف، وصلاح، وصار، وصبر: كلها للعود: إما فقط، أو مع رفقة

وعلم: شروق تعين بالزوم بمتدنس.

(==)

أن الهاء غيب هذا العالم، و"الهمزة" غيب العالم المجرد؛
ولهذا يُطْلَقُونَ "أ"، و"أم" وقت الاستفهام، و"أو" وقت العطف؛ فإن
الأمر المُسْتَفْهَم عنه أمر منتشر، وهو غيب بالنسبة إلى المتعين، وكذا المتردد
فيه ^(١) أيضًا غيب. و"الهمزة" تزداد في أول الأمر ^(٢) لتدل على معنى تَخَيُّل في
ذهن المتكلم، وتفصيله مَوْكُولٌ إلى مادته، ^(٣) واختاروا في الضمائر "الهاء"
فإنه غيب هذا العالم؛ وحصل للمتعين إجمال في الجملة ^(٤)

واللام تدل على معنى التعين؛ ولهذا يزيدون اللام وقت التعريف.
والميم: — من حيث اجتماع الشفتين عند التكلم بها — تدل على
الهيولى المتدنسة التي اجتمعت فيها حقائق شتى، وتقيدت وآلت من الفضاء

(=) ومحي ومحض، ومحض: كلها لمتدنس انتقل إلى الغيب.

ونور، ونار، ونهار، ونهر: كلها لضوء، أو لذي ضوء.

ولمح، وعين، وعنا: كلها لشروق.

وقر، وحق: للثبوت

وبالجملة فعلم الحروف ليس مما يُحاط به في الكلام الاستطراذى، والله
هو الموفق؛ وأنا أبوح ولا كذب:

ومن إحسان ربي صرت بحرًا وكان الحق، وانكشف الغطاء
لسانى صارم، لا عيب فيه وبحرى لا تكدره الدلاء
ألهم أنت الذى أنعمت على، بلا استحقاق منى، فلك الحمد اهـ.

(١) أى: الأمر المتردد الذى يكون فى العطف بين المعطوف والمعطوف عليه.

(٢) أى: فى أول فعل الأمر.

(٣) أى: تفصيل المعنى المتخيلة مفوض إلى مادة الأمر، فيُظهِر المتكلم المعنى
المتخيلة بمادة مخصوصة.

(٤) أى: كانت الهاء للغيب أى للأمر المبهم الغير المتعين والمرجع متعين ومع
هذا يجوز استعمالها له، لأن الإجمال — الذى هو المطلق — حاصل للمتعين
أيضًا، لأنه حصة لذلك المطلق، والمطلق دائما يكون ذاتيا لحصصه.

المجرّد إلى مَحْبَسِ التقيّد والتحيز.

فالحاصل: أن " أَلَمْ " كناية عن الفيض المجرّد، الذى تقيّد فى عالم التميّز والتحيّز، وتعيّن بحسب عاداتهم وعلومهم، وصادم (١) قسوة قلوبهم بالتذكير، وصادم أقوالهم الفاسدة وأعمالهم الكاسدة بالمُحاجة، وتحديد البر والإثم؛ والسورة بتمامها (٢) تفصيل هذا الإجمال، وإيضاح هذا الإبهام. (٣) و" أَلَمْ " مثل " أَلَمْ "؛ إلا أن " الراء " تدل على التردّد، أى: الغيب الذى تَعَيَّنَ وتَدَنُّس مرة بعد أخرى. وكذلك " الميم " مع " الراء "؛ وهذا كناية عن العلوم التى صَادَمَتْ قبائح بنى آدم، مصادمة بعد مصادمة، وذلك صادق بقصص الأنبياء، ومقاماتهم، مرة بعد أخرى، وبالأسئلة والأجوبة المتكررة (٤) والطاء والصاد: تدلّان على حركة الارتفاع من العالم المتدنّس إلى العالم المتعالى؛ إلا أن " الطاء " تدل على عِظَم ذلك المتحرك وفخامته، مع تَلَوُّه وتَدَنُّسه، و" الصاد " تدل على صفائه ولطافته.

والسين: تدل على السريان والتلاشى، وانتشاره فى الآفاق كلها. فطة: مقامات الأنبياء، التى هى آثار توجّههم إلى العالم العلوى، بحيث تتكون فى هذا العالم صورة غيبية بالبيان الإجمالى، وذكرهم فى الكتب، ومثله (٥).

(١) صادمه مصادمة: ضربه. (٢) يعنى السورة التى جاء " أَلَمْ " فى أولها.

(٣) قال الإمام المصنف فى الخير الكثير (ص ٨٣)

أَلَمْ: معناه: غيب تَعَيَّنَ فى المتدنّس؛ كنى به عن الآيات والعادات، والأعمال، وبدعات الأخلاق، من حيث ما تعين فيها تشريع أو تحقيق قدسى. (٤) فى الخير الكثير: أَلَمْ: معناه: عيب تعين فى التخليط تعينا متردداً، غير متحجر؛ كنى به عن مقامات الأنبياء، من حيث أنها مصادمة للشرور الدنسية، مرة بعد أخرى.

(٥) فى الخير الكثير: طة: تنزّه كل التنزّه، نزل فى غيب هذا العالم التخليطى؛ كنى به عن أحكام الأسماء المتحدة، من حيث أنها كيف نزلت فى المدارك الإنسانية؟

وطسّم: مقامات الأنبياء، التى هى آثار حر كاتهم الفوقانية، التى سرت
 فى العالم المتدنّس، وانتشرت فى الآفاق^(١)
 والحاء: معناها ما ذكرنا من معنى " الهاء"؛ إلا أنه إذا استصحب
 التّشعّشع^(٢) والظهور والتّميّز، فيُعبر بالحاء.
 فمعنى حَم: إجمال نورانى مُتَشعّشع، انصل بخصائص العالم المتدنّس
 من العقائد الباطلة، والأعمال الفاسدة؛ وهذا كناية عن رد أقوالهم، وظهور
 الحق فى تضاعيف شُبّهاتهم ومناظراتهم وعاداتهم^(٣)
 والعين: تدل على الظهور المُتَشعّشع والتّعين.
 والقاف مثل "الميم" تدل على هذا العالم، لكن من جهة القوة والشّدة؛
 و" الميم" من جهة اجتماع الصّور فيه وتراكمها.
 فمعنى عَسَق: حق مُتَشعّشع، سَرى فى العالم المتدنّس^(٤)
 والنون: عبارة عن نور يَسرى وَيَنْتَثِرُ فى الظلمة كالحالة عند الفجر
 الصادق، أو عند غروب الشمس^(٥).

-
- (١) فى الخير: طسّم: معناه: تنزّه حق التنزه، سرى سريانا تنزيها فى عالم
 التخليط؛ كنى به عن الأسماء المتحدة وأحكامها، التى هى حق بحسب سريانها
 القدسى فى العالم الدنسى، وعلومها التى تفيدها بحسب سريانها القدسى.
 (٢) التشعشع: المزج، من شَعَشَعَ الشراب بالماء،: إذا مَزَجَه به، وقد شعشعه: إذا
 أَرَقَّ مَزَجَه، والخمر مشعشعة (كنز الحفاظ لابن السكيت ص ٢٢٢)
 (٣) فى الخير الكثير: حَم: معناه: غيب ظهر فى المتدنس؛ كنى به عن أقوال الكفرة
 وعقائدهم، متصعدة إلى التحقيق، فى موطن الوحى والوعظ، بالترهيب والترغيب،
 والتشيع والتنويه، من حيث أنه حق نزل فى التخليط، تامعاً له، وفاكماً لنظامه.
 (٤) فى الخير الكثير: عَسَق: معناه: الظهور المتشعشع السارى فى هذا العالم
 المتدنس المتحجر.
 (٥) فى الخير: ن: معناه: نور فى ظلمة؛ كنى به أيضاً عن الوعظ.

و الياء: كذلك إلا أن النور الذى تدل عليه "الياء" أقل مما تدل عليه "النون"؛ وكذلك التَّعَيَّن الذى تدل عليه "الياء" أقل مما تدل عليه "الهاء" في يَس: كناية عن معانٍ مُنتَشِرَةٍ في العالم^(١) ومعنى ص: هياة حدثت جبلةً وكسبا، عند توجه الأنبياء إلى ربهم^(٢) ومعنى ق: قُوَّةٌ وشِدَّةٌ وكَرَّةٌ تعين في هذا العالم، كما يقال: مَرَمَى قُصْدِي هياة حَدَثَتْ في هذا العالم من حيث الكِبْسِرِ والمُصَادِمَةِ^(٣).
و الكاف: مثل "القاف" إلا أن القوة التى تَدَلُّ عليه "الكاف" أقل مما تدل عليه "القاف"

فمعنى كهْيَلْعَص: عالم متدنّس ظُلْمَانِيٌّ، تعيّن فيه بعض العلوم المُتَشَعِّعَةِ وغيرها، عند الرجوع إلى ربهم الأعلى.
وبالجملة: أَلْقِيَتْ في رُوعِي معانى هذه الكلمات على طريق ذوقى، ولا يمكن أن تُوضَّح هذه المعانى الإجمالية بتقرير أوضح مما حررنا، وإن لم تكن العبارة المذكورة وافية لما أردنا، بل هى متباينة من وجه دون وجه. والله أعلم بالصواب.

-
- (١) فى الخير: يَس: معناه: شئى متردد بين الظهور والخفاء، سارٍ فى العالم؛ كنى به عن أحكام الاسم المتحد وعلومه.
(٢) فى الخير: ص: مقام قدسى، اقترب بالله قربا قدسيا، من حيث أنه عائد إليه؛ كنى به عن مقامات الأنبياء، وعلومهم التى هى بحسب وجاهتهم.
(٣) فى الخير: ق: معناه: قباحت متحجرة، قوبلت بها قوة قدسية؛ كنى به عن الوعظ والآيات والنصائح اه.

وقد استراح القلم من التعليق فى ٢٦ - ٢ - ١٣٩٤ هـ فلهذا الحمد الكثير والشكر الجزيل، على ما وفقنى لهذا العمل المبارك، وصلى الله على النبى الأُمى الهاشمى، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً كثيراً.

المحتويات

الأبحاث

الآيات المفسرة

الأحاديث المشروحة

المراجع

الأبحاث

ملحوظة: الأرقام التي كتبت بعدها (ت) يُطلب من التعليق

تقدمة

٣	الكلام حول "الفوز الكبير"
٤	ترجمته العربية
٥	الحاجة إلى تهذيب التعريب، وتغيير الشرح طبقه
٦	منهج الشرح
	علم التفسير
٧	حده، وموضوعه، وغرضه، وفوائده
٨	التفسير والتأويل
٨	التفسير بالرأى
٩	معنى التفسير بالرأى عند الإمام النانوتوى
١٠	أصول التفسير، وموضوعه، وغايته
	ترجمة الإمام المصنف
١١	اسمه ونسبه وولادته
١٢	نشأته
١٣	وفاته عصره أعماله الخالدة
١٦	ثناء الناس عليه تصانيفه القيمة
١٩	مذهبه الفقهي
٢١	من نعم الله تعالى عليه
	مقدمة الكتاب
٢٤	وجه التأليف
٢٤	مقاصد الرسالة منحصرة في خمسة أبواب
	الباب الأول: في العلوم الخمسة التي يدل عليها
١٢٥-٢٥	القرآن العظيم نصاً

٢٥	١ - علم الأحكام
٢٥ (ت)	جميع العلوم في القرآن، ولكن أم العلوم إلخ
٢٥ (ت)	حد علم المعاملات وعلم تدبير المنزل وعلم سياسة المدنية
٢٦	٢ - علم الجدَل ٣-٥ علوم التذكير الثلاثة
٢٦	أسلوب القرآن في عرض العلوم الخمسة
٢٦ (ت)	الفقيه والفقه
٢٦ (ت)	المتكلم وعلم الكلام
٢٦ (ت)	أيام الله
٢٧ (ت)	الخطابة والبرهان
	الناس ينقسمون إلى طبقتين: عالية وسافلة، فتعليم العالية
٢٧ (ت)	يكون بالبراهين، وتعليم السافلة بالمشهورات المسلمة
٢٨ (ت)	يكون سطح القرآن خطاباً، وباطنه برهاناً
٢٨ (ت)	القرآن لم يراع المناسبة والربط فيما بين العلوم الخمسة
	لا ينكر الإمام المصنف الارتباط والمناسبة فيما بين الآيات، بل
٢٨ (ت)	يقرر بدوره بالارتباط في فتح الرحمن
٢٩	لا يحتاج كل آية إلى سبب النزول
٣١-٩٩	الفصل الأول: في علم الجدَل
٣١	معنى علم الجدَل
٣١	وقعت المخاصمة مع الفرق الأربع على نحوين
٣٢-٥١	ذكر المشرَكين
٣٢	معنى الحنيف
٣٢	شعائر الملة الإبراهيمية
٣٣ (ت)	خصال الفطرة
٣٣	شرائعها
٣٤ (ت)	الفُسَّاق والزنادقة والجاهلون الغافلون
٣٥	عقائدها
٣٥	ضلال المشرَكين

٣٥ بيان الشرك: معناه والكلام حوله
٣٧ بيان التشبيه: معناها والكلام حولها
٣٧ (ت) معنى التجسيم والتحيز
	للتوحيد أربع مراتب: الأوليان منها من المقدمات المسلمة،
	واختلف الناس في الآخرين منها ومعظمهم ثلاث فرق: النجّامون
٣٨ (ت) والمشركون والنصارى
٣٩ بيان التحريف
٣٩ (ت) ترجمة عمرو بن لُحَيّ
٤٠ (ت) معنى البحائر والسوانب والحامى والاستقسام بالأزلام
٤١ جحود الآخرة
٤٢ استبعاد رسالة النبي صلى الله عليه وسلم
٤٢ (ت) اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون الرسل من جنس المرسل إليهم
٤٣ نموذج المشرّكين
٤٣ (ت) معنى "دار الإسلام"
٤٤ (ت) من أعظم الأمراض: عبادة الناس شيوخهم أحياء، ولقبورهم أمواتا
٤٤ (ت) الإشراك بالله استعانة ودعاء وذبحا وفي النذور والإيمان
٤٤ (ت) معنى قوله صلى الله عليه وسلم: لتبعن سنن من كان قبلكم
٤٥ ردُّ الإشراك
٤٦ رد التشبيه
٤٧ رد التحريف
٤٧ رد استبعاد الحشر والنشر
٤٧ (ت) المتوهّمات والمخيلات
٤٨ الردُّ على منكري الرسالة
٤٩ طرق الوحي (بحث مختصر وممتع)
٤٩ اجتهاد النبي أيضًا من الوحي المعنوي
٥٠ (ت) وجه عدم ظهور المعجزات المقترحة
٥٠ (ت) وجه عدم موافقة الله تعالى لهم في تعيين شخص

- وجه عدم إرسال الملك رسلاً ٥١ (ت)
- وجه عدم الإيحاء إلى كل أحد ٥١ (ت)
- ٧٠-٥١
- ذكر اليهود
- الكلام حول التوراة، وكتب العهد العتيق والجديد ٥١ (ت)
- وكان من ضلالهم
- ١- بيان التحريف ٥٣
- الحق عند المصنف: أن اليهود كانوا يرتكبون التحريف في
- ترجمة التوراة فقط، والمناقشة معه في ذلك الباب ٥٤ (ت)
- أمثلة التحريف المعنوي: - المثال الأول ٥٧
- معنى العبري والعبراني ٥٧ (ت)
- هدم الإسلام ذلك الطمع الأشعبي والأمانى الفارغة التي جعلت
- صنفًا من الناس يحسبون الجنة حكراً لهم أو عقاراً ٥٨ (ت)
- المثال الثاني للتحريف المعنوي ٥٩
- المثال الثالث للتحريف المعنوي ٦٠
- ٢- بيان كتمان الآيات ٦٠
- كتمان حكم الرجم ٦١
- التأويل الباطل في آيات فيها بشارة ببعثة نبي في أولاد هاجر
- وإسماعيل ٦٢
- ٣- بيان الافتراء: وأسبابه الثلاث ٦٣
- معنى الأحبار والرهبان ٦٣ (ت)
- لارهبانية في الإسلام: ليس بحديث ٦٣ (ت)
- استحسان الأصوليين ٦٣ (ت)
- ٤- سبب التساهل وارتكاب المناهي ٦٤
- نص قيم من حجة الله البالغة: فيه ذكر التحريف وأسبابه: من
- التهاون، والتعمق، والتشدد، والاستحسان، واتباع الإجماع،
- وتقليد غير المعصوم، وخلط ملة بملة ٦٤ (ت)
- ٥- أسباب استبعاد رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ٦٩

٦٩	النبوة ومنهجها في إصلاح الناس ..
٧٠	اختلاف الشرائع كاختلاف وصفات الطبيب
٧٠	أنموذج اليهود
٩٣-٧١	ذكر النصارى
	وكان من ضلالهم:
٧١	١- عقيدة التثليث: والردُّ عليها
٧١ (ت)	النصارى والنصرانية
	كانت رسالة المسيح خاصة لليهود، ولكن بولس دعا غير اليهود
٧١ (ت)	للدخول في المسيحية؛ وهو الذى ابتدع فكرة التثليث
٧١ (ت)	ذكر إنجيل برنابا
٧٢ (ت)	الأناجيل الأربع: مصنفوها، وأزمنة تصنيفها
٧٤ (ت)	التحريف الواسع في الأناجيل
٧٤ (ت)	النسخ القديمة للأناجيل الأربع كانت قد ضاعت
٧٤ (ت)	الأناجيل الموجودة كتب تاريخية، مضطربة المصادر
٧٤ (ت)	معنى "الأقنوم"
٧٥ (ت)	معنى المبدأ، والصادر الأول، والعقول عند الفلاسفة
	عقيدة التثليث ديانة قديمة: جاءت بها الديانات المصرية،
٧٥ (ت)	والهندية، والبابلية، والفلسفية
٧٧ (ت)	معنى "الصادر الأول" عند المصنف وعند الإمام النانوتوى
٧٩ (ت)	الاختلاف بين النصارى في تعيين الأقانيم الثلاثة
٧٩ (ت)	النصارى يقولون: إن التثليث والتوحيد كلاهما حقيقيان
	اختلف النصارى في بيان علاقة الاتحاد بين أقنوم "الابن"
٧٩ (ت)	وجسم المسيح اختلافًا شديدًا؛ وكذا اختلفوا في حكم كل أقنوم
٨٠	أدلة النصارى لإثبات ألوهية المسيح عليه السلام، والجواب عنها
٨٢	قد ثبت أن التحريف وقع في كتب بائيل ..
٨٤ (ت)	يسمى بالأب كل من كان سببا في إيجاد شئ أو إصلاحه أو ظهوره
٨٤ (ت)	الشهادات من الأناجيل على أن لفظ "الابن" بمعنى الصالح

٨٦ (ت)	لقد كفر الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة
٨٦ (ت)	تمسك النصارى بقوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ والجواب عنه
٨٧ (ت)	أقوال المسيح عليه السلام في إبطال التثليث
٨٨	أنموذج النصارى
٨٨	٢- عقيدة مصلوبية المسيح، والرد عليها
٩٠	٣- تحريفهم في بشارة الفارقليط
٩٠ (ت)	ذكر الفارقليط في الأناجيل
٩٠ (ت)	معنى الفارقليط
٩٠ (ت)	كان النصارى في القرون الأولى منتظرين للفارقليط
٩١ (ت)	تأويلهم الباطل في بشارة الفارقليط
٩١ (ت)	وصية عيسى عليه السلام
٩١ (ت)	بيان القرآن في شأن المسيح
	ختام البحث في أن لعيسى عليه السلام أربع خصوصيات مرعية
٩٢ (ت)	في حقه، فابتدعوا منها أربع عقائد باطلة
٩٣-٩٨	ذكر المنافقين
٩٣	نفاق الاعتقاد ونفاق العمل
٩٤	مظاهر نفاق العمل
٩٥	الكلام حول قسمي النفاق
	لما كان النبي صلى الله عليه وسلم مبعوثاً إلى الخلق كافة، وجب
٩٥ (ت)	التمييز بين الذين يدينون بدين الاسلام وبين غيرهم
٩٧	الغرض من ذكر أحوال المنافقين في القرآن العظيم
٩٨	نموذج المنافقين
٩٨	القرآن كتاب كل عصر
٩٩-١٢٥	الفصل الثاني: في بقية مباحث العلوم الخمسة
٩٩	١- بيان التذكير بآلاء الله
	اقتضت حكمة الله أن لا يخاطب في التذكير بآلاء الله بأكثر مما
٩٩ (ت)	يعلمه أكثر أفراد بني آدم

١٠٠	إثبات الذات وبيان الصفات
	إن لم يطلع الناس على الصفات الإلهية ، لم ينالوا معرفة
١٠٠ (ت)	الربوبية التي هي أنفع الأشياء في تهذيب النفوس (بحث قيم)
١٠٠ (ت) ١١٧ (ت)	الأقاليم الصالحة
١٠٠ (ت)	وجه امتناع إثبات الصفات بطريق الإمعان وتحقيق الحقائق
١٠١ (ت)	التحقق بالصفات الإلهية
	في أسماء الله الحسنی ثلاثة أمور: التحقق بها، والتعلق بها،
١٠١ (ت)	والتخلق بها
١٠٢ (ت)	تهذيب النفوس يتوقف على معرفة الله تعالى بصفاته الكاملة
١٠٣	صفات الله تعالى توقيفية
١٠٤ (ت)	بحث قيم حول الصفات الإلهية
١٠٧	بيان آلائه وآيات قدرته تعالى
١٠٧ (ت)	النعم الارتفاقية
١٠٨	٢ - بيان التذكير بأيام الله
١٠٨	ذكر من القصص ما هو الغرض منها
١٠٩	القصص المتكررة في القرآن
١١٠	ما ذكرت من القصص مرة أو مرتين فقط
١١٢	المقصود من سرد القصص في القرآن الكريم
١١٣	٣ - بيان التذكير بالموت وما بعده
١١٣ (ت)	تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ﴾
١١٥	٤ - بيان علم الأحكام
	بعث النبي صلى الله عليه وسلم بالملة الحنيفية، فلزم إبقاء شرائع
١١٥	تلك الملة
	أراد الله تعالى أن يزكي العرب بالنبي صلى الله عليه وسلم
١١٥	ثم يزكي العالم بأسره بالعرب
١١٦ (ت)	معنى قوله: بعث بالملة الحنيفية
١١٦ (ت)	لزم أن تكون مادة شريعته صلى الله عليه وسلم على رسوم العرب

١١٨ (ت)	تفصيل ما ذكرنا
١٢٠ (ت)	تعريفات الارتفاقات الأربع
١٢١ (ت)	معنى السمحة الحنيفية البيضاء
١٢٢ (ت)	دور التشريع الإسلامى فى إصلاح الملة الحنيفية المحرّفة ذكر القرآن العظيم الأحكام بالإجمال، ففضلها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن بعده أوضاعها الصحابة والتابعون لهم، ثم شرح مذاهبهم وأقوالهم الأئمة المجتهدون، فمثله كمثل دوحة أوعين
١٢٢ (ت)	التعريضات التى تحتاج إلى البيان: وأمثلتها
١٢٤	هذه الآيات من التذكير بأيام الله
١٢٥	الباب الثانى: فى بيان وجوه الخفاء فى معانى نظم القرآن بالنسبة إلى أهل هذا العصر، وإزالة ذلك الخفاء بأوضح بيان
١٢٦ - ٢١٠	كان من مرضى الشارع عدم الخوض فى تأويل متشابه القرآن، وتصوير حقائق الصفات الإلهية، وتسمية المبهم، واستقصاء القصص
١٢٦	أسباب صعوبة فهم المراد من الكلام
١٢٧	من هم أهل المعانى؟
١٢٧ (ت)	الفصل الأول: فى شرح غريب القرآن
١٢٨ - ١٣٤	ترجمة ابن عباس رضى الله عنه
١٢٨ (ت)	ترجمة ابن أبى طلحة، والكلام حول صحيفته فى التفسير
١٣٠ (ت)	ترجمة الضحاك بن مزاحم وترجمة نافع بن الأزرق الحرورى
١٣١ (ت)	ترجمة السيوطى وذكر كتابه الإتقان
١٣٢ (ت) و ١٣٩ (ت)	ذكر فتح الخبير
١٣٢	القدماء ربما يفسرون اللفظ بلازم معناه
١٣٣	الفصل الثانى: فى معرفة الناسخ والمنسوخ
١٣٤ - ١٥٨	معنى النسخ عند المتقدمين
١٣٤	المصنفات حول الموضوع
١٣٤ (ت)	

- معنى النسخ عند المتأخرين (الأصوليين) ١٣٥
- فى النسخ ثلاث مسائل ١٣٨ (ت)
- اختلف الناس فى وجود الآيات المنسوخة فى القرآن الكريم:
فذهب جماعة إلى وجودها، واختلفوا فى إحصاء ما نُسخ منه،
وذهب جماعة فى القديم والحديث إلى إنكارها، وإليه جنح الإمام
المصنف، وبه قال الشيخ عبيد الله بن الإسلام السندى، والإمام
الكشميرى وغيرهما ١٣٨ (ت)
- ترجمة ابن العربى المالكى ١٤٠ (ت)
- الآيات المنسوخة على رأى المتأخرين
- ١- آية الوصية للوارث (منسوخ عند المصنف وتوجيهه من الشارح) ١٤٠
- ٢- آية الفدية لمن يطيق الصيام (وحملها المصنف على
صدقة الفطر، وناقشه الشارح) ١٤١
- ٣- آية حل الرِّفْث ليلة الصيام ١٤٣
- ٤- آية النهى عن القتال فى الأشهر الحُرُم ١٤٤
- ٥- آية الوصية للمتوفى عنها زوجها بالمتاع إلى الحول
(منسوخ عند المصنف، وتوجيهه من الشارح) ١٤٥
- ٦- آية المحاسبة على الظاهر والباطن ١٤٥
- ٧- آية الاتقاء من الله تعالى حقَّ التقوى ١٤٧
- ٨- آية نصيب الموالى ١٤٨
- ٩- آية رَضَخِ أُولَى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى، وَالْمَسَاكِينَ مِنَ الْمِيرَاثِ ١٤٩
- ١٠- آيةُ إِمْسَاكِ مَرْتَكِبَاتِ الْفَوَاحِشِ فِي الْبُيُوتِ ١٥٠
- ١١- آية النهى عن إحلال الشهر الحرام ١٥١
- ١٢- آية التخيير بين أن نحكم بين غير المسلمين بالحق، أو
نعرض عنهم، ليرفعوا القضية إلى زعمانهم ١٥١
- ١٣- آية إشهاد غير المسلمين فى الغربة ١٥٢
- ١٤- آية مقاومة الكفار، وهم أكثر من المسلمين عشر مرات ١٥٣
- ١٥- آية الأمر بالنفر خفافاً وثقلاً ١٥٣
- ١٦- آية استقباح نكاح الروانى ١٥٤

١٥٥	١٧ آية استيذان العبيد والصبيان
	١٨ - آية عدم حلّ النساء للنبي صلى الله عليه وسلم سوى أزواجه صلى الله عليه وسلم.
١٥٥	١٩ - آية الأمر بالتصدق عند مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم.
١٥٦	٢٠ - آية أداء المهر إلى الذين ذهبت أزواجهم إلى الكفار
١٥٧	٢١ - آية الأمر بقيام الليل
١٥٨-١٧١	الفصل الثالث: في معرفة أسباب النزول
١٥٨	فوائد معرفة أسباب النزول
١٥٩	الاختلاف بين المتقدمين والمتأخرين في بيان أسباب النزول
١٦٠	معنى "نزلت في كذا" عند المتقدمين
١٦١	روايات المحدثين التي لا علاقة لها بأسباب النزول
١٦١	شرط المفسر في باب أسباب النزول أمران
١٦٢	قِصَصُ الأنبياء جُلُّها من روايات أهل الكتاب
	شرح قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم"
١٦٢	معنى آخر لقولهم: "نزلت في كذا" وهو أن الصحابة والتابعين ربما يذكرون قِصَصًا جزئية لمذاهب المشرّكين، لتتضح بها تلك العقائد.
١٦٣	صورة قصة، ولا قصة لها أي ربما يُذكر في القرآن صورتان: صورة سعيد وصورة شقي، ويكون الغرض من ذلك بيان الأحكام، لا التعريض بشخص معين
١٦٤	قد يفرضون السؤال والجواب في التفسير
١٦٥	قد يريدون التقدم والتأخر الرتبي، لا الزماني
١٦٦	شرط المفسر أمران في باب أسباب النزول
١٦٦	فن التوجيه
١٦٧	معنى التوجيه
١٦٨	أمثلة التوجيه
١٦٨	كيف يكون هارون أخا لمريم؟

١٦٨	كيف يمشى الإنسان يوم الحشر على وجهه؟
١٦٨	التطبيق بين التساؤل يوم الحشر وعدم التساؤل لما كان السعى بين الصفا والمروة واجباً، فما وجه قوله تعالى ﴿لَا جُنَاحَ﴾؟
١٦٩	فائدة قيد: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ فى آية القصر فى السفر
١٧٠	يذكر أسباب النزول وتوجيه المشكل فى فتح الخير لفائدتين
١٧١	إفراط ابن إسحق، والواقدي، وانكسبى
١٧١ (ت)	ترجمة ابن إسحاق والواقدي والكسبى
١٧٢-٠٤	الفصل الرابع: فى بقية مباحث هذا الباب
١٧٢	ما يوجب الخفاء فى فهم المراد من الكلام:
	١- بيان الحذف
١٧٣ (ت)	فوائد الحذف وأسباب الحذف
١٧٣ (ت)	لا يجوز الحذف إلا بدليل؛ ودلائل الحذف
١٧٤ (ت)	شروط المحذوف وأقسام المحذوف
١٨٠ (ت)	حذف "القول" فى القرآن ربما يعدم غرض الكلام
١٨١	حذف خبر إنَّ، والجزاء، والمفعول، والمبتدأ، وما شابهها مطرد
١٨٢	لا حاجة إلى تفتيش العامل فى كلمة: "إذ"
١٨٢	حذف الجار من "أَنَّ" مطرد
١٨٢	حذف جواب "لو" الشرطية
	٢- بيان الإبدال
١٨٣	إبدال فعل بفعل
١٨٤	إبدال اسم باسم
١٨٦	إبدال حرف بحرف
١٨٧	إبدال جملة بجملة
١٨٨	إبدال التنكير بالتعريف
١٨٩	إبدال التذكير والتأنيث والإفراد بأضدادها
١٩٠	إبدال التثنية بالمفرد

١٩٠	إبدال الشرط، والجزاء، وجواب القسم بجمله مستقلة
١٩١	إبدال الخطاب بالغيبة
١٩٢	إبدال الإخبار بالإنشاء، وبالعكس
١٩٢	٣- التقديم والتأخير، والتعلق بالبعيد، وماشابهَهُمَا
١٩٤	٤- الزيادة فى الكلام
١٩٥	الزيادة بالصفة
١٩٦	الزيادة بالإبدال
١٩٦	الزيادة بالعطف التفسيرى
١٩٦	الزيادة بالتكرار
١٩٨	تفسير قوله تعالى: ﴿هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾
١٩٨	توحيد الأهله لا يكون إلا فى الحج
١٩٩	تفسير قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾
١٩٩	زيادة حرف الجر
٢٠٠	واو الاتصال
٢٠١	فاء الاتصال
٢٠١ (ت)	ترجمة القسطلانى
٢٠١ (ت)	ترجمة سيويه و الزمخشري
٢٠٢	٥- انتشار الضمائر وإرادة المعنيين من كلمة واحدة
٢٠٣	٦- وجوه آخر مما توجب الخفاء
	الفصل الخامس فى بيان المحكم، والمتشابه، والكناية،
٢٠٤-٢١٠	والتعريض، والمجاز العقلى
٢٠٤	المحكم
٢٠٥	المتشابه
٢٠٦	الكناية
٢٠٧	تصوير المعنى المراد بالصورة المحسوسة
٢٠٨	التعريض
٢٠٩	المجاز العقلى

٢٤٤-٢١٠	الباب الثالث : فى بيان لطائف نظم القرآن، وشرح أسلوبه البديع
٢١٦-٢١٠	الفصل الأول : فى ترتيب القرآن الكريم، وأسلوب السور فيه
٢١٠	لم يُجعل القرآن مبوباً مفصلاً
٢١١	كان كل سورة فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم محفوظة
٢١١ (ت)	مضبوطة
٢١١ (ت)	جمع المصحف فى زمن أبى بكر الصديق رضى الله عنه
٢١١ (ت)	وجه عدم جمع النبى صلى الله عليه وسلم القرآن فى المصحف
٢١٢	تقسيم السور إلى أربعة أقسام
٢١٣	القرآن فى عهد عثمان رضى الله عنه
٢١٤	استهلال السور واختتامها على أسلوب الفرامين
٢١٥	منهج القصائد فى مبتدأ بعض السور
٢١٥	خواتم السور على منهج الفرامين
٢١٦	تخلل الكلام البليغ فى أثناء السور
٢٣٠-٢١٦	الفصل الثانى : فى تقسيم السور إلى الآيات، وأسلوبها الفريد
٢١٦	قد جرت سنة الله فى أكثر السور بتقسيمها إلى الآيات مثل
٢١٦	تقسيم القصائد إلى الأبيات
٢١٧	الفرق بين الآيات والأبيات
٢١٧ (ت)	النشائد والعروض
٢١٧ (ت)	ترجمة الخليل النحوى
٢١٨	الأمر المشترك بين الآيات والأبيات، ثم ضبط أمور وقع فى
٢١٩	الآيات التزامها، والتى تميز الآيات من الأبيات (بحث مهم)
٢٢٢	التوافق التقريبى هو الأمر المشترك بين مختلف الكلام المنظوم
٢٢٢	مراعاة القرآن الكريم للحسن الإجمالى المشترك
٢٢٣	الامتداد النفسى الطبيعى هو الوزن فى القرآن
٢٢٤	خاتمة النفس على المدة هى القافية فى القرآن
٢٢٤	لحوق الألف فى آخر الكلمة أيضاً قافية

٢٢٤	توافق الآيات على حرف واحد، وإعادة الجملة مفيداً لذّة.....
٢٢٥	اختلاف فواصل آخر السورة من أوائلها
٢٢٥	منهج القرآن فى الفواصل
٢٢٦	السّر فى الآية الطويلة مع الآيات القصار وبالعكس
٢٢٦	الآيات ذات القوائم الثلاث
٢٢٧	الآية ذات الفاصلتين
٢٢٨	أطول آية مع الآيات القصار
٢٢٨	لم يُراع ذلك الوزن والقافية فى بعض السور
٢٢٩	وجه اختيار الأوزان والقوافى الجديدة
	الفصل الثالث: فى وجه التكرار فى العلوم الخمسة، وعدم
٢٣٠ - ٢٣٣	الترتيب فى بيانها.....
٢٣٠	لَمْ تكرر مطالب العلوم الخمسة؟
	لم نشرت هذه المطالب فى القرآن العظيم، ولم يراع
٢٣١	الترتيب فيها؟
٢٣٣ - ٢٤٤	الفصل الرابع: فى وجوه إعجاز القرآن الكريم
٢٣٣	ماهو وجه الإعجاز فى القرآن الكريم؟
٢٣٣ (ت)	القرآن معجزة باقية لنبوة نبينا صلى الله عليه وسلم
٢٣٤ (ت)	المصنفات حول الموضوع
	إعجاز القرآن لوجوه كثيرة:
٢٣٥	١ - الأسلوب البديع
٢٣٥	٢ - الإخبار عن القصص الماضية، وأحكام الملل السابقة بدون تعلّم
٢٣٦	٣ - الإخبار بأحوال آتية
٢٣٧	٤ - الدرجة العليا من البلاغة
٢٣٧	لم لا يكون كلام البشر فى الدرجة العليا من البلاغة؟
٢٣٧	البلاغة حسن الانطباق
٢٣٨	الفرق بين الحسن والجمال

١٤١	٥- وجه خاص لا يتيسر فهمه لغير المتدبرين في أسرار الشرائع
٢٤٢ (ت)	٦- من وجوه الإعجاز: صنيعة بالقلوب، وتأثيره في النفوس
٢٤٣ (ت)	٧- إعجاز القرآن في مفرداته، ومركباته، وفي ترتيب كلماته، وفي مقاصده وحقائقه
٢٤٤ (ت)	المقدار المعجز من القرآن
	الباب الرابع: في بيان مناهج التفسير، وتوضيح الاختلاف
٢٨٩-٢٤٥	الواقع في تفاسير الصحابة والتابعين
٢٤٥	طوائف المفسرين
٢٤٧	جوامع التفاسير
٢٤٧	مامن الله به على المصنف في علم التفسير
٢٤٨ (ت)	معنى "مرتبة الاجتهاد في المذهب"
٢٤٨ (ت)	ترجمة أويس القرآن
	الفصل الأول: في بيان الآثار المروية في تفاسير أصحاب
٢٤٩	الحديث، وما يتعلق بها
٢٤٩	قسمان من أسباب النزول
٢٤٩ (ت)	تفسير الكعبة الحسنة والصلاة العظمى
٢٥٠	معنى قولهم: "نزلت الآية في كذا"
٢٥٠	أمور في التفسير لا طائل تحته
٢٥١	القدماء ربما يفسرون على سبيل الاحتمال
	تحقق في كثير من مناظرات الصحابة: أنه ليس بقول لهم، وإنما
٢٥١	هو تفتيش علمي
٢٥١	شرح قول ابن عباس: "لا أجد في كتاب الله إلا المسح"
٢٥٢	النقل عن بني إسرائيل دسيسة دخلت في ديننا
٢٥٣ (ت)	تفسير صحيح لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾
٢٥٣ (ت)	تفسير صحيح لقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضُمِ؟﴾
	إذا مست الحاجة إلى النقل عن بني إسرائيل فليكن النقل
٢٥٤	بقدر الضرورة

	تفسير القرآن بالقرآن لأنه ربما يجمل في موضع ويفصل في
٢٥٤	موضع آخر
	وجه اختلاف السلف في شرح غريب القرآن، وكيف يخرج
٢٥٥	المفسر من العهدة في ذلك؟
٢٥٦	استنباطات المصنف عليه الرحمة في شرح الغريب
٢٥٦	تفسير قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾
	اختلاف المتقدمين والمتأخرين في معنى "النسخ" مما أوجب
٢٥٨	الاختلاف في عدد الآيات المنسوخة
٢٥٨	ربما يجعل الإجماع علامة للنسخ
٢٥٩	أمر آخر يذكرونها في التفاسير
٢٥٩-٢٦٩	الفصل الثاني: في بقية لطائف هذا الباب
٢٥٩	الكلام حول استنباط الأحكام
٢٥٩ (ت)	تفسير الفحوى، والإيماء، والاقتضاء
٢٦٠	عشرة أقسام للاستنباطات
٢٦١	التوجيه في تفسير القرآن الكريم
٢٦١	حقيقة التوجيه
٢٦٢	ليس التوجيه في مرتبة واحدة
٢٦٢	عمدة التوجيه
٢٦٢	أنواع التوجيه
٢٦٣	غلو المتكلمين في تأويل المتشابهات من الصفات
٢٦٤	الجدال في القرآن
٢٦٤	لغة القرآن
٢٦٥	نحو القرآن
٢٦٥	الكلام حول لحن القرآن
٢٦٦	علم المعاني والبيان وما هو المطلوب منهما؟
٢٦٦	إشارات الصوفية ليست من التفسير
	فن الاعتبار
٢٦٧	جعل النبي صلى الله عليه وسلم فن الاعتبار معتبراً

٢٦٧ معنى الاعتبار
٢٦٨ أمثلة الاعتبار
٢٧٠-٢٧٤	الفصل الثالث : فى بيان غرائب القرآن الكريم
٢٧٠	هل فى القرآن شئ أفضل من شئ؟
٢٧٠	الإمام المصنف نوّع غرائب القرآن بتنويع بديع
٢٧٢	ظهر القرآن وبطنه
٢٧٢	مطلع الظهر والبطن
	شرح حديث : لكل آية ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ، ولكل حد مطلع .
٢٧٢	
٢٧٧-٢٧٥	الفصل الرابع : فى بيان بعض العلوم الوهية
٢٧٥	١- تأويل قصص الأنبياء
٢٧٥	أمثلة تأويل الإمام المصنف رحمه الله
٢٧٦	٢- تنقيح العلوم الخمسة
٢٧٦	٣- ترجمة القرآن الكريم باللغة الفارسية
٢٧٧	٤- علم خواص القرآن
٢٧٨-٢٨٩	الفصل الخامس : فى بيان المقطعات القرآنية
٢٧٨	اختلف الناس فى المقطعات على قولين
٢٧٩ (ت) و ٢٨٣	المقطعات أعلام صفاتية للسور عند المصنف
٢٨٠	الحروف الهجائية لها معنى بسيطاً ، غَضّاً طرياً
٢٨٢	كل كلمة اجتمعت فيها النون والفاء تدل على معنى الخروج
٢٨٢	كل كلمة اجتمعت فيها الفاء واللام تدل على معنى الشق والفتح
٢٨٣ (ت)	معانى الحروف الهجائية على طريق ذوقى منقول من الخير الكثير
٢٨٣ معنى الَمْ
٢٨٧	معنى الرّ والْمَرْ و ظه
٢٨٨	معنى طَسَمَ و حَمَ ، و عَسَقَ و نَ
٢٨٩	معنى يَسَ و صَ و قَ و كِهَيْعَصَ

الآيات المفسّرة

- ١١٠ ورفعه مكانا عليا
- ١١٢ وكلاً نَقُصُّ عليك من أنباء الرسل: ما نثبت به فؤادك الآية.....
- ١١٣ وإنه لَعَلِمَ للساعة.....
- ١١٤ إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون.....
- ١١٦ ملة إبيكم إبراهيم
- ١١٦ وإن من شيعته لأبراهيم
- ١١٦ كنتم خير أمة.....
- ١٤٠ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت الآية
- ١٤١ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين
- ١٤٥ متاعاً إلى الحول غير إخراج
- ١٥٠ والتي يأتين الفاحشة
- ١٥٣ إن يكن منكم عشرون صابرون الآية.....
- ١٨٧ لا يخاف لدى المرسلون، إلا من ظلم الآية
- ١٨٨ من كان عدواً لجبرئيل فإنه نزله على قلبك بإذن الله
- ١٩٨ يستلونك عن الأهله الآية
- ١٩٩ ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة
- ٢٤٣ ورافعك إلى
- ٢٥٣ ولقد فتنا سليمان
- ٢٥٣ وهل أتاك نبؤ الخصم؟
- ٢٥٧ كتب عليكم القصاص فى القتلى
- ٢٦٣ الرحمن على العرش استوى
- ٢٦٧ لمسجد أسس على التقوى
- ٢٦٨ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس الآية
- ٢٧٥ ويعلمك من تأويل الأحاديث..

الأحاديث المشروحة

٢٥ قل: هو الله أحد تعدل ثلث القرآن
٣٣ حديث خصال الفطرة
٤٤ لتتبعن سنن من كان قبلكم
٦١ حديث رجم اليهودى واليهودية
٦٣ ترهب أمتي الجلوس فى المساجد الحديث
٦٣ لارهبانية فى الإسلام: ليس بحديث
٦٥ ألا يوشك رجل شبعان على أريكته الحديث
٦٥ إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً الحديث
٦٥ لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى نهتهم علماءهم
٦٦ لن يشاد الدين أحد الإغلبة
٩٦ أربع من كن فيه كان منافقا خالصاً الحديث
٩٦ ثلاث من كن فيه وجدهن حلاوة الإيمان الحديث
٩٦ إذا رأيتم الرجل يلزم المسجد إلخ
٩٦ حب على آية الإيمان، وبغض على آية النفاق
٩٦ حب الأنصار آية الإيمان
١٦٢ لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم
١٦٢ بلغوا عنى ولو آية، وحدّثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج
١٦٤ لا يكون الرجل فقيها إلخ
١٧٠ صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته
٢١٢ كيف تحزبون القرآن؟ إلخ
٢٤٢ القرآن لا يشبع منه العلماء الحديث
٢٥٢ لا أجد فى كتاب الله إلا المسح
٢٦٥ قال عثمان: إن فى القرآن لحناً إلخ
٢٧٢ لكل آية ظهر وبطن الحديث

المراجع

- ١- كتاب الاعتبار في بيان الناسخ والمنسوخ من الآثار
- ٢- الإتقان في علوم القرآن
- ٣- لباب النقول
- ٤- تفسير الجلالين
- ٥- حجة الله البالغة
- ٦- الخير الكثير
- ٧- التفهيمات الالهية
- ٨- تأويل الأحاديث
- ٩- القول الجميل
- ١٠- مجموع مكاتيبه
- ١١- فتح الرحمن في ترجمة القرآن
- ١٢- المسوى في شرح الموطا
- ١٣- فيض الباري
- ١٤- تحذير الناس من إنكار أثر ابن عباس
- ١٥- آب حیات
- ١٦- براهين قاسمية (جواب تركي به تركي)
- ١٧- قبله نما
- ١٨- فتح الباري
- ١٩- تهذيب التهذيب
- ٢٠- التفسير
- ٢١- البداية والنهاية
- ٢٢- روح المعاني
- ٢٣- معارف السنن
- لابن حازم الهمداني
- للإمام جلال الدين السيوطي رحمه الله
- للإمام جلال الدين السيوطي رحمه الله
- للإمام جلال الدين السيوطي رحمه الله
- للإمام المصنف رحمه الله عليه
- للإمام المصنف رحمه الله عليه
- للإمام المصنف رحمه الله عليه
- للإمام المصنف رحمه الله عليه
- للإمام المصنف رحمه الله عليه
- للإمام المصنف رحمه الله عليه
- للإمام المصنف رحمه الله عليه
- للإمام العصر محمد أنور شاه الكشميري
- للشيخ محمد قاسم النانوتوي رحمه الله
- للشيخ محمد قاسم النانوتوي رحمه الله
- للشيخ محمد قاسم النانوتوي رحمه الله
- للشيخ محمد قاسم النانوتوي رحمه الله
- لابن حجر العسقلاني
- لابن حجر العسقلاني
- لابن كثير
- لابن كثير
- للسيد محمود الألوسي البغدادي
- للعلمة محمد يوسف البنوري

- ٢٤- يتيمة البيان
- ٢٥- نهاية السؤل فى شرح منهاج الأصول
- ٢٦- البرهان فى علوم القرآن
- ٢٧- الصحيح
- ٢٨- الصحيح
- ٢٩- السنن
- ٣٠- السنن
- ٣١- شرح النووى على الصحيح لمسلم
- ٣٢- المفردات
- ٣٣- مقدمة التفسير
- ٣٤- معرفة الناسخ والمنسوخ
- ٣٥- نصب الراية
- ٣٦- الأركان الأربعة
- ٣٧- أحكام القرآن
- ٣٨- أحكام القرآن
- ٣٩- لباب التأويل
- ٤٠- معالم السنن
- ٤١- المظهرى
- ٤٢- السيرة النبوية
- ٤٣- نزهة الخواطر
- ٤٤- الأعلام
- ٤٥- أبجد العلوم
- ٤٦- اليانع الجنى
- ٤٧- مقدمة الخير الكثير
- ٤٨- شاه ولي الله اوران كالفه
- ٤٩- إلهام الرحمن فى تفسير القرآن
- ٥٠- إظهار الحق
- للعلامة محمد يوسف البنورى
- للشيخ جمال الدين الأسنوى
- للشيخ بدر الدين محمد بن عبد الله
- الزر كشى (بتحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم)
- للإمام البخارى
- للإمام مسلم بن حجاج القشبرى
- للإمام الترمذى
- للإمام أبى داود السجستانى
- للإمام النووى
- للعلامة راغب الأصفهانى
- للعلامة راغب الأصفهانى
- لابن حزم الأندلسى
- للإمام الزيلعى
- للشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى
- للجصاص الرازى
- لابن العربى المالكى
- للخازن
- للخطابى
- للشيخ القاضى ثناء الله الفانى فتى
- لابن هشام
- للمؤرخ عبد الحى بن فخر الدين الحسى
- للمزركلى
- للتواب صديق حسن البوفالى
- للشيخ محسن بن يحيى الترهتى
- للسيد أحمد رضا البجنورى
- للشيخ العلامة عبيد الله بن الإسلام السندى
- للشيخ عبيد الله بن الإسلام السندى
- للعلامة رحمت الله الكيرانوى ثم المكى

- ٥١- السيرة الحلبية للحلبى
- ٥٢- المبسوط للسرخسى
- ٥٣- معجم القرآن للمحامى عبد الرؤف المصرى
- ٥٤- الخطط المقرزية للمقرزى (طبع لبنان سنة ١٩٥٩ م)
- ٥٥- النبراس لشرح شرح العقائد النسفية للعلامة عبد العزيز البرهياروى
- ٥٦- الأناجيل الأربعة
- ٥٧- أسفار العهد القديم
- ٥٨- أسفار العهد الجديد
- ٥٩- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة
- ٦٠- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد
- ٦١- مرآة الشروح
- ٦٢- العلم الخفاق من علم الاشتقاق
- ٦٣- شرح خطبة الكافى فى علم اللغة
- ٦٤- المنجد (فى العلوم والآداب)
- ٦٥- كنز الحفاظ
- ٦٦- بيان القرآن
- ٦٧- مشكوة المصابيح
- ٦٨- فيض القدير بشرح الجامع الصغير
- ٦٩- شرح القصيدة البردة
- ٧٠- شرح القصيدة البردة
- ٧١- إعجاز القرآن
- ٧٢- إعجاز القرآن
- ٧٣- مفتاح العلوم
- ٧٤- الإفصاح على عروض المفتاح
- ٧٥- دلائل الإعجاز
- ٧٦- تاج العروس
- ٧٧- معجم غريب القرآن
- ٧٨- النسخ فى القرآن
- لابن السكيت
- للشيخ العلامة محمد أشرف على التهانوى
- للخطيب التبريزى
- للعلامة عبد الرؤف المناوى المصرى
- للشيخ البيجورى
- للعلامة خالد الأزهرى
- للقاضى أبى بكر محمد بن الطيب
- المعروف بالباقلانى
- للعلامة حمد بن سليمان البستى الخطابى
- للسكاكى
- للعلامة محمد إعزاز على الديوبندى
- للعلامة عبد القاهر الجرجانى
- للعلامة الزبيدى
- للشيخ محمد فؤاد عبد الباقي
- للدكتور مصطفى زيد

